

بين النجى والاثام

بقلم
عبد القدوس الانصاري





حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود المعظم
ملك المملكة العربية السعودية ورائد نهضتها الكبرى

بَيْنَ النَّاسِ وَالْأَنْثَى

بَيْنَ النَّيْلِ وَالْأَثْنَانِ

بِقَلَمِ
عَبْدِ الْقَدَرِ وَالْأَنْصَارِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - بيروت ، ١٩٦٩

الطبعة الثانية - بيروت ، ١٩٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

نحمدُ اللهَ حمدَ الشاكرين ، ونصلي ونسلم على أفضل خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه .

أما بعدُ فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب « بَيِّنَ التاريخ والآثار » أقدمُها للقراء بعد نفاد طبعته الأولى ، وبعد ورود الطلب المتوالي ، إلَيَّ ، من القراء الراغبين في اقتنائه .

ولعل من المناسب الإشارةَ إلى مزايا الطبعة الجديدة هذه . فقد أُجْرِيتُ بها تصحيح ما لاحظتُ حدوثه من السهو في بعض العبارات في طبعته الأولى ، كما وضعتُ بها « زيادات » خفيفة اقتضاها إدراكي لزوم القيام بها . وكلّ ذلك لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة لا كمّاً ولا كيفاً .

ومن تلك الزيادات وضع « مُصَوِّرَيْن » بالكتاب لمدينة الحارِ (البُريِّكَةِ) التي ورد ذكرها في الكتاب بمناسبة تاريخية ، وكانت ميناءَ المدينة المنورة العالمي الكبير قبل ميناء ينبع بأزمان . وأحدُ الرسمين هو « خريطة » أثرية لبلاد العرب ، ذُكِرَ فيها ميناء « الحار » وعُيِّن موضعه على ساحل البحر الأحمر ، وقد وضعها الرحالةُ العربيُّ الشهير (ابن حوقل) الذي عاش في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وقام بجولات واسعة في أنحاء العالم الإسلامي ، وكان كتابه (صورة الأرض) ثمرة رحلاته تلك . وثاني الرسمين خريطة « تقريبية » لمدينة الحار المجاورة

لمينائها ، وقد وضعتُ هذا المصبور التقريبي للمدينة المندثرة بعد وقوفي على أطلالها في الرحلة الثانية إليها بشهر ربيع الأول ١٣٩١ هـ ، الموافق يولييه ١٩٧١ م .

هذا وقد استلزم اثباتُ تلك التنقيحات والزيادات في صُلْبِ الكتاب لإثباتها أيضاً في فهارس أعلامه وأمكنته . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل ، ومنه وحده نستمد المعونة والسداد وتحقيق الآمال .

عبد القدوس الأنصاري

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذه بحوث متفاوتة ، بالنسبة للزمن الذي كتبت ونشرت فيه ، وبالنسبة لما نُشرت فيه . ولكنها مع هذا التفاوت المزدوج مترابطة في هياكلها وفي جواهرها .. وفي موضوعاتها .. ولإني لأرجو أن أكون قد نجحتُ في ربط أواصر الصلة بين مادتي التاريخ والآثار اللتين تقدمان ثماراً ناضجة للباحثين والمستطلعين عن حقائق العصور القديمة في عصرنا الحديث . وموضوعات هذا الكتاب لا تخرج عن دائرة البحث في بعض آثار هذه البلاد العربية وهي : المملكة العربية السعودية ، وما يقع بمشرقها ، مثل الكويت ، وما يقع بشمالها ، مثل الأردن وسورية ولبنان . وهذا البحث الأثري ، كما تراه ، مقرون بالبحث التاريخي المجرد في نفس إطار الأقطار المشار إليها ، ولا أدعي أنها أبحاث مستقصية شاملة وإنما هي غالباً لمحات .

وقد دعاني إلى اقتحام ميدان هذه البحوث العويصة التي لا يزال الغموض يكتنفها في كثير من أبعادها وحقائقها ، دعاني إلى ذلك محاولة إبراز ذلك الإسهام الكبير الذي قامت به حضارة العرب في جاهلية وفي إسلام ، حيال الحضارة الإنسانية الشاملة .

ولإني بهذه المناسبة — أدعو باخلاص وبحرارة علماء العرب والمسلمين

إلى مزيد من هذه البحوث ، الأثرية التاريخية الكاشفة .. كما أدعو أيضاً إلى تخصيص وافر الأموال والجهود والرجال للبحوث الأثرية التنقيبية في أعماق أرضنا المعطاء ، حتى تخرج لنا من ينابيعها الثرة كنوزها الثمينة المطمورة في باطنها .. على أن نقوم نحن أيضاً بهذه المهمة العلمية ، ونقوم بعدها بمهمة دراسة تلك الآثار بأنفسنا وبوسائلنا العلمية الخاصة غير معتمدين على اهتمامات غيرنا في هذا السبيل اللهم إلا بالنصيب الضروري فيما لا بد منه من التعاون البشري العام على تقدم العلوم وتوسعة آفاقها .. كما أدعو في نفس الوقت إلى مزيد من البحث في بطون الكتب التاريخية والأثرية والعلمية والأدبية ، لاستخلاص حقائق تاريخنا القديم المبعثرة .

هذا وقد اعتمدت في البحوث هذه على جملة مراجع .. في طليعتها القرآنُ المجيد وتفسيره ، ثم كتبُ بعض المؤرخين والجغرافيين الغربيين القدامى كهيرودتس ، والمحدثين ، وكتبُ بعض المؤرخين والجغرافيين العرب ، والرحالين العرب القدامى ، كالهمداني في الإكليل ، وصفة جزيرة العرب ، وكالاصطخري ، وياقوت الحموي ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وبعض المصادر اللغوية مثل المخصص لابن سيده ، ولسان العرب ، والقاموس ، وتاج العروس ، والمعجم الوسيط تأليف المجمع اللغوي بالقاهرة ، ومعجم متن اللغة لأحمد رضا ، وكمؤلفات بعض العرب المحدثين في التاريخ مثل كتابي : العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان ، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ، وكهف أهل الكهف لرفيق وفاء الدجاني ، وكتب بعض المستشرقين في الآثار العربية ككتاب هاردنج المترجم إلى اللغة العربية بقلم سليمان موسى وزميله . يضاف إلى ذلك بعض مؤلفات الباحثين السعوديين مثل صحيح الأخبار لابن بليهد ، وبحث المعادن لرشدي ملحس ، وقلب جزيرة

العرب لفؤاد حمزة ، وجزيرة العرب لحافظ رهبة ، وكتاب في ربوع عسير لعمر رفيع ، والعرب في أحقاب التاريخ لأمين مدني . ولا أنسى كتابي ابن بشر وابن غنام في هذا الصدد .. وكتابي تاريخ مدينة جدة ، وآثار المدينة المنورة لكاتب هذه السطور .. وغير ذلك مما اشتملت عليه بحوث استكشافية أثرية قمتُ بها أثناء رحلاتي وتجولاتي .

وهكذا يصدر هذا الكتاب مزدوج الشخصية موحد الكيان والأسلوب والهدف . إن شخصيته مكونة من جلاع البحوث الأثرية ، والبحوث التاريخية الخيرية المصفاة من الشوائب بقدر اجتهادي .

وكنيت حينما بدأت « هواية تتبع الآثار » تداعبُ مخيلتي في أول عهد الشباب ، قد شملت من أريجها العبق أن لها فائدة تذكر في دعم مرويّات التاريخ النظري ، ولذلك فهي جديرة بالاهتمام وقيمة بالتقدير والاستمرار .. لاني لمست بالدقة أن كثيراً من الأمور المهمة في معرفة تاريخنا العريق قد أهملها تاريخنا النظري المكتوب دفعة واحدة . ولعل ذلك يعود إلى أنه كان يراها تافهة بالنسبة لوقته ، أو لأنها لم تدخل في إطار ما أُلِّمَ به من الحوادث . فمثلاً نُقِرَ على صخرة ملساء كبيرة مربعة في جبل يقع شمال سد وادي رانواناء في ضاحية المدينة المنورة الجنوبية الشمالية بيتنا شِعْرٍ قديمان ، لمجهول ، سجل لنا فيه عمراناً مزدهراً للمكان الذي نراه الآن قفراً يباباً بين جبال سودٍ جردٍ ... ومثلاً اكتشفتُ في جنوب المدينة المنورة ، جبلاً متوهجاً صغيراً ، بأعلاه كُله قُبِيّباتٌ وإطئة مبنية من الحجر (الدبش الصغار) وفي داخلها مقابر منقورة في الحجر ممددة فيها هياكل قوم ضخام الأجسام . وقد أدركتُ في نفس الوقت أنه لا بد أن يكون بجانب هذه المقبرة النائية عن العمران ، مدينةٌ قديمة مجهولة . والصويدة المملوءة بالنقوش الأثرية ما بين خطية ورسوم حيوان وأناسي ، لم أجد لها ذكراً فيما اطلعتُ

عليه من المصادر ، مع أنها في طريق المدينة - القصيم ، وطريق المدينة - بغداد ، أي طريق الحجاج في الزمن الغابر . وكمدينة بني سليم التي أدركت أنها كانت موجودة في بلادهم ، عامرة زاهرة ، من مقبرتها التي جلب إلى جدة بعض بني سليم الشواهد منها ووصفوها لي بالاتساع وكثرة حجارة الشواهد المنقورة بها الخطوط الرائعة القديمة . وجُلّ هذا وغيره أهمله تاريخنا المكتوب ولم يعرج عليه فيما أطلعتُ عليه حتى الآن .

كما فطنت لحقيقة علمية كبيرة ، ساقني إلى مزيد الحرص على تتبع ما أمكن تتبعه من الآثار واستنطاقها عن ماضي الأخبار . والحقيقة الماثلة للعيان هي أنه إذا اتفق التاريخُ الخبري والشاهدُ الأثري على حدوث أمر ما ، فإنّ ذلك يكون حقيقةً مؤكدة ، لا شبهة فيها ولا التواء .

وإذا انفرد التاريخُ الخبري بحدوث أمر ما ، فإنه لا بدّ أن يوضع تحت مجهر الفحص والدراسة المستوعبة .. ليتوصل إلى رجحان وقوعه أو نفي وقوعه .. وهذا باستثناء كلام الله تعالى ، الثابت ، وهو القرآن المجيد وباستثناء الحديث النبويّ الصحيح . أما إذا انفرد الشاهد الأثري بحدوث أمر ما ، فإنّ الغالب أن يكون حدوثه صحيحاً .. لأنه تصوير صامت لا يتأثر غالباً بالدعاية أو الملق ، ومع ذلك فليس كل ما تتحدث به الآثار صحيحاً ، مائة في المائة . وقد دلنا الاستقراء على أن من الآثار الخطية والرسمية المنقورة على الصخور ما لا يخلو من مبالغات وتهويل ، أو نقص أو تزويد ، بحسب الظرف الذي نُقِرَ فيه ذلك الأثر سواء أكان خطأ أم صورة .

وبعد ، فإنّ هذه الأبحاث المدوّنة في هذا الكتاب قد كنتُ كتبْتُها ونشرتها في أزمنة متفاوتة ، وفي أماكن متفرقة ، وفي صحف ومجلات

وغيرها .. وقد استغرقت كتابتها المتباعدة المسافات ، واحداً وثلاثين عاماً .. وبالتحديد استغرقت من عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٦ م إلى عام ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .

وحينما قررتُ جمعها بين دفتي كتاب واحد ، لضمان الإفادة من هذا الجمع بعد التفرق ، وهذا الضم بعد التشتت ، راجعتها وأعملتُ فيها من التعديل والتنسيق ما اقتضاه هذا الكيان الوليد .. وهذا الجهد الجديد ..

وكما أشرت إليه فإن من البواعث التي دفعتني إلى هذا الصنيع ، الرغبة العميقة الجذور الطامحة ، الملحة في إلقاء بعض الأضواء على الماضي البعيد ، والأبعد من تاريخ العرب والإسلام ، خاصة في هذه الديار التي هي مهد العرب والإسلام .

فإذا أدنى الكتابُ مهمته هذه فذلك فضل من الله ومنة ... وهذا هو ما نرجوه ونأمل أن يحققه اللطيف الخبير .. إنه على كل شيء قدير ، وإنه أكرم مسؤول وأكرم مجيب . وإذا حدث فيه شيء من السهو أو الخطأ فإنه غير مُتَعَمِّد . والإنسانُ دائماً مُعَرَّضٌ للخطأ والنسيان . والعبرة قبل كل شيء بالنية الطيبة والعمل الصالح المفيد .

من ذا الذي ما ساء قط ؟ ومن له الحسنى فقط ؟

اضواء
على تاريخ جزيرة العرب

جزيرة العرب ، هي المهد الأول للساميين عموماً ، فهي إذن مهد الحضارة العالمية ، لأن الساميين هم بُناة هذه الحضارة .

هذا ما يراه كثير من علماء الآثار ، ولهم دلائل أثرية ، ودلائل خبرية مقارنة ، ودلائل منطقية وطَبَعِيَّةٌ على دعم هذا الرأي .

وإذا أردنا أن نحدد المنطقة التي نشأت منها الحضارة فيما قبل التاريخ ، والتي عُرفَ فيها التعدين والزراعة والصناعة والتجارة وسائر مُقومات الحضارة قبل أي جزء آخر من أجزاء الدنيا القديمة ، فلنا أن نقول استناداً على أرجح أقوال الأثرين والجيولوجيين : إنها المنطقة التي توصلُ بين نَجْدٍ والحجاز ، وهي التي تكثُر فيها المعادن وهي التي اكتشفت فيها آثار المدن والقرى والتلال التي طمرت مدناً ومصانع ومقابر ومزارع عريقة في القدم ، من آثار أولئك الجبابرة بناة الحضارة الإنسانية الأقدمين .

وسنرى أن المؤرخين يصفون بلاد العرب بكثرة المعادن والمناجم ، فإذا رجعنا إلى أقوالهم ومشاهداتهم وجدنا أن هذه المنطقة هي أحفل المناطق العربية بالمناجم الذهبية وغيرها ، فما أكثر المناجم التي يصفونها بأنها في أرض كَعْبِ بنِ كِلَاب ، و غَطَفَان ، وعبسٍ ، وذبيان

وسُليْسَم^١ ، وهي تقع في أواسط المملكة وتأخذ بأطراف من الحجاز ،
وبأطراف من نجد ، في الشرق ، وفي الشرق الجنوبي ، وفي الشرق
الشمالي معاً .

كما أنه بهذه المنطقة الممتدة كانت تجري الأنهار الفياضة التي قال
عن أحدها (هيرودتس) (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م .) : إنه نهر يسمى
(كورس) . وإنه من الأنهار العظيمة ، وإنه كان يصب في بحر
(لإريتريا) أي البحر الأحمر^٢ .. كما أن من هذه الأنهار نهر (لار)
(LAR) ، الذي أشار بطلميوس (القرن الثاني الميلادي) بأنه ينبع
من نجران ، ويسير في الشرق الشمالي ، حتى يصب في الخليج العربي ،
ويرى بعض الباحثين أنه هو الذي كان يجري في وادي الدواسر^٣ . وقد
كانت هذه الصحارى التي نشاهدها اليوم وشاهدتها قبلنا الأجيال المعروفة
فيما بعد التاريخ ، كانت مروجاً خضراً ، أهلة بالسكان^٤ وقد كان
للعرب ، سكانها إذ ذاك ، عِلْمٌ واسع بتنظيم شؤون الرّي ، وتدل
الآثار التي عثر عليها الباحثون في الصخور وتحت الأرض ، على حضارة
لهم زاهية في هذه الصحراء الجرداء من قبل حدوث الخفاف بها . وكان
للعرب إذ ذاك ممالك ودول قائمة على دساتير منظمة .

وقد عرف لديها الخط قبل أي قبيل أو أمة .. وناهيك بمدينة
المعينيين والصفويين ومن جاء قبلهم ومن جاء بعدهم من العرب القدماء
الذين انتشروا في أواسط الجزيرة وشرقها وغربها وشمالها وجنوبها . ثم
عمت البداوة أراضيها بعد ذلك بفعل اشتداد الخفاف ، وفوضى الحكم

١ بحث المعادن : لرشدي الصالح ملحق .

٢ ص ٩٨ من تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد علي .

٣ نفس المصدر .

٤ تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتي ، ج ١ ، ص ١٥ .

وضعف الحكومات ، وتزعم المشايخ وانتشار أعمال السلب والنهب .
ثم جاءت عوامل الزمن والإنسان فطمرت كل ما خلفته تلك الحضارات
الزاهرة من آكار وعمران ، ثم لفّتها النسيان في ضبابه ، حتى ظن
الناس فيما بعد ، أن الجزيرة ، وخاصة هذه المنطقة ، منها - نجداً
والحجاز لم يكن أهلها يألّفون غير البداوة وشظف العيش والخفاء والجهل
المطبق ، وأن لا صلة لهم بكل مقومات الحضارة ، مما أثبتت الكشف
الحديثة الأثرية ، والمستندات الخيرية ، بطلانه . فكان لزاماً على أهل
هذه البلاد الإلمام بهذا الرأي العلمي الحديث ، ليعرفوا ماضيهم ، وليبنوا
كما بنى أوائهم .

هذا وقد ظلت أخاديد الأنهار العظيمة بالجزيرة شواهد نواطق على
تلك الحضارات الذاهبة . وناهيك بوادي الحمض ووادي السرحان ،
ووادي الرمة ، ووادي الدواسر ، وغيرها من الأنهار التي جفّت
وبقيت مجاريها أخاديد تجري بها سيول الأمطار .

وكان من أثر الخفاف الذي خيم على هذه البلاد بعد تلك العصور
الناصرة ، أن بدأت موجات الهجرات منها . فترح الفينيقيون عنها
بعدها عمروها وثمروها ، إلى الشمال ، وإلى الشمال الشرقي ، وإلى الشرق
وبقيت بَوَاقٍ منهم اندمجت في أحفادهم من أجداد العرب الذين عرفوا
منذ أزمان سحيقة بهذا الاسم ، والذين عُرفَتْ بهم جزيرة العرب في
الآماد السحيقة أيضاً .

وقد هاجر إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها اسماعيل إلى ديار
العرب ، واستقر بهم المقام في هذا الجزء المعروف فيما بعد بتُهامَة ،
في الوادي الأجرد الذي بنيت به مكة بعدئذ ، وكانت منطقة مكة
إذ ذاك قد شملها الخفاف كما شمل أغلب المناطق الأخرى ببلاد العرب ،
وصوح نبتها وآصت بلقماً خالياً خاوياً ، لا ماء فيه ولا كلاً ، ولا أناساً

وكانت قوافل عرب الجنوب تمر بهذه المنطقة في رحلاتها التجارية ما بين الشام واليمن ، حاملة الطيوب والصمغ والجلود ، وقد لاحظت قافلة عابرة من قوافلهم علامات الماء بها ، وأدهشتها المفاجأة ، إذ رأت هذه المرأة الوحيدة مع ابنها الرضيع ، فنزلت عليهما بالوادي ، وكانت (زمزم) قد صعد ماؤها الغزير إلى سطح الأرض ، حيث يمكن تناوله باليد المجردة ، وكان ذلك تكريماً من الله لإسماعيل ولأمه^١ .. وهكذا قدّر لمكة أن تنشأ ، وقد يكون لإنشاؤها مجدداً ، بدليل وجود البيت العتيق بها^٢ ، (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) .. وهكذا قدّر لمكة أن تقاوم طبيعة الحفاف المنبسطة على رفعتها ، وأن تبتدئ بهذه المقاومة الهائلة بعد شمول الحفاف لجزيرة العرب بأمد وجيز ، على ما نراه بتحفظ^٣ فقد صرح ابن عباس رضي الله عنه في حديثه المروي عنه في تاريخ مكة للأزرقي أن العماليق كانوا يسكنون بمكة ، والأرض مخصبة ، والأنهار متدفقة ، ثم أحلت فهجروها إلى اليمن ، ومن ثم جاءت إليها جرهم . وعجى جرهم إليها معلوم أنه كان عقب قدوم إبراهيم يهاجر وإسماعيل ، إلى منطقة مكة . وبذلك كانت مقدمة عمرانها الثاني الذي استمر حتى الآن ، وما بعد الآن بأزمان مديدة إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر المؤرخ بطليموس (القرن الثاني بعد الميلاد) مكة ، باسم (ماكوربا) .

ويرى أصحاب تاريخ العرب . مطول) أن : « هذا الاسم مشتق من الاسم السبئي : (مَكُورَابَا) ومعناه مقدس أو حرم ، وقالوا : إنه يستفاد من هذا الأصل أن مكة كانت في أول عهدها مقاماً دينياً ..

١ وقد يدل هذا على اقتراب زمن نزولها بوادي مكة ، من أوائل عصر الحفاف .

٢ و ٣ وما يستدل به على صحة هذه النظرية ما ورد في الأزرقي ص ٤٥ ، ج ١ .

إذن فهي مركز للعبادة يرجع عهده إلى ما يسبق محمداً عليه السلام بأزمان متطاولة»^١ . وهذا الذي قالوه ذو شقين .. فأما تأويل الاسم ، فاني أرى أن المؤلفين واهمون ، وأنهم تتبعوا حرفية آراء المستشرقين في التأويل ، فأصابوا في الحملة وأخطأوا في التفصيل . ذلك أني أرى أن بطليموس قد حرّف ، بلهجته الاعجمية ، الاسم العربي ، الذي هو على ما أرى : (مكة الرب) .. أي بلد الله .. وقد تحول في الترجمة إلى ما ترى : (ماكورابا)^٢ .. وجاء المستشرقون فتأولوا الاسم بأنه من اللفظ السبّثي : (مكورابا) أي حرم ومقدس .. والاسم السبّثي لا بدّ أنه (مكة الرب) أو (مكة أم رب) بقلب لام التعريف إلى (أم) على لهجة اليمن ، وقد سمع بطليموس هذا الاسم من تجار العرب فنقله إلى لغته محرفاً ، كما ورد في سيفر تاريخه ، وأضفى عليه المستشرقون المعنى المطلوب ، وإن فاتهم حقيقة التأويل والتفسير المنطقيين للصيغة ، لأنها نقلت اليهم محرفة مشوهة . وأما الشق الثاني فهو ما يخص بمقام مكة الديني ، وما قالوه ، يطابق ما جاء به الإسلام ، وصرح به القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فمكة بلد الله و « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم » ..

هذا وقد كان من أثر الخفاف العام ، وضعف حكومات العرب في أنحاء الجزيرة ، خراب السدود العظيمة التي أقامها أسلافهم ، للاستفادة لزراعتهم وصناعاتهم من السيول والأنهار على النحو الذي يجري بعد

١ ج ١ ، ص ١٤٤ .

٢ ومثل هذا ما يفعله العرب إذ ينقلون إلى لغتهم بعض الأسماء من أعلام وغيرها عن الأعجمية فهذا القليس الذي بناه أبرهة باليمن هو محرف عن (اكليسيا) اليونانية . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٣ .

ذلك في العالم . وقد أدرك التاريخ حقيقة خراب سد مأرب أخيراً وتحول حدائقه الغلب المتسلسلة إلى أرض قفر يباب ينمو فيها السدر والأثل والحمط ، مما هو مشاهد بها حتى اليوم ' .. وقد انطلقت عوامل الخراب من قبل ذلك ومن بعده إلى سدود وفيرة كالسد المعروف بقرب الطائف بالسد السملقي ، وقد نتج ذلك عن انصراف السكان إلى اشباع بطونهم من لحوم الأنعام بشن الغارة على من يملكها من جيرانهم ولو كانوا ذوي قرى لهم ، وانتشرت الفوضى وعمّ الذعر وساد الفساد في الناس — بتناسي الأجيال السحيقة وبنيان الحضارة المندثرة قبل عشرات القرون — وظنهم أن الجزيرة بلاد نشأت فطرة على البداوة وأنها لم يمر بها فيما مضى من عهودها طائف من الحضارة . وجاء دور الإسلام ، فجمع الشمل المتشتت ووحد الكلمة المتفرقة ، وصحح أهداف الحياة ، ومقاييسها ، فنعمت الجزيرة في صدر الإسلام بحضارة دينية ودينية مثالية .. والإسلام دين عام خالد ، وبُنائُهُ كانوا يريدون أن تنتشر أنواره في كافة أرجاء الأرض التي أظلمها عهد رهيب من الاستعباد والشرك والطغيان والفوضى . ولذلك أقبل حماة الجزيرة وكفاتها وبناء مجدها إلى الفتوحات في شرق الأرض ، وغربها ، وفي شهاها ، وجنوبها . فآثر ذلك في كيان هذه البلاد ، وعادت إلى الانكماش وعادت إليها الفوضى ، وعمّتها الخراب ، وتقلص بها العمران ، بعد أن استرجعته في عهد غير مديد .. وقد طُمِرت أسباب المدنية بها ، وخربت السدود المنشأة ، وتقوضت الزراعة ، وشلت الصناعة بها قروناً مديدة ، حتى خال العالم مرة أخرى أن هذه البلاد مقضي عليها بالتأخر والاضمحلال إلى الأبد ، وأن لا أسباب فيها للنهوض العمراني الاقتصادي الاجتماعي ، ونسي العالم ما كانت تفيض به في عهدها

١ في كتاب « رحلة في بلاد العربية السعيدة » لنزيه مؤيد العظم ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، رسوم فتوغرافية لشجيرات الحمط والأثل والسدر بسد مأرب .

السحيق قبل التاريخ ، من زراعة وصناعة ومعادن وحضارة هي نواة الحضارة العالمية ، وتناسوا أيام مجدها الإسلامي ، وازدهار الحياة فيها ورخاءها وانتظامها .

واليوم ، بعد نحو ألف عام من نهوضها العمراني والاقتصادي ، يعود إليها رونقها ، بما استتب في منطقتي قلبها ورثتها : (الحجاز ونجد) من أمن وارف شامل وطمأنينة عامة على يدي بطل الجزيرة (الملك عبد العزيز آل سعود) رحمه الله . وها هي ذي تعود إلى الابتسام لسكانها ، بعد عبوس طويل ، وها هي ذي قد بدأت تكشف لهم عن مكنوناتها الثمينة ومخبأاتها القيمة ، من معادن ومناجم ومياه ، وحضارة عريقة مطمورة . وقد جادت لنا بالذهب الأسود ، وها هي ذي تستعد للكشف عما استقر في أعماقها القرية والبعيدة من مياه ثرة عذبة أودعت تحت تربتها الذهبية إرهاباً لجودها بالذهب الأخضر من حبوب وفاكهة وثمار ، ونحن على رجاء من الله تعالى أن يديم ظلال هذا الأمن الوارف ، لتسير قافلة الحياة لدينا في موكبها التقدمي هذا ، حتى تصل بنا إلى منزلة سامية من الحضارة الصالحة الراشدة تعج فيها المصانع بالإنتاج المدني والحربي الضخم ، وتنتشر فيها المزارع والحقول حتى تتحول بها الصحارى الواسعة إلى جنات خضراء متلاصقة ١ . وتستخرج فيها معادنها ومناجمها الثرة الوفيرة بأحدث الوسائل وأنجع الأساليب .

تصنيف الآثار في البلاد العربية السعودية

لعل من المناسب ، أن أؤمىء إلى الباعث الذي دعاني لأول وهلة ،

١ يقول كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي : إنه من الممكن العثور على مياه عذبة في أرض المملكة السعودية ، وتحويل صحارها إلى أراض خصبة . كما أن البحوث دلت على إمكان تحويل معالم الجزيرة العربية في المستقبل .

للعناية بالآثار ، بالذات ، وذلك أنني كنتُ ذاتُ أمسية حضرت إلى مجلس الأمير عبد العزيز بن إبراهيم وكيل أمير المدينة المنورة رحمه الله ، فوجدتُ لديه المستر عبد الله فيلبي . (سانت جون فيلبي) وهو منهمك في الحديث اليه عن تحقيقاته الأثرية في منطقة جبل أحد بالمدينة المنورة ، فقلت لنفسي : ما ينبغي أن يأتي إلينا مثل هذا الرجل ، ويحقق آثار المدينة المنورة وغيرها ، ثم ينشر تحقيقاته باللغة الانكليزية ، ثم نحتاج إلى ترجمتها باللغة العربية .. كان هذا أول دافع لي في طريق تتبع الآثار . أو بالمعنى الأدق ، في هواية علم الآثار .

* * *

والآثار في هذه البلاد متوافرة ومتنوعة ، وكثرتها آتية « من الأمم الخوالي » التي استوطنت هذه البلاد ، منذ التاريخ السحيق ، ثم جاء الإسلام ، وكثرت آثار اخسلام .

وقد هُمي لي أن أصنف آثار هذه البلاد تصنيفاً يحصرها في اطار محدود ويجعلها للباحث على طرف النمام .

وها هي ذي جمعاء بحسب « التصنيف » المشار اليه :

- ١ - الأماكن الدينية والتاريخية .
- ٢ - المقابر والهياكل والشواهد والأعلام .
- ٣ - البيوت والمنازل والقصور والآطام والحصون .
- ٤ - الزخارف .
- ٥ - الأدوات الحجرية .
- ٦ - المناجم والمعادن .
- ٧ - السدود والعيون والآبار والصهاريج والبرك .

- ٨ - المصانع والمزارع والأدوات الصناعية والزراعية .
- ٩ - أدوات المنازل والزينة .
- ١٠ - الخطوط الأثرية المسطورة والمنقورة .
- ١١ - الكتب والحجج والوثائق .
- ١٢ - الثياب والفرُش .
- ١٣ - أدوات الحرب والألعاب .
- ١٤ - الصور المختلفة .
- ١٥ - المرافق المختلفة .

وقد دلنا الاستقراء على أن الأماكن الدينية الماثورة وخاصة المساجد هي التي أسبغ عليها علماء الإسلام ومؤرخوه ورحالوه اهتمامهم التحليلية فوصفتْ وعُرِّقَتْ بمختلف الأقلام في مختلف العصور ، حتى إن بعض الهواة منهم قد قاموا بتصويرها ، رأيتُ صورة للمسجد الحرام قديمة ، وصورة قديمة للمسجد النبوي ، ولمسجد قُباء . وصور قدماء المؤلفين الحجرة النبوية الشريفة وأوضحوا مخططاتها .. ومن هؤلاء السمهودي في وفاء الوفاء الذي أخذ بعض صورها ممن تقدموه .

وآثار المقابر والهيكل والشواهد والأعلام ، موجودة بكثرة في البلاد المقدسة . وقد تُظهِرُ الأحافير المعتادة لمختلف الأغراض العمرانية بعض المظمور من هذه الأمور .. وفي الجبل المتوهج بجنوب المدينة المنورة مقابر للعائلة ممددة هياكلهم فيها لليوم ، وهذه المقابر أشبه بالآبار المنقورة المقبية ..

وفي منطقة بئر رومة شاهدتُ بعض هذه المقابر الضخمة الهياكل ، وفي منطقة تيماء ، والطائف ، ومدائن صالح ، ونواحي جازان ، وطريق زبيدة - كثير من هذه الآثار . وقد جُلبَ إلى دار آثار جدة

شيء يدل عليها ، وفي مكة شواهد عتيقة مكتوبة باللغة العربية ، وفي الوهط بالطائف ، شاهدت شواهد مقابر آل العاص .. ويقال لأنها فقدت الآن ..

وحدّث عن البيوت الأثرية والمنازل والقصور والآطام والحصون في البلاد المقدسة . وإني لأذكر أن حارة الأغوات بالمدينة تحوي بيوتاً من القرن السادس الهجري ، انخفض مستواها كثيراً عن الشارع العام حتى إنها يتزل إليها بسلّم حجري .. وفي مكة بعض بيوت قديمة ، منها : الجعفرية ، والبياضية والقلاع التي على أعالي جبالها . وأقدم بيوت جذّة يرتفع إلى القرن الثاني عشر الهجري ، وبها لا يزال برج من بقايا سورها القديم بشارع الميناء يقف اليوم وحيداً على نهد من الأرض .

وفي المدينة قصر سعيد بن العاص ، بني في القرن الهجري الأول^١ ، وما زالت أطلاله شاخصة .. وبها أطم الضحيان ، بني في أيام الجاهلية وبها حصن كعب بن الأشرف ، وقد بني كذلك في عصر الجاهلية .

وتوجد الصور المنقورة في الصخور بجبال الحجاز ومشارف طرقه وبجوانب أوديته .. وقد ألف المهندس عثمان رفقي رسماً كتيباً في هذه النقوش ترجمه إلى العربية السيد أحمد شطا ونشرته مجلة المنهل على نفقتها ووزعته على مشركيها مجاناً^٢ .

ومن الصور التاريخية المنقورة تلك الصور لمحارب عربي دارع على صخرة بقرب السيل الكبير في طريق الطائف القديم .

وفي الصويدة (التربة) بشرق المدينة المنورة صخور ملس حشدت

١ بعد عمارة قصر الضيافة بالعقيق ادخل قصر سعيد بن العاص في حائطه .

٢ كان ذلك سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م واسم الكتيب : (النقوش والآثار في صخور الحجاز)

فيها صور عربية تمثل لنا حياة العرب في أزمان الجاهلية ، والحيوانات التي كانت موجودة بمنطقة الصويدة قديماً ، ما بين إنسية ووحشية ، وبينها حيوان منقرض . وترى الهواذج وعليها النساء ، والخيل وعليها النوارس ، والأنعام وهي ترعى ، وترى حيواناً من حيوانات ما قبل التاريخ .. إلى جانب خط ثموديّ منقور على تلك الصخور براعة فائقة ..

وتوجد النقوش الثمودية والنبطية في مختلف الأماكن في هذه البلاد ، خاصة في الشمال والشرق والجنوب . في مدائن صالح ، وتيما ، وشرق جدة .

وفي جبل سلع بالمدينة المنورة أثر خطي حقق بعض علماء الآثار أنه من خط الصحابين الجليلين : أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وفي وادي رانوءاء صخرة ملساء ضخمة سجل عليها شاعر عربي في صدر الإسلام ، الحياة في ذلك الوادي القاحل اليوم ، ووصفها بالخصب والجمال في عهده .

والأدوات الحجرية الأثرية في هذه البلاد متوافرة ، منها ما هو ديني كالحجر الأسود ، ومنها ما هو تاريخي ، ومنها ما هو عمراني سجل عليه ذلك في وجهات مدارس وأربطة وقصور .

وفي العقيق أطلال بيوت أثرية اعتقد أن في باطنها بعض أدوات منازل القوم ، في صدر الإسلام ، وبعض ما يتصل بحياتهم من مرافق مختلفة ، وبالفعل فإن الشيخ محمداً الحافظ أحد قضاة المدينة المنورة قد حفر بعض أسس بيت قديم يمتلكه بجوار بئر عروة في العقيق لتجديد بنائه أو لزرعه فوجد أدوات زراعية ، منها قنوات حجرية للماء ومنها بوتقة من الآثك (الرصاص) وبعض أرحية وغير ذلك . وكذلك في

المكان المعروف . (زَرْبُ الكَتْمَةِ) في عالية المدينة عثرتُ على أرحية وحجارة رخوة بيض مزخرفة وغيرها . وقد أظهر البحث العلمي المبدي أنها عريقة في القدم .

والمناجم والمعادن طافحة بها البلاد .. ومنها المنجم الذي يقع بقرب المدينة المنورة ، والذي أُرخص الذهب في العالم لما فتح في أوائل عهد الإسلام . وقد كتبت مؤلفات عن هذه المعادن ، من أهمها : كُتِيب (بحث المعادن) لرشدي ملحس .

وتوجد سدود وافرة قوية خالدة في المناطق الزراعية وغيرها كمكة وكالمدينة ، والطائف ، أذكر منها سَدَّ الخنق ، وسد الحِمْيَاء ، وسد رانواناء في المدينة وسد السملقي في الطائف .

والعيون توجد كذلك في هذه البلاد ، وهي بمثابة الأنهر في غيرها ومن أهمها عينا زبيدة والزرقاء بمكة والمينة قديماً ، وعين خليص ، والعين العزيزية النابتان من خليص ووادي فاطمة واللثان تسقيان حديثاً مدينة جدة ، وعيون شمال المدينة ، وعين خيبر ، وعيون وادي فاطمة وعين تبوك وعيون ينبع .

والآبار الأثرية أكثر شيء في البلاد ، فقد كان عليها المعول في الشرب بمكة والمدينة زمن الجاهلية ، وفي صدر الإسلام ، وأهمها بئر زمزم ، في مكة ، وبئرا رومة وأريس ، وغيرها في المدينة المنورة .

والصهاريج والبرك قديمة الوجود في هذه البلاد .. فالصهاريج لسقي الناس من فائض الأمطار ، والبرك لسقي الزروع والأنعام من ماء العيون وماء الأمطار .

ومن أقدم الصهاريج ، صهاريج جدة . وصَفَّها مؤرخ عاش في القرن الهجري الرابع . ومن أقدم البرك ، بركة الزبير في المدينة وبركة

ماجل في مكة .

وفي البلاد مصانع قديمة مما يدل على مدى انتشار الصناعة فيها إذ ذاك . ومن أهم هذه المصانع ، مصانع الزجاج في مكة ، ومصانع الخزف والفخار فيها ، وفي المدينة المنورة . وقد بقيت أطلال بعضها إلى عهد قريب . وفي الحار (البريكة) جنوب غرب بدر أطلال مصانع الزجاج والخزف كما حدثني به مستشرق سويسرية زارت هذا الميناء أخيراً . وكذلك في الجهة الشرقية للمدينة توجد أطلال مصانع بعض آثارها وإنتاجها باق لليوم ^١ .

ومن المزارع الأثرية ، مزرعة الزبير بن العوام رضي الله عنه ولا تزال معروفة موجودة بأطلال جداولها وبركتها الكبيرة وأطلال منازلها . ومزارع وادي فاطمة ، والطائف وينبع .

وكثيراً ما يعثر الناس في الأحافير العمرانية المعتادة على مصابيح فخار للزيت مطمورة في أعماق الأرض ، وعلى صحون فخار وملاعق ، وسكاكين ومخاريط . وقد شاهدنا بعض هذا في أحافير مدرسة العلوم الشرعية ، وبستان الطرناوية بالمدينة المنورة .

والخطوط الأثرية المسطورة المنقورة ، توجد في هذه البلاد كذلك بكثرة . ومن المنقورة ما أسلفنا بعضه ، ومن المسطورة ذخائر الكتب القديمة الموجودة في بعض الخزائن العامة للكتب في مكة والمدينة ، وبعض المصاحف الثمينة . وقولنا طلعت لدى الشيخ صالح قزاز في مكة المكرمة على « مدني » نبوي من النحاس الأصفر عليه خطوط عتيقة للتعريف بالمد النبوي .

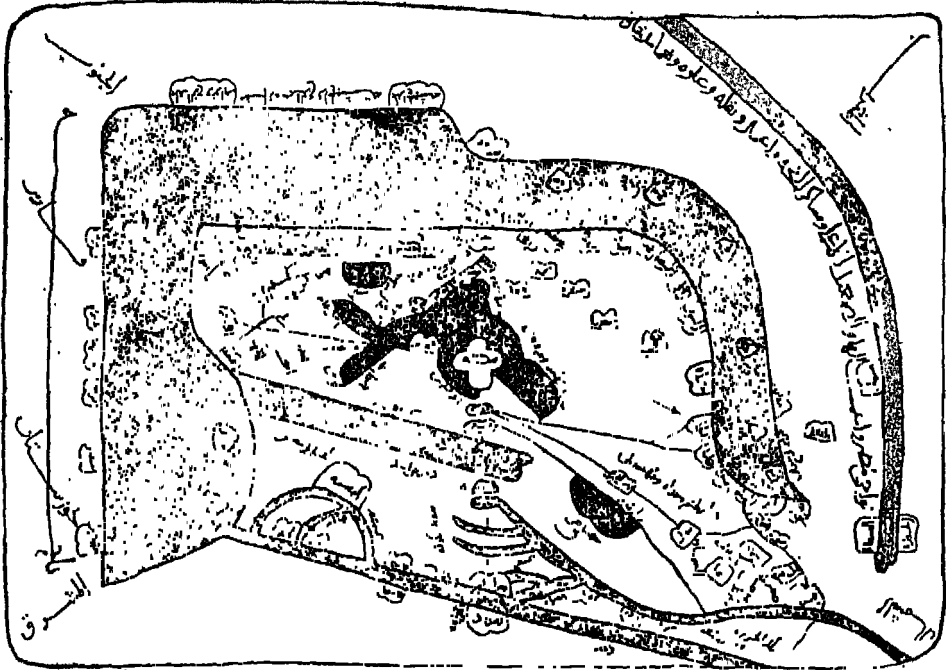
وإن ننس لا ننس تلك الحججة الشرعية المنقورة في صخرة ضخمة ملساء نحت نسخ جميل جداً كانت في غرفة من غرف رباط سيدنا عثمان في المهجلة

١ في رحلتنا إلى الحار في ٢٠ صفر ١٣٩١ هـ ، الموافق ١٦ إبريل ١٩٧١ م ، وفي ١٢ ربيع الأول ١٣٩١ هـ ، الموافق ٧ مايو ١٩٧١ م وجدنا قطع زجاج وخزف إسلامي قديم متناثرة فوق التلال والوهاد هناك ولكننا لم نر أطلال مصانع الزجاج والفخار في الجهة الشرقية للحار (البريكة) كما تحدثت به إلينا المستشرقة السويسرية .

عمكة .. وقد نقلها مشروع توسعة المسجد الحرام إلى مكان آخر وموضوعها تسجيل وقفية الرباط نفسه في القرن السابع الهجري .

وفي المدينة كانت قد أجريت أحافير في المناخة ، فكشفت عن هوة كبيرة واسعة جداً ، فإذا بها منازل لقوم بادوا ، ولا تزال ثيابهم معلقة على حبالها في بعض غرفها ، ولكن بمجرد أن لمستها الأيدي تناثرت كما يتناثر الهباء .

ولا تخلو البلاد المقدسة من أدوات الحرب القديمة .. كالسيف والخنجر والرمح وما أشبه .. وقد كان برباط سيدنا عثمان بالمدينة المنورة خزائن خشبية لعلها من الآبنوس ، منقوش عليها أنها من خزائن بني العباس .. وكان بها الكتب الموقوفة على الرباط ، ولا أدري أين هي الآن .



خريطة ابن حوقل لبلاد العرب وبها مدينة الحار

آثار مَكَّة الْمُكَرَّمَة
وَمَا حَوْلَهَا

آثار مكة المكرمة

ليست هذه الجولة ، بالأولى من جولات هذا القلم في ميدان « آثار مكة » فقد كنت كتبت مجلدة لطيفة على حد تعبير الأقدمين ، وأسميتها : « التحقيق المدعم في مسجد الراية وبئر جبير بن مطعم »^١ . وآثار مكة منتشرة وفيرة ، يكتنف أكثرها من قديم ، الغموض وعدم التحديد الفني الدقيق ، وقد عُني المؤرخون والرحالون والعلماء قديماً وحديثاً بالحديث عنها ، حديثاً أكثره ديني ، وأقله أثري . وفيها المساجد ، وفيها الدور والآبار والعيون والجبال والأودية والشواهد والحجارة المنقوشة توضع على أبواب الدور والاماكن الأثرية ، وكثير من هذه الحجارة قد انطمس من التبلّي ، وكثير منها أزيل عن مواضعه ، بعد أن تغيرت المعالم وجُددت العمارات .. إلى غير ذلك من ألوان الآثار .

و« آثار مكة » من هذه الناحية تشبه تماماً « آثار المدينة » .. فإيها يمكن أن تقسم وأن تبوب إلى الأقسام ، وإلى الأبواب الآنف ذكرها .

١ هذه الرسالة كتبها استجابة لطلب المرحوم عبد الله السليمان حينما كان وزيراً للمالية في عهد المغفور له الملك عبد العزيز ، وقد تناولها مني بطريق الشيخ محمد سرور الصبان بعد أن جلدتها ولم أرها بعد ذلك . واني لأسف إذ لم أترك لها عندي مسودة يعتمد عليها .

ولكنني لاحظت أن في مكة شكلين متقاربين من الآثار ، أو شكلاً متحدّاً ذا لونين منها .. ويتمثل هذا النوع في هذه الحجارة التي سُجّلت عليها بعض الأحداث الخطيرة وبعض المراسيم الهامة ، وسواء أكانت هذه الحجارة أعمدة أم كانت صخوراً هائلة من طراز الصخرة التي وصفها الشاعر بقوله :

كناطح صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَصْرِها وأوهي قرنه الوعلُ

أعمدة بالمسجد الحرام بها تسجيل بعض المراسيم

وقد علمتُ أن من أعمدة المسجد الحرام المرمرية ، ما اتخذ صحيفة لتسجيل بعض المراسيم السلطانية في القرون الحالية . وقد يبدو هذا النوع من الآثار غريباً على هذه الديار ، وهو في حد ذاته يدلّ على عناية القائم بالأمر يومئذ بإشاعة العدل بين الرعية ، وهو من الوجهة الفنية أو الأثرية — على أدقّ تعبير — يدلّ على عناية رئيس الدولة يومئذ بتخليد أوامرها المهمة على مدى الأيام ، شأن الملوك كبار الهمم العادلين . وقد نقشت هذه المراسيم التي تختص بشؤون الأمم الإسلامية القادمة إلى الحجاز من أجل أداء فريضة الحج ، في مكان مقدس يسمو عن أن تناله أيدي الأهواء ، وأن تتناوله يد السياسة القلّب الظلوم .. ألا وهو المسجد الحرام المقدس لدى الجميع على السواء .

حجة شرعية على صخرة كبيرة

وفي مكة كذلك صخرة هائلة محفوظة طيلة ثمانية قرون لم يتطرق إليها حَكٌّ أو خدش أو أي تغيير أو تبديل ، وقد نُقش على سطحها الذي جعل أملس براقاً ، إثباتُ الوقفية لدار معروفة قديمة ، هي رباط سيدنا

عثمان بمكة ، ووضع على بابها - أي الدار - حجر مِسَنّ نقش عليه خط جميل ، يحوي ما تحويه زميلته الكبرى الصخرة الهائلة من وقفية للدار . وإذا نظرنا إلى هذه الفكرة من الناحية الأثرية العلمية فإنها لتدلنا على مبلغ تحوط القوم من امتداد أصابع التلاعب مدى القرون القادمة إلى هذه الوقفية بتسجيلها ، خلافاً للمألوف ، على صخرة صماء غير قابلة للتنقل أو للتلاعب أو للضياع .. هي فكرة جليلة وإن كانت تبدو غريبة في بابها غرابة تستجلب دقة نظر الباحثين من علماء الآثار . وقد شاهدت متاحف الآثار في مصر فلم أجد نظيراً لصخرتنا هذه المنقطعة النظر في العصور الإسلامية المختلفة .

إن تسجيل مثل هذه الأمور الفردية على الصخور دليل على الوعي العميق لأحداث الزمان ، ومفاجآته ، ودليل على العزيمة الصادقة . . وليس رجوعاً إلى العصور الممعة في القدم ، أو تفهقراً من العالم الإسلامي في مطلع القرن السابع الذي نقرت فيه الصخرة ، إلى عصور الظلام ، فإن نقش الحوادث الخطيرة على الصخور أمر جرى به العرف في القديم وفي الحديث أيضاً ، كما هو معروف . والفائدة المتوخاة من ذلك هي التخليد بقدر الإمكان .

هذا وإن أقدم الآثار الباقية في « مكة » على عمارتها الأولى ، لا يرتقي به الزمن ، فيما أعلم ، إلى ثمانية قرون باستثناء الكعبة المشرفة ، بعكس « المدينة » ففيها من العمارات ، أو من الأطلال على التعبير الدقيق ما يسمو إلى أربعائة عام بعد الألف . وقد أشارالمستشرق بركهارد السويسري في بحثه المترجم بمجاة « المنهل »^١ عن أسباب ذلك حيث قال ما ملخصه : « إن هذا الضعف في عمارات مكة ناشئ من عدة أسباب ، منها : جهل

١ في سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م .

البنايين فيها إذ ذاك ، بأسلوب البناء القوي الذي يعمر طويلاً . ومنها أن أرض مكة رملية يسرع فيها البناء إلى التداعي ، لتطرق الخلل إلى أسسه وعدم استقرارها في الأعماق ، بسبب أن أرضها بطحاء في الغالب . ومنها كثرة السيول التي تهبط من الجبال كأفواه القرب دوماً فتترك الأبنية في ضعف عام . وقد قال مثل هذا عن عمارات المدينة ، وعزا سرعة تداعيمها إلى رطوبة أرض المدينة وملوحتها . ومع تأييدنا لنظرية رطوبة أرض المدينة وملوحتها ، وأن ذلك من أهم أسباب عدم امتداد أجل العمارات بها ، امتداداً طويلاً ، إلا أن لنا أن نناقشه بأن في المدينة مناطق غير رطبة ولا ذات ملح ، هي العقيق ، والحرار المحيطة بالمدينة . وفي العقيق والحرار توجد الآن ، قائمة ، أطلال قصر سعيد بن العاص من قبل ثلاثمائة وألف عام ، وأطلال حصن كعب بن الأشرف ، وأطمُ الضحيان من قبل أربعمائة عام بعد الألف .

آثار مظلورة

وفي مكة آثار كثيرة من دور ومساجد ورباع (محلات) عَقَّتْ على بعضها حوادث الزمان . فكثيراً ما حدث أن غيَّرَ قائم بعمارة خاصة معالم دار أثرية أو غيرها ، بحكم ملكيته لها ، فيضيع الأثر مع توالي الأجيال . وأكثر الآثار المعروفة وضوحاً الآن ، خلاف الآثار المتعلقة بالعبادات من الحج والعمرة ، هي ما يتصل ببني هاشم ، وبني أمية ، وبعض الشخصيات البارزة في الجاهلية والإسلام .

سوق عكاظ

سنحاول تحديد الزمن الذي بدئت فيه سوق عكاظ ، والزمن الذي ولدت فيه . وتحديد ظرف انتهائها أيسر بكثير من تحديد وقت ابتدائها ، لأن ابتداءها كان في عصر الجاهلية العربية الأخيرة أو الثانية على تعبير أدق . وهذا العصر قلما يظفر فيه الباحث بشيء محدد التاريخ ، وأما زمن انقضائها فقد كان في صدر الإسلام الذي كان يعنى فيه بوضع تواريخ للأحداث الكبار .

من المعروف أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان في عام الفيل ، وهو يوافق سنة ٥٧٠ - ٥٧١ م .

وبعثته عليه السلام كانت على رأس الأربعين من مولده ، وهي توافق سنة ٦١٠ م . وقد حدثنا المؤرخون وكتبابُ السيرة النبوية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد شهد (المجتمع العربيّ العُكاظيّ) وهو غلام حدث ، وراقته ، وهو في هذه السن المبكرة ، تلك الخطبة الرائعة التي كان موضوعها على خلاف سنن موضوعات خطباء عكاظ من فصحاء العرب ومفوهيهم ، إذ كانوا يخطبون في المفاخرة والمنافرة وما أشبه من شؤون الدنيا .. أما هذه الخطبة العجيبة الفذة في بابها التي ألقاها الشيخ السمح الحكيم : (قسّ بن ساعدة) الأياديّ وهو على

جَمَلِهِ الأورق ، في حشد من عرب عكاظ ، ونبهَهُمْ فيها إلى ما هم فيه من ضلال عقدي وفكري واجتماعي كبير ، فقد بقي أثرها ذا جذور عميقة في نفوس القوم ، وبقيت عالقةً بذهن الرسول عليه السلام ، طيلة حياته . وجاءت مناسبة الإشادة بها يوم أقبل عليه وفد إياد ، في عام الوفود ، فسألهم : ما فعل قس بن ساعدة ؟ فقالوا له : مات يا رسول الله ! فحَدَّثَهُمْ عن ذكره له ، وقال : كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جَمَلٍ له أَوْرَقٌ ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أبجدي أحفظه .. فلما قال له أحدهم : إنه يحفظه ، وتلاه بن يديه ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله قساً ، -إني لأرجو أن يُبعث يوم القيامة وحده » .

كما حدثنا المؤرخون ورواة السيرة النبوية أيضاً حديثُ شهود الرسول عليه السلام لحروب الفجار التي اندلعت بين قريش وأحلافهم ، وهوازن وكان ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة أو عشرين إذ ذاك .. وقد سرد لنا صاحب كتاب (أسواق العرب) هذه الروايات ، وارتأى أن التوفيق بينها ، يتم إذا قررنا أنه صلى الله عليه وسلم ، حضر أول حروب الفجار وهو ابن أربعة عشر عاماً ، وآخرها بعد ذلك وهو ابن عشرين^١ فتكون حروب الفجار وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاماً ، أي سنة (٥٨٥ م) .

ويروي لنا أبو الوليد الأزرقي في كتابه (أخبار مكة) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لبث بمكة يتبع الحاج في منازلهم ، في الموسم ، بمجنة وعكاظ ومنازلهم بمنى ويقول : « من يؤيوني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربِّي وله الجنة ؟ »

١ كتاب أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، لسعيد الأفغاني ، ص ١٦٥ ، الطبعة الثانية بدمشق .

فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ، حتى أن الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن ، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه ، فيقولون : « احذر في قریش لا يفتنك ... » .. يمشي بين رجالهم (رحلهم) يدعوهم إلى الله عز وجل فيشيرون إليه بأصابعهم حتي بعثنا الله عز وجل من يثرب الخ » والكلام لجابر بن عبد الله .

ويقول حديث آخر : إن النساء انحدرت يهودجها إلى عكاظ ، لتسجل فيها ، رسمياً ، أنها أعظم العرييات مصيبة ، بمن قُتِلَ في إحدى المعارك القبلية ، من والدها سيد العرب : عمرو بن الشريد ، وأخوها : صخر ومعاوية ... وظلت على غشيانها لسوق عكاظ يهودجها نادبةً باكية كل عام ، حتى كان عام بَدْرٍ ، فنافستها هند بنت عتبة في الإعلام في عكاظ بمصيبتها العظمى ، بمن قُتِلَ يوم بدر من أبيها وعمها وأخيها .

فإذا ضمنا هذه الأحاديث إلى بعض ، ودرسناها ، أمكننا أن نخرج منها بنتائج إيجابية ، جزئية ، وهامة ، لقضية التحقيق في ماضي سوق عكاظ في بدايتها وفي ذروة نشاطها الذي تلاه انهيارها ، وانقضاؤها . ونستطيع أن نقول ، استنتاجاً من الروايات المسرودة آنفاً ، إن سوق عكاظ كان نشاطها كبيراً ، مشهوراً ، واسمها ونفوذها مدوين في أرجاء جزيرة العرب ، وتأثيرها في عقلياتهم ومجتمعاتهم وأحوالهم طيلة حياة الرسول عليه السلام كان أمراً مرموقاً وملموساً .

ذلك أن وفود العرب وفدت إلى الرسول (ص) في العام العاشر للهجرة ، ومنهم وفد إِيَاد من قوم قس بن ساعدة الأذنين .. ومشهد وقفة جملة الأورق بين جموع عرب عكاظ ، وخطابه البليغ ذو النكهة العبقية بينهم لم يزلوا ماثلين في ذهن الرسول ، حتى بعد أربعين عاماً من حدوثها .. وقد ذكّر بها قوم قس الوافدين إليه بعد ما انتشرت أضواء الإسلام في شتى

أنحاء الجزيرة .. وكان بعضهم يحفظ الخطاب ، مما يدل على عمق أثره في نفوس القوم ، على بعد واقعهم من أهدافه إذ ذاك .

وإذا فرضنا أن الرسول شهد قساً وعمره فوق العاشرة مثلاً ، فيكون عام الوفود بعد نحو خمسين عاماً من حدوثه المبكرة ، لأنه كان في سنة ١٠ هـ .

كما أن تقديمه النبيل في حروب الفجار لقريش ، وهو ابن أربعة



نقش أثري عثر عليه بعثة صحفية سعودية بمنطقة عكاظ

عشر عاماً إلى عشرين ، يدل على ازدهار عكاظ في تلك الحقبة من الدهر .

ووفود هند بنت عتبة على عكاظ عقب معركة بدر منافسة للخنساء في (الإعلام) والتعريف بعظم مصيبتها ، هو الآخر يدل على أن عكاظ كانت حتى ذلك الوقت وهو من بعد الهجرة النبوية - مرجع قضايا العرب الكبرى ومناط آمالهم وآلامهم ، ومعرضهم الكبير لإذاعة آمالهم وآلامهم في الحياة .

هذا وكل ما أوردناه فيما سبق ، هو طرف من البحث ، أردنا من ورائه تحديد بعض نقط ازدهار سوق عكاظ ، مما له مساس وصلته بعهد الإسلام الأول . ونضيف إلى ذلك ما رواه المؤرخون من أن مبدأ إسلام الأنصار لم ينشأ من مِثْيَ بموسم الحج ، وإنما نشأ من سوق عكاظ نفسها ، حيث ظل النبي عليه السلام يعرض الإسلام كل عام على كل الوافدين إلى عكاظ من قبائل العرب ، قبيلةً قبيلةً ، حتى هدى الله به بعض بني قَيْلَةَ هؤلاء ، وهم وافدون إلى عكاظ ، فآمنوا به ورجعوا إلى بلدتهم (يثرب) وأعلنوا الإسلام به ونشروه فيه ، ثم كانت بيعة العقبة .

وبعد المقدمات السالفة ندخل في صلب الموضوع .. وهو تحديد افتتاح سوق عكاظ ، واختتامها .. ومن أهم من تعرضوا لهذه المسألة سعيد الأفغاني في كتابه (أسواق العرب) . يقول : « لسنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة ، إلا أننا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي » .

وعلى هامش هذا الرأي نسجل تخطيط المراجع القديمة والحديثة في هذا الشأن .. فالألوسي ، وفريد وجدي ، والاسكندري ، والعناني ، والدكتور محمد حسين هيكل ، اتفقوا على أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس

عشرة سنة .. وينقض هذا الرأي ما روي من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار ، وعمره أربع عشرة سنة ، أي بعد عام الفيل بأربع عشرة سنة .. إذ معنى هذا ، أن حروب الفجار وتقديم الرسول لقومه النبل فيها ، كانا قبل وجود عكاظ بسنة مع ان حروب الفجار كان منشؤها من عكاظ نفسها كما هو معلوم . هذا تناقض واضح .. وجاء سعيد الأفغاني لنا بدلائله التي تقرر ان افتتاح سوق عكاظ كان قبل حروب الفجار بأمد مديد مثل المرات التي باعت السمن بعكاظ وتزوجت بعبد شمس بعد ذلك . ومثل عمرو بن كلثوم الذي انشد قصيدته بعكاظ وكان عائشاً حول سنة (٥٠٠ م) . كما ان ولاية عشرة قضاة متتابعين للقضاء في عكاظ قبل الإسلام يدل على سبق زمنها بالنسبة للإسلام .. وبالنسبة لحروب الفجار التي حدثت قبل البعثة بربع قرن من الزمان .

هذا كل ما توصل اليه صاحب (أسواق العرب) من النتائج حول تحقيق زمن ابتداء سوق عكاظ .. وهي نتائج طيبة .. ونضيف إليها ما هو أكثر تحديداً وانطباقاً وتعريفاً بمبدأ نشأة هذه السوق التي أحدثت دويلاً كبيراً في جزيرة العرب ، وحاولت — أدبياً راقصدياً — جمع متفرقهم ، ونجحت في كثير من توحيد أوضاعهم الاجتماعية والبيانية والسياسية .. قبل الإسلام .

وهذا الذي نضيفه هو نتيجة دراسة فاحصة لحياة النابغة الجعدي ولبعض شعره ذي العلاقة الوطنية بحياته المديدة وبسوق عكاظ ، معاً . ففي ديوانه^١ وردت خمسة أبيات هي :

قالت أمامة^٢ كم عمرت زمانة وذبحت من عتر على الأوثان

١ ديوانه المطبوع حديثاً على نفقة علي آل ثاني .

ولقد شهّدتُ عكاظَ قبل محلتها فيها وكنتُ أَعَدُّمُ الفتيانِ
والمنذرَ بنَ محرقٍ في ملكه وشهدتُ يومَ هجائنِ النعمانِ
وعمرتُ حتى جاءَ أحمدُ بالهدى وقوارعٍ تُتلى من الفرّقانِ
ولَبِستُ مِـ الإسلامِ ثوباً واسعاً من سَيِّبٍ لا حرمٍ ولا منانِ

وقد شرح ناشر الديوان (محمد زهير الشاويش) هذه الأبيات شرحاً مفيداً مستطاباً دقيقاً ، إذ يقول : « إن حكم النعمان كان في القرن السادس للميلاد ، فيغلبُ على الظن أن النابغة أدرك أواخر القرن الخامس للميلاد . ثم قال : إن النعمان بن المنذر ولي قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة وعشرين عاماً (٥٨٦ م) وتوفي قبل مبعثه بستين . وإذا نظرنا إلى أن النابغة الجعدي قد عاش نحو مائة وخمسين عاماً ،



طلل قديم عثرت عليه البعثة الصحفية بمنطقة عكاظ
ويلاحظ أن فيه ملامح من أطلال قصر سعيد بن العاص بعقيق المدينة المنورة

على أرجح الأقوال لدينا ، كان أكثر من نصفها في الجاهلية ، وأقلها في الإسلام (ودليلنا على ذلك من شعره أنه عاصر ثلاثة أجيال وأنه توفي في أواسط المائة الأولى للهجرة) .

وإذا أضفنا إلى ذلك قوله : إنه شهد عكاظ قبل افتتاحها في محلها الأخير ، وهو فتي .. أي إنه كان حدثاً في نحو عشر سنين .. أمكننا عندها أن نقول من باب التقريب : إن سوق عكاظ بدئ افتتاحها بمحلها في نحو سنة ٦٠ قبل مولده صلى الله عليه وسلم وهو يوافق سنة (٥١١) ، وهذا التاريخ لا يفترق عن التاريخ الذي حدده سعيد الأفغاني بكثير .

أما تاريخ انتهاء سوق عكاظ .. فيحدثنا التاريخ بأنه كان سنة ١٢٩ هـ حيث خرجت الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف في مكة في تلك السنة ، فنهبوا سوق عكاظ فهُجِرَتْ إلى الآن^١ .

١ أسواق العرب ، ص ٣٤٣ ، الطبعة الثانية .

قبيلة بني سليم في التاريخ أخبارها وآثارها

أولاً - المنازل والجبال والمعادن :

تقع منازل قبيلة بني سليم ، في عهدها القديم والحديث ، بشمالى مكة بجنوبي المدينة بالناحية الشرقية من المدينة .

وتسمى منازل بني سليم أو منطقة بني سليم في المملكة العربية السعودية « منطقة الكامل » ، تسمية لها بأكبر قرية في وادي ساية التي جعلت أخيراً مقر إمارة المنطقة جمعاء .

وتبعد منازل بني سليم عن مكة بنحو ١٤٠ كيلومتر .
وكانت منطقة بني سليم من أعمال المدينة على طريق نجد .
ثم صارت فيما بعد ، تابعة لإمارة مكة .. وإلى اليوم .
ويحدها شرقاً : وسط الحرة الحاجز بين قبائل سليم وقبائل مطير .
ويحدها غرباً : حجر ومغينية ، من قرى حرب .
ويحدها جنوباً : ضواحي غراب والبرزة .
وتقدر مساحتها تقديراً مبدئياً بنحو ستين ألف كيلومتر مربعاً .
ويشغل معظم مساحتها الأودية الكبيرة والجبال الشامخة ..

وأوديتها الرئيسية اثنان : وادي ساية ، على وزن (غاية) ووادي ستارة .. وأولها أهم من ثانيها بالنسبة للسكان والقرى والمياه .

ويشرب أهل الوادين إما من العيون أو من الآبار . وعلى بعض آبارها مضخات حديثة .. ووادي ساية هو (وادي أمج) المعروف في الأدب .

ومن جبال منطقة بني سليم جبال : شَرَوْرَى وشِعْرَى (بكسر الشين وسكون العين المهملة بعدها راء مفتوحة فألف مقصورة) على ما ورد في معجم البلدان ، وينطقه السُّلَمِيُّونَ اليوم : (شَعَر) (بفتح الشين والعين) ، والبُرَيْرَاء (بضم الباء الموحدة بعدها راء مهملة مفتوحة فياء تحتية فراء فألف فهزمة) . وأهم جبال المنطقة جبل شمنصير الشامخ الثري بالمزارع والمياه .. وقد بقي اسمه العربي الأصل على صحة الطق به حتي يومنا هذا .

ومعدن « فَرَّان » (بفتح أوله وتخفيف ثانيه ، وآخره نون) هو منسوب إلى فران بن علي بن عمر بن الحاف بن قضاة الذين نزلوا على بني سليم ، فدخلوا فيهم وصاروا منهم . وهو معدن بني سليم . وبجوار المعدن كانت قرية كبيرة بطريق نجد فيها آبار وبرك ، وتقع على مائة ميل من المدينة ، وهي أيضاً لبني سليم .. وتستمد مزارع مُخَلِّصٍ مياهها الثرة التي يراد لها أن تصل إلى مدينة مُجْدَّة أخيراً ، من ديار بني سليم^١ .

ومن معادن سليم : معدن الدهنج ، وهو حجر أخضر يُخَفَّرُ عنه كسائر المعادن .

١ وصلت بالفعل مياه خليص في أنابيب إل مدينة جدة في عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م فصاعفت من كمية المياه بها حتى تفجرت بعض الأنابيب من شدة ضغط المياه الوفيرة عليها، فسال المساء بالشوارع ثم أصلحت وجرى الماء فيها نيراً صافياً .

ويدلنا تحديد « صفة جزيرة العرب » للهمدانيّ ، لديار بني سليم ، على اتساع منطقة بني سليم وتعدد منازلهم شمالي المدينة وشرقيها .. فقد كانت من وادي القرى ، شمال المدينة ، إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي إلى الحرة .. أي حرة بني سليم المعروفة منذ عصر الجاهلية بالنسبة اليهم تغليباً ، وباسم « أمّ صَبَّار » ترهيباً ، وباسم حرة النار إرعاباً وتمثيلاً .

ثانياً - التاريخ :

قبيلة بني سُلَيْمٍ (بضم السين المهملة) قبيلة عدنانية على القول الراجح المأخوذ به علمياً ، فجدّها هو سُلَيْم بن منصور الذي ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار جد النبي عليه الصلاة والسلام . ولا يمنع انتساب سليم إلى هذا الحد أن يدخل معها أقوام من العرب في منطقتها ويندمجوا فيها ، كما حدث فعلاً مع غيرهم من العرب مما رواه لنا التاريخ . وقد يكون ذلك حدث فيها لأوّل مرة في الجاهلية ثم استمر فيما بعد ، على عادة قبائل العرب من التداخل وقبول نزول غيرهم عليهم ثم اندماجهم فيهم ، واعتبارهم من القبيلة ذاتها .. كما كان لبني سليم جيران أدنون ، من غطفان ، قد يكون بعضهم دخل في بني سليم .

ولبني سليم في الجاهلية مكانة مرموقة وقد وهبها المنعة والقوّة أمران : كثرة عددها وحصانة مواقعها الطّبعيّة . فهم على حرّة ، وفي قلب جبال مشمخرة ، يصعب على الغزاة اقتحامها .. وقد حدّثنا أحد قطّان هذه الحرة : حرة النار ، وهو نابغة بني دُبيان عن مدى اعتزازه بموطنه المنيع حينما قال عن نفسه من قصيدة :

أَوْ أَضَعَّ الْبَيْتَ فِي سَوْدَاءَ مُظْلِمَةٍ
تَقَيَّدُ الْعَيْرَ لَا يَسْرِي بِهَا السَّارِي

تُدَافِعُ النَّاسَ عَنَّا حِينَ نَرْكَبُهَا
مِنَ الْمَظَالِمِ تُدْعَى « أُمّ صَبَّارٍ » !

ويعني بقوله : « سوداء مظلمة » ، حرة بني سليم التي سماها باسمها الآخر : « أم صبار » كما سماها في القصيدة نفسها باسم « حرة النار » وقد طابق الوصف الموصوف ، فالحرة حجارة سودٌ محترقة ، مسنونة كأنياب أغوال .. لا تدع للخيل أو للإبل مجالاً إلى اقتحامها .. وكذلك لا يستطيع مشاة المقاتلين ولوجها ، فهي سور طَبَعِيٌّ حصين لمن تحصن بها . ويذكر لنا كتاب السيرة النبوية كيف تحصنت المدينة المنورة بحرارها الشرقية ، والجنوبية ، والغربية ، في غزوة الخندق .. فلم تبق ثغرة يُخشى أن يقتحم منها العدو المهاجم المدينة سوى الناحية الشمالية ، فحصنها النبي صلى الله عليه وسلم بالخندق ، أخذاً برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه .

ويروي لنا التاريخ ، تقريراً لمكانة بني سليم ، بين قبائل العرب : أنهم تعرضوا لغضب النعمان بن المنذر ذات مرة ، فهاجمهم في عقر دارهم ، بجيش عرمرم ، سائده جيران بني سليم من غطفان ، ولكن الجيش النعماني والسند الغطفاني كلاهما منيا بهزيمة منكرة سجلها عليهم تاريخ العرب في جاهليتهم .

وقد غزا الرسول عليه السلام ، بني سليم .. وأرسل اليهم بعض السرايا . وفي غزوته لهم لم يجد أحداً منهم ، ولم يقابله أحد .. كأنما أعدهم الله متكاملين للدخول في الدين الخفيف طوعية بدون أن يخسروا مقاتليهم .. ولما دخلوا في الإسلام كانوا من أخلص معتنقيه ، ومن ذوي النصيب الوفي في نصرته ، والقيام بدعوته .. ولا غرو فقد كانت شوكتهم قوية وسليمة .. وقد كانوا في الجاهلية حلفاء لبني هاشم ، ولعل في هذا شيئاً مما حال بينهم وبين الاندفاع فيما اندفعت فيه قريش وأحلافهم

من عداوة النبيّ على طول الخط ، لأنهم كانوا في الجاهلية حلفاء بني هاشم
معشره الأدين . وكذلك كانت خزاعة الذين قال شاعرهم :

لَا هُمْ لِنَبِيِّ نَاشِدٍ مُّحَمَّدًا حَلِيفَ آبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا

وقد أسهمت سليم في الفتك بقبيلة بني عامر في سرية خالد بن الوليد .
وتقارض شعراؤهم الشعر مع شعراء هذه القبيلة ، وكانت سرية خالد
هذه في عام الفتح .

ومما تفخر به بنو سليم أنّ النبيّ قدّم رايتهم على رايات غيرهم في
استعراضه العظيم للجيش الإسلامي القويّ ، أمام أبي سفيان ، عام فتح مكة .
وقد بلغت مقاتلتهم ، ألفاً في بعض الروايات التي تذكر لنا أنّ رايتهم
كانت حمراء . والاحمرار في الرايات علامة على الصلابة والضراوة
وسهولة سفك دم الأعداء .

وكان في بني سليم أبطالٌ معلّمون ، وشعراءٌ مجيدون .. ومن
هؤلاء رئيس القبيلة ، المسلم : العباس بن مرداس .. فهو بطل معلم
وشاعر فحل .

ومنهم الجحاش ، والخنساء : تماضر الشاعرة الذائعة الصيت .
وتفخر بنو سليم بأشياء منها : أنّهم كانوا مع الرسول يوم فتح مكة
وقدّم لواءهم على الألوية . ومنها أنّ عمر كتب إلى الكوفة والبصرة
والشام ومصر : أن ابعثوا ، إلّيّ ، من كل بلد أفضله رجلاً .. فبعث
أهل البصرة مجاشع بن مسعود السلمي ، وأهل الكوفة عتبة بن فرقد
السلمي ، وأهل الشام أبا الأعور السلمي ، وأهل مصر ، معن بن يزيد
السلمي .

وشاركت بنو سليم في حروب آل الزبير وآل مروان ، وقتل منهم
خلقٌ كثير .

وحينما استأثر الأعاجم بالدولة في عهد بني العباس انزل بنو سليم^١ بالقفر الذي هم فيه الآن بين نجد والحجاز وأجلبوا على الحاج بالحرمين وتناولوا على الناس بالشر من حول المدينة .. فعاثوا في أسواق الحجاز وأوقعوا بسكان الحار ميناء المدينة المندثر بقرب بدر^٢ ، من بني باهلة وكنانة في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ ، فوجّه الخليفة الواثق اليهم «بَغَا» الكبير .. على رأس جيش كبير ، لتأديبهم ، فقَسَلَ خلقاً منهم وأسر .

ويخطئ ابن خلدون حين يقول : إنه لم يبق بأرض بني سليم باقية بعد نزوحهم إلى المغرب .

وحالف السليميون أبا الطاهر في فتنة القرامطة . كما حالفوا بنيه أمراء البحرين القرامطة . وتغلب جمهور من بني سليم على البحرين بدعوة الشيعة ، ثم طردهم بنو الأصفر السّنيون من البحرين ، فلحقوا بصعيد مصر ، ومنها ساروا إلى إفريقية ، وهناك تصاهروا مع القبائل البربرية وامتزجوا بها .

وقد يكون المعتصمون من قبيلة بني سليم بديارهم الأصيلة في حرة النار ، قد تأثروا بأحوال الاضطراب السائدة إذ ذاك في ديار العالم الإسلامي ، فحاولوا أن يعرقلوا مسيرات الحجاج إلى بيت الله الحرام ، لأن طريق الحج كانت تمر بهم من العراق ونجد وما وراء العراق ، من المسلمين .. فقام بنو العباس بحملات تأديب وإصلاح ، لهم .. ويتمثل الإصلاح في دعم الأمن بديارهم بالنسبة للحجاج فقط ، وتركهم هم على حالهم الأعرابية من القوضى والانحطاط العلمي ، والجهل الديني ، والبحري وراء العادات القبلية التي أشدها ضراوة ، الأخذ بالتأثر ، وممارسة

١ في كتاب الفهرست لابن النديم وغيره من المراجع علماء وأدباء من قبيلة بني سليم . ومن العلماء هيثم بن بشير السلمي ، مات ببغداد سنة ١٨٣ هـ وهو مولى لهم ، وله مؤلفات في الفقه والتفسير والقراءات . وبنوهم يزيد بن هارون المتوفى بواسط سنة ٢٠٦ هـ ، وله كتاب الفرائض ، ص ٣٣٢ و ٣٣٣ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .



هذا أمر من الخليفة العباسي المقتدر إلى وزيره علي بن عيسى بن داود منقوش على قطعة حجر من الجرانيت . ويقضي الأمر المنقوش على هذا الحجر ، بمارة طريق الحادة لحجاج بيت الله الحرام ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٣٠٤ هـ ويطابق ما نقش فيه ما ورد في التاريخ . وقد ورد في كتاب « المملكة العربية السعودية » لتويتشل ترجمة الأستاذ شكيب الأموي ، صورة لهذا اللوح الحجري ، وعلق عليها المؤلف بقوله : « وجدت هذه اللوحة الحجرية بما عليها من نقوش كوفية في نفايات منجم (مهد الذهب) القديم . وكانت عبارة عن أمر تنفيذي لبناء طريق رئيسي للحجاج للتنقل بين بغداد ومكة » انظر الصفحة التي قبل ص ٩٧ ، طبع مصر ، ١٩٥٥ م .

سلب أموال الغير بالقوة والعنف ، ثم تطور ذلك إلى مبادئ إصلاح عملية اقتضاها ظروف الأمن والدولة والبلاد .

وفي ظلال هذا الأمن المحدود الذي تدعمه ولاية بني العباس على طريق مكة خلال منطقة بني سليم حصل ازدهار لا بأس به في حياتهم العلمية والعمرائية والثقافية والاقتصادية ، ولا نعلم شيئاً عن الحالة الأدبية فبنيت قرى كبيرة لديهم أشبه بالمدن ، وربما كانت مدناً ، ووجد فيها علماء ومعلمون وصنّاع وفنّيون .. وتجار كبار .. ودور زاهية.. وأسواق عامرة .. ردهاً من الزمن .. إلى أن زال نجم الدولة العباسية ، فاضمحلت تلك القرى والمدن وزالت معالمها ، وزال أثر العلم والثقافة لديهم كلياً . وغرقوا في جهالة مطبقة ، أثناء دول الطوائف التي صارت لها ظلال حكم باهتة في جزيرة العرب عامة والحجاز خاصة وزاد الطين بلة على بني سليم إهمال حكومات الأشراف في مكة والمدينة لشأنهم ، دفعة واحدة .. فعادوا إلى شبه جاهلية جهلاء قائمة الأعماق .

وقد أخذنا نظرية ازدهار منطقة بني سليم أو بعض منطقة بني سليم في أوائل عهد بني العباس وأواسطه ، من حجرين أثريين ، عثر عليهما في ديار بني سليم نفسها .. وأول الحجرين شاهد قبر ، وجد بمقبرة كبيرة في بلادهم ، وجاء به أحدهم إلى جدة وهو الرجل المعاصر التاجر بجدة (مبارك عبد التواب السّلمي) .. وشاهدتُ هذا الحجر الأثري لدى صالح شبكشي بجدة وقرأته وفحصت ما فيه من نقش بارز هام وأثبت نتائج دراستي وقراءتي له ، المباشرة وغير المباشرة في هذا البحث . كما نشرت صورته فيه أيضاً ، وتحدّثت عنه فيه ، كما نشرت صورة زميله : الحجر الآخر الذي أثبت هنا أيضاً نتائج دراستي وقراءتي له .

وحجر الشاهد منقوش بالكتابة الكوفية المشجرة ، الحالية من النّقّط

والشكل ، والمفعمة بالزوايا والأغصان ، وهو إلى ذلك بسيط في نقشه ولكن نقشه عميق ، وحجره جرانيتي شديد ، ولم تطمس حروفه ، ولم تؤثر عليه عوامل الزمن والطبيعة القاسية منذ ألف عام وأكثر ، فاني أعتقد أنه نقش في نحو أواخر القرن الهجري الثالث .

وثاني الحجرين الأثرين حجر جرانيتي أيضاً ، نُقِشَ عليه « أمر من الخليفة » لوزيره أبي الحسن علي بن عيسى .. بعمارة طريق الحادة لحجاج بيت الله الحرام . والحادة المقصودة هي التي تحترق أراضي بني سليم .. كما أشرنا إليه آنفاً . وكان تاريخ النقش سنة ٣٠٤ هـ .. الموافق لسنة ٩١٦ م .

وكلا الحجرين وُجِدَ بمنطقة بني سليم .. الأول : في مقبرة كبيرة مندثرة الأسوار عليها مئات من الشواهد المماثلة . والمقبرة التي هي هكذا تدل طَبَعِيّاً على أنها كانت لمدينة زاخرة بالعمران والصناعة والعلم والفنون .

والحجر الثاني ، وُجِدَ في مكان من المنطقة ذاتها . وهو ، بلا ريب ، قد نُصِبَ في ذلك المكان كدليل تاريخي للأجيال القادمة ، بالنسبة لزمان رَقْمِهِ وَنَصْبِهِ ، على مدى عناية بني العباس بهذا الجزء الذي وضع فيه هذا النصب التذكري من امبراطوريتهم المترامية الأطراف .

وقد تمكنتُ بعد لأي من قراءة نصوص الحجرين ، برغم تعقيد خطيهما وتشابكهما ، واستطعتُ استخراج الحقائق التاريخية المثبتة هنا من ثنايا النقشين .. والآثار أوثق دلالة على الحقائق غالباً من الأخبار .

وقد دلني على صحة ما ذهبتُ اليه ، أن أبا الحسن علي بن عيسى ، المُنْصَّبَ على هذا الجانب الهام من جوانب الامبراطورية العباسية الكبرى - كما ينص عليه الحجر الأثري - هو : « علي بن عيسى بن داود

ابن الجراح البغدادي الحسني « وزير المقتدر العباسي والقاهر ، وأحد العلماء والرؤساء من أهل بغداد ، وهو فارسي الأصل . نشأ كاتباً كآبيه . ووُلِّي مكة ، واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٤ هـ ، وجبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ هـ ومنها إلى صنعاء . وأُذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢ هـ ، فعاد إليها ووُلِّيَ فيها الإشراف على أعمال مصر والشام . فكان يتردد اليهما ، وأعادته المقتدر إلى الوزارة ، فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤ هـ ، ثم نقم عليه سنة ٣١٦ هـ فعزله وقبض عليه ، ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨ هـ . وله كُتُبٌ ، منها : « كتاب الكُتُب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء » .

وقد كتب هارولد بوين الانكليزي كتاباً عن « حياة علي بن عيسى وعصره » بالإنكليزية وسماه :

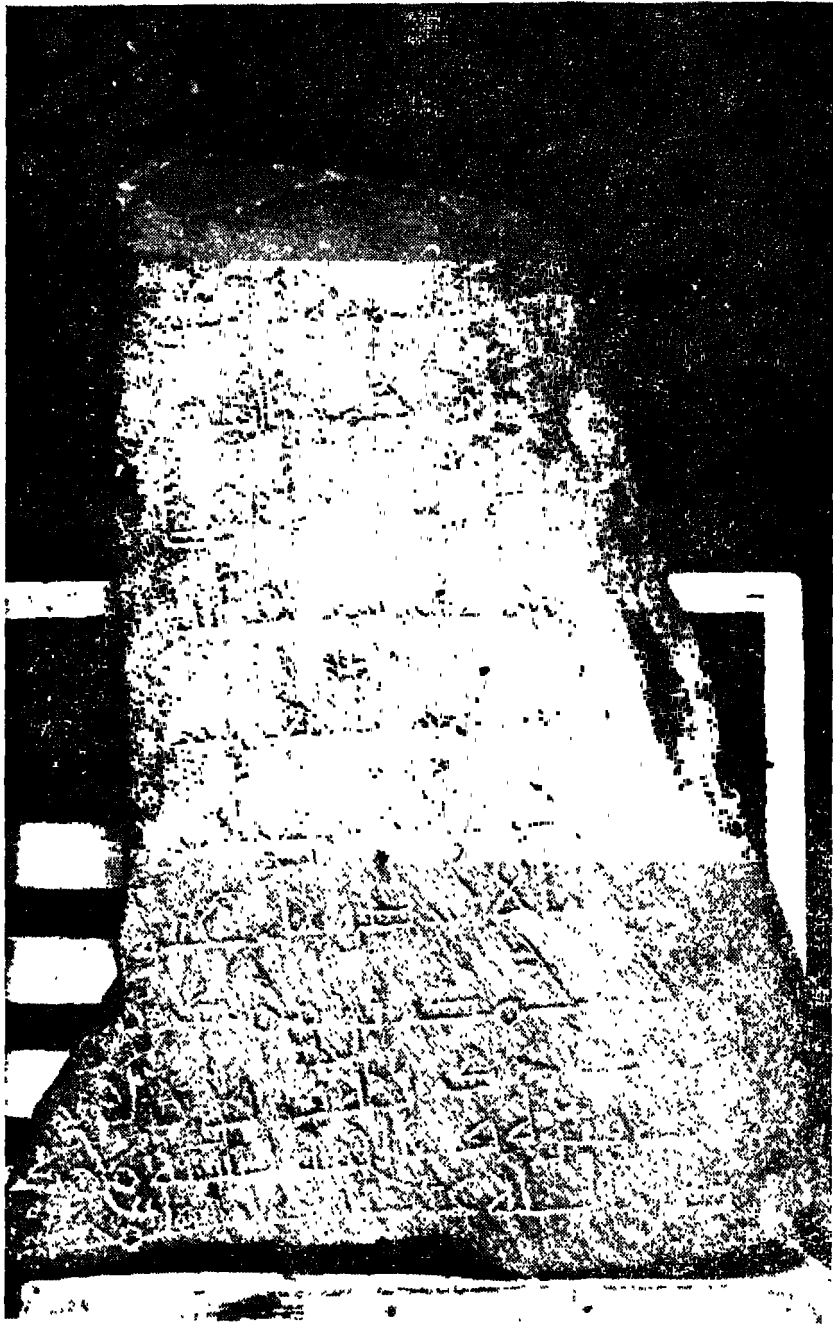
Thelife and Times of Ali Ibn Isa , the good Vizier .

وقد طبع في كمبردج سنة ١٩٢٨ م ، في ٤٥٠ صفحة .

ويقول الصولي ، عن أبي الحسن علي بن عيسى هذا : « لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وعلمه » .. وقد توفي سنة ٣٣٥ هـ .

والسنة التي رقم فيها النقش الحجري المشار اليه كانت سنة ٣٠٤ هـ وهي تصادف السنة التي استدعاه المقتدر فيها من مكة إلى بغداد ونكبه فيها ولا بد أن الحجر نُقِشَ قبل النكبة وفي أيام الرضا عنه كانت ولايته لمكة .. وكانت النكبة في آخرها أو وسطها ، وقد نُفي إلى مكة حيث كان والياً ، زيادة في إذلاله وألمه ومهانته .

ونفهم من الدراسة أن هذا الحجر نقش في زمن ولاية علي بن عيسى لمكة .. وتنسحب هذه الولاية على ديار بني سُلَيْمٍ طبعاً .. مما يدلنا على أنها كانت حينئذ تابعة لإمارة مكة بعد أن سَحَّيَتْ من تبعية إمارة



شاهد قبر من حجر الجرانيت وجد في مقبرة كبيرة في بلاد « بني سليم »
وهو مكتوب بالخط الكوفي المشجر الحالي من النقط والشكل . وقد حله
وقرأه كاتب هذه السطور ، كما سيأتي في هذا البحث .

المدينة .. وبالنظر لوقوعها في طريق الحاج إلى مكة ، وربما لأن يد أمير مكة أطول من يد أمير المدينة على ديار سليم هذه .

وولايةُ علي بن عيسى لمكة كانت قبل سنة ٣٠٤ هـ .. وربما كانت في أواخر القرن الهجري الثالث ، فإنَّ المقتدر تولَّى الخلافة من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠ هـ وكان غير كبير السن ، حيث إن ولادته كانت سنة ٢٨٢ هـ ، وقد رووا أنه كان ضعيفاً مُبَدَّراً .. استولى على الملك في عهده ، خدمه وخصَّته ونساؤه ، ولعله في هذا يكمن سر نكبات الوزير أبي الحسن علي بن عيسى المتعددة بأوامر المقتدر ، أو بأوامر خدمه وخصته ونسائه التي تنفذ باسمه ...

وقد نُقِشَ الحجر الأثري بعد فتك الواثق ببني سليم ، حَوْلَ « الجار » بأربع وسبعين سنة .. ونرى أنه في هذا الطرف أو قُبَيْلَهُ بدأ ازدهار منطقة بني سُلَيْم ، فقد اتجهت إليها أنظار بني العباس ، وحشوا ولائهم في مكة ، على العناية بأمرها وأمنها .. وكان نقش حجر الشاهد خلال هذه المدة ، وقبل نقش الحجر العمراني الآخر ، بمدة قد لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .. وقلنا هذا نظراً للفرق الواضح بين سَخَطِيَّ الحجرين ، فذلك بسيط ، جداً . وهذا فيه تعقيد الفن الحضاري المزدهر .

ومما يدل على شدة اهتمام بني العباس ، بأمر ديار بني سليم ، ما أورده محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، من أن محمد بن موسى بن يعقوب بن المأمون بن هارون الوشيد ، قد وُلِّيَ اليمامة ، والبحرين ، وطريق مكة .

ومحمد بن موسى هذا هو حفيد الخليفة المأمون العباسي ، ولد بمكة سنة ٢٦٨ هـ وانتقل إلى مصر فحدث بها وتوفي فيها ، وكانت كنيته أبا بكر . ويذكر خير الدين الزركلي صاحب « الأعلام » في ترجمته له

أنه كان أميراً من علماء بني العباس بالحديث ، وكان ثقة مأموناً .. ولم يشر صاحب الأعلام إلى نوع إمارته . وقد حددها الإسكافي لنا .. واستنبطنا منها انه كان رجلاً ذا مكانة لدى خلفاء بني العباس ، ولذلك وتّوه طريق مكة ، الذي كان من أهم نقطه المحتاجة لإحاطتها دواماً بسياج الأمن والاستقرار ، ديار بني سليم .

وكما ذكرنا سابقاً فإنه بعد تقلّص الدولة العباسية ، عادت الفوضى إلى ديار بني سليم ، ولم يستطع ملوك الطوائف المتعاقبون على حكم شبه الجزيرة العربية أن يحدوا من غلواء نزوات بني سليم ، كما فعل بنو العباس قبلهم ، ولم يستطع ذلك أيضاً أمراء مكة الذين استقلوا بهذه الديار بيتاً بعد بيت .

وفي عهد السلاطين بمصر يحدثنا صاحب « صبح الأعشى » بقوله : « وادي كُليّة (بضم الكاف وفتح اللام وتشديد الياء المثناة تحت ، المفتوحة ، وهاء تأنيث في الآخر) وهو واد بالقرب من حُلَيْص . به نحو سبعة أنهر ، على كل نهر قرية . وكان بيد سليم ، وقد خرب من مدة قرية بعد الثمانين والسبعائة » ..

وفي عهد بني عثمان المديد لم تنقذ ديار بني سليم من هوة الفوضى بل أعمت فيها وفي العزلة حتى أصبحت نسياً منسياً . ولا ندري ما إذا كانت الدولة العثمانية تستوفي منهم رسوماً أو جباية أو زكاة أو أهملتهم حتى من هذه الأمور ، بالنظر لحالتهم الاقتصادية المتدهورة فلم نجد في « السالنامة » التي بين أيدينا حديثاً عن ديارهم القرية من جُدة ، ولا ذكراً لهم في أي شأن من شؤون البلاد .

وجاء عهد حكومة الملك حسين بن علي فبقيت ديار بني سليم على حالتها ثم دخل الحكم السعودي البلاد ..

وفي سنة ١٣٧٥ هـ افتتحت هذه الدولة مدرستين ابتدائيتين تتبعان

وزارة المعارف ببلاد بني سليم .

وفي سنة ١٣٧٦ أسس فيها مركز لهيئة الأمر بالمعروف .

وفي سنة ١٣٨٢ أنشئت بديارهم محكمة شرعية تقضي في خصوماتهم الحقوقية وخلافاتهم الكثيرة المتشعبة وشؤونهم التجارية والزراعية والمالية التي كثيراً ما تنشأ عنها الخصومات .

ثم أنشئت عدة مساجد ودور حكومية ، في طليعتها القصر المجمع في قرية الكامل : أم قري المنطقة . وقد حلت به الإمارة والشرطة ، ومن ثم عاد ظل الأمن على هذه الديار المضطربة ، وعاد إليها الاستقرار بعد هجران طويل استمر قرابة ثمانمائة عام أو أكثر . كما انشئ لديهم — على ما عليمت مؤخراً — مستوصف لمعالجة أمراضهم التي أشدها فتكاً البرداء (الملاريا) بسبب تراكم المستنقعات التي تخلفها الأمطار والسيول في السفوح والأودية .

وهكذا بدأ خروج ، بني سليم ، بعد ارمان من قوقعة العزلة التي أحاطت بهم قروناً ، لإحاطة السوار بالمعصم ، وهكذا بدأوا يدخلون في حياة أمثل وأحفل ، وقد يعيد لهم التاريخ مجدهم التليد ، فيتصل حاضراً بماضٍ بعد طول انقطاع .. والتاريخ يعيد نفسه في أشكال وألوان .^١

« دراسة للحجرين الأثرين »

أولاً — الحجر العمراني المنشورة صورته في هذا البحث ، والذي نصب في ديار بني سليم ، وجلب منها مؤخراً ، تمكنت من قراءة

١ هذه المامة وجيزة عن بني سليم بن منصور ، وقد وفقني الله تعالى فألفت تاريخاً مستقلاً عن تاريخ بني سليم قديماً وحديثاً .. واسمه (بنو سليم) ، وقد طبع في هذا العام ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .

نصه ، وذلك بعد مدة استغرقت عاماً ، من عام ١٣٨٤ هـ إلى عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٤-١٩٦٥ م . وقد أعانني على قراءته أخيراً ذلك النقش الذي رقم على حجر الشاهد الآخر الذي كان في ديار بني سليم وجُلِبَ منها أيضاً أخيراً ..

ثانياً - وهذا حلِّي له ، وقراءتي . ويلاحظ أنه بقيت ثلاث كلمات لم أتمكن من حلها وقد وضعت عليها النقط هكذا : (. . .) . كما أن هنالك كلمة لم أستطع الوصول الى حلها ، وهي الكلمة التي وَضَعْتُ عليها خطأً أفقيّاً .. وقد سايرتُ في الحل أسطر الأثر ، فأُنْهِيتُ كل سطر في الحل بما هو في أصله تماماً ، وبدأت كل سطر بما هو مبدوء به في الأصل .

الحل والقراءة :

أمر عبد الله
جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاه الوزير
أبا

الحسن علي بن عيسى أدام الله عز
ه بعمارة طريق الحادة لحجاج بيت الله
لما رجا من جزيل ثواب الله و
جرى على يد القاضي محمد بن مر
تضي أعزه الله وثق له ذلك
... أحمد بن عبد العزيز العقبي
ومصعب بن جعفر الرد ...
... سنة أربع وثلاثمائة سنة

ثالثاً - الحجر الذي عليه هذا النقش هو جرانيتي ، ولونه بُنيّ
يميل إلى الانفتاح . وخطه كوفيّ دقيق الرسم ، مما يدل على أن ناقشه
مثقّف ، ومما يدل على تقدّم فن النقش في تلك الحقبة . وقد وُجِدَ
هذا الحجر الأثري في ديار بني سليم وذلك يدل بطبيعة الحال على أن
نقشه ونَصْبُهُ كانا بعد استتباب الأمن وبعد عمارة هذا الجزء بالذات
من الطريق ، طريق الحجاج ، وقد تم نصب الحجر بعد نقشه للتذكّار .
ونقشه غير مُشكّل ولا مُنقّط ، وخطّه كوفيّ من النوع الذي
يميل إلى زخرفة الحروف بطريقتين فئتين هما : التشجير والزوايا .
والحجر العمراني هذا أكثر تقارباً في رسم الحروف وأكثر انضماماً فيها
من حجر الشاهد ولا ندري حتى الآن هل كان نقش الحجرين في
المدينة المنذرة ببلاد بني سليم ، التي لا تزال مقبرتها التي أخذ منها أحد
الحجرين ، أو كان نقشهما خارجها وربما في مكّة أو المدينة أو في بغداد .
وشكل الحجرين معاً متماثل في أنهما يأخذان تقريباً في وضعها الحالي،
شكل المثلث ، إلا أن بينهما اختلافاً في اتجاه الزوايا .. فالحجر العمراني
واسع الزوايا ، في علوه ، ضيقها ، في سفله ، بعكس حجر الشاهد
تماماً .. هذا وقد وجاء في كتاب « تاريخ مدينة جدّة ١ » عن هذا
الحجر العمراني أنه جيء به من بلاد بني سليم إلى متحف جدّة ، وهو
لا يزال بها إلى اليوم على ما نعلم .

دراسة الحجر الشاهد السلمي ، وحلّ له

رابعاً - مكثت ثلاثة أيام متوالية وأنا عاكف على قراءة حروف حجر
الشاهد السلمي حرفاً حرفاً ، وبدأت بذلك من ١٣-٣-١٣٨٥ هـ

١ لمؤلف هذا الكتاب .

إلى ١٥-٣-١٣٨٥ هـ في مدينة جدة .

خامساً - وقد قرأته بتمامه حسب ما يلي : (ويلاحظ أنني التزمت في كتابته التالية منهج أسطره في كلتا بدايتها ونهايتها) .

القراءة :

بسم الله
الرحمن الرحيم
صلى الله على
محمد وعليه
السلام اللهم
يارب السموات
والأرض . اغفر
لأحمد بن محمد
الوضاح . كن له ودوداً
في قبره والحقه بشيعة محمد
صلى الله عليه وسلم

سادساً - مما لاحظته أثناء دراستي لنقش حجر الشاهد المذكور أنه وضع نقطة كبيرة (فاصلة) بين جملتين ، علامة على انتهاء الجملة الأولى ، وابتداء الثانية .. مما يدلنا على أن الأسلوب العصري الحديث المقرر في الكتابة وهو وضع الفواصل بين الجمل ، لتمييز بعضها عن بعض فلا تختلط على القارئ - وخاصة فاصلة النقطة التي هي علامة

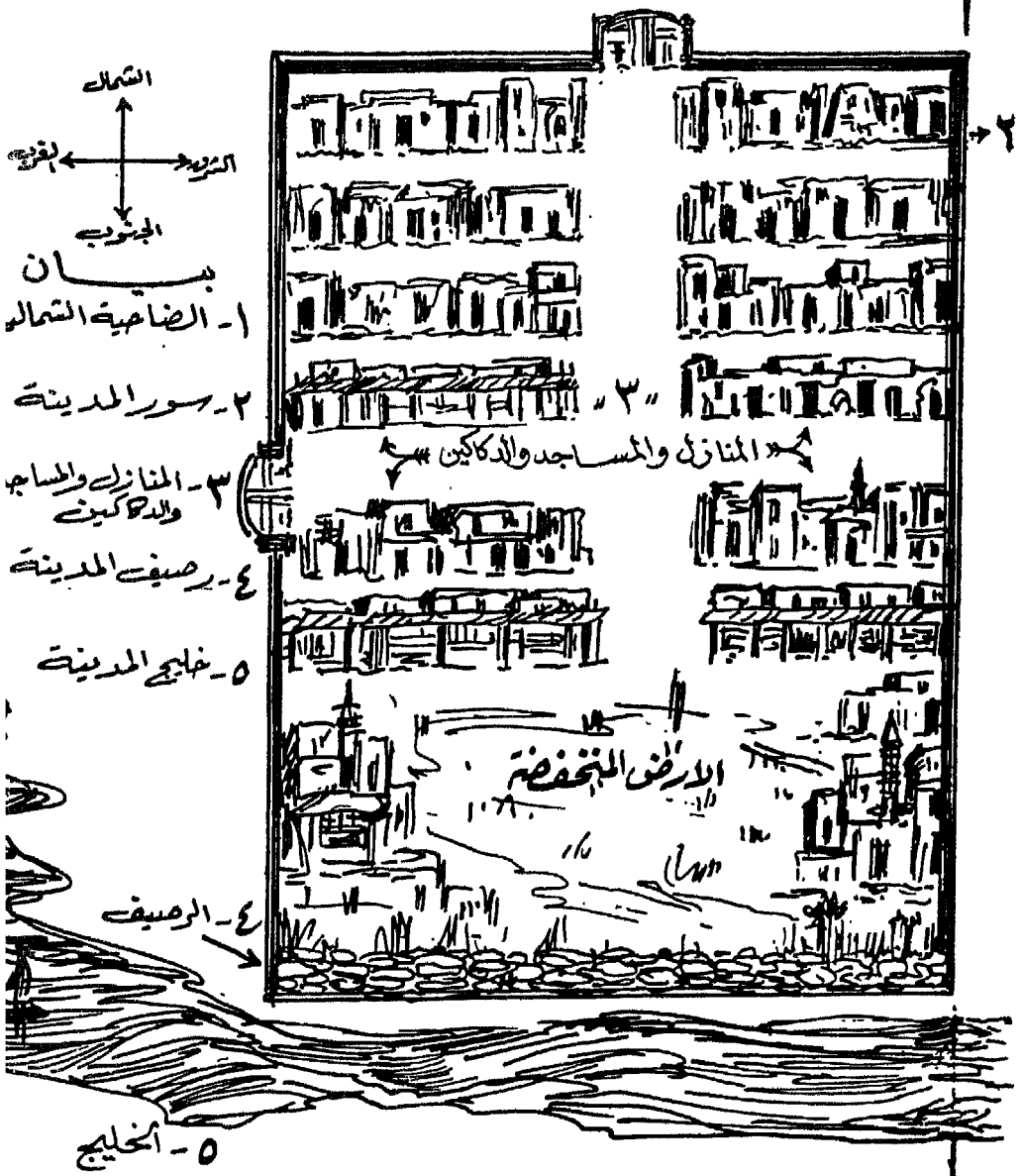
انتهاء ما قبلها وابتداء ما بعدها — كان معمولاً به في الخط العربي في أيام حضارتهم المزدهرة .

سابعاً — حجر هذا الشاهد جرانيتي هو الآخر ، وهو بُنِيَ اللون فاتحه ، وثقيل جداً .. ووزنه أثقل من حجمه ، وهو غير قابل للتفتت أو التكسر ، مما جعله يحتفظ بكامل رونقه وشكله . وخطه شجري السمات ، محفور بالإزميل الحاد ، حفرأ عميقاً ، مثل زميله الحجر العمراني ، وقد حماها ذلك من انمحاء النقش أو تآكل الجرم .

وطول حجر الشاهد : ٤٧ سنتمراً ونصف ، وعرضه ٢٥ سنتمراً في الوسط . وعرضه بالنسبة لرأسه ١٦ سنتمراً ، وفي آخره العرض ٣٥ سنتمراً . وسمكه ٧ سنتمترات . وخطه من النوع الكوفي المشجر كما أسلفنا ولكن بدون أي شكل أو نقط . وقد وجدته مبارك عبد التواب السُلَيميّ — أحد بني سليم المعاصرين ، التاجر المقيم بجدة — على ما حدثني به — في أرض بني سليم ، في منطقة الكامل ، في وادي ستارة في رقعة من الأرض فيها آثار ذات مبانٍ قديمة ، وتسمى (جَبَلَة) . كما أن في تلك الأرض معامل الذهب ، ولا تزال أطلالها باقية تظهر فيها محارق المعادن ، وكهوف استخراجها . كما أن فيها مقبرة كبيرة جداً مملوءة بالشواهد ، وهي غير مسورة . ولا بد أن سورها سقط وزال بتقادم العهود وعدم الترميم والتجديد وبفعل الرياح وغيرها . وذلك بعد زوال المدينة التي كانت تمتد المقبرة .. وإذا ذهب الأصل وزال ، فلا غرو أن يتبعه الفرع .

وكانت هذه البقعة خربة مندثرة .. والآن بدأ العمران يدب إليها . وقد وجد مبارك ، هذا الحجر في هذه المقبرة الكبيرة المهملة القديمة بجبله كما أسلفنا . وإلى حين كتابة هذا البحث لا يزال الحجر بجدة . وكان عبد المجيد شبكشي سلمني صورة الحجر الفوتغرافية وطلب مني

أن أقرأه .. وقد لاح لي أن قراءته يسهلها وجود الأصل لديّ لتكون
القراءة على الطبيعة وأشرت له بذلك فأنبأني بأن أصله موجود بـدكان أخيه
صالح شبكشي فذهبت إليه ووجدت لديه الأصل ، وبعد ظهر يوم
١٥-٣-١٣٨٥ هـ بقليل أتممت قراءة الأثر كما ذكرته آنفاً . وقد
أحضر لي هشامُ بنُ صالح شبكشي ، الرجلَ الذي جاء بالأصل من
بلد بني سليم : مبارك عبد التّوّاب السلمي .. فكان تعارف به وحديثٌ معه
أنتج المعلومات التي سلفت .



رسم تفريجي لمدينة الجار (البرنكية) وخليجها

آثَارُ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ
وَمَا جَوْلَهَا

يَثْرِبُ : القريةُ والمدينةُ

يَثْرِبُ اسم كان يطلق في الجاهلية على عموم المدينة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن المنافقين : « يا أهل يثرب لا مُقَامَ لَكُمْ » . على أن حقيقة المُسَمَّى به هو إحدى قُرى المدينة وأكبرها . وعن ابن عباس : أن يثرب في الأصل كان اسماً لابن عَسِيلٍ الذي هو أول من نزل المدينة . وبابنه المذكور سُميت البلدة ، يثرب .

أما (يَثْرِبُ) القريةُ ، فتمتد على ما حكاه السهمودي من طرف وادي قناة شرقاً ، إلى طرف الحرف غرباً ، ومن زباله الزَّجَّ جنوباً ، إلى البساتين التي كانت تعرف بالمال شمالاً .

والشطران الأخيران من هذا التحديد ، وهما زباله الزج ، والمال ، حقيقتهما مجهولة لدينا الآن . ومن باب التقريب والاستنتاج يمكننا أن نقول : إن المال هو بعض بساتين العيون في الشمال الغربي ، وإن زباله الزج هي قرية من قُرى المدينة كانت بشالي سلع إلى قرب وادي قناة ، اندثرت آثارها فلم تَعُدْ معروفة ، وقلنا : إنها قرية ، بناء على قول السهمودي عنها : « كان لأهلها أَطْمان » ، وقوله : « وكان بالمدينة في الجاهلية سوقٌ بزباله من الناحية التي تُدعى يثرب » .

أطم الضحيان^١

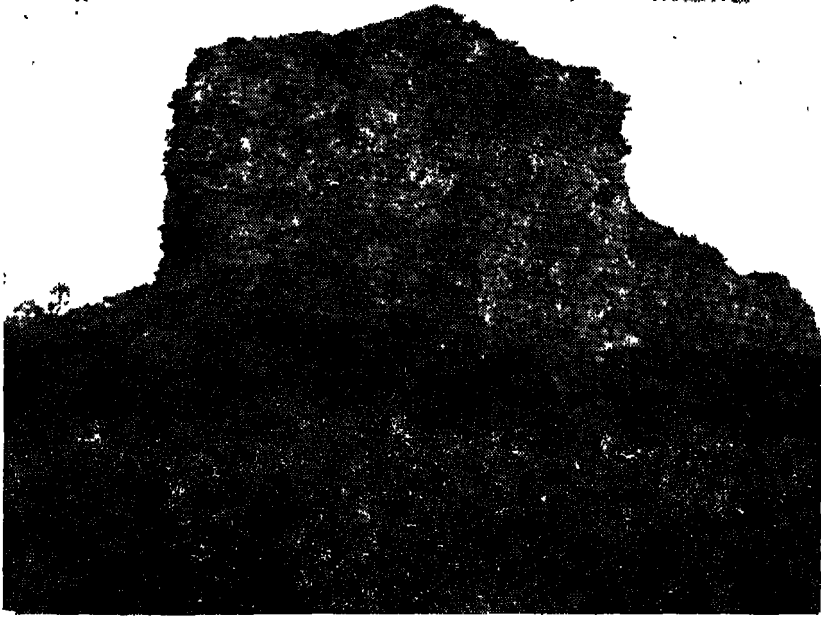
أطمٌ عظيم ، مشيد بحجارة الحرّة السود ، طوله نحو ٢٧ متراً ، في عرض ١٢ وارتفاعه نحو ٨ أمتار ، وقد تساقط قسمه الجنوبي ، حتى يكاد ينمحي أثره .. أما القسم الشمالي منه ، فلا يزال متماسكاً ، عالياً ، برغم تناثر كثير من حجارته العلوية ، ولضخامته لم يظهر أثر كبير لهذا التناثر .

وهو واقع بالعرضة الكائنة غربي حديقة بئر شميلة ، وشالي حديقة العصابة ملاصقاً لها تقريباً .

* * *

طالما وقفتُ مبهوراً أمام هذا الأطم العظيم ، وقد كنت إخال أنه من آطام اليهود ، حتى عثرت في وفاء الوفا ، على ما كشف لي عن حقيقته قال السمهودي في معرض بحثه عن منازل الأنصار : «وابنتي أحيحة ابن الجلاح بالعصابة أطمأ ، يقال له الضحيان ، وهو الأطم الأسود الذي بالعصابة» .

١ الأطم : الحصن . والضحيان : الظاهر البارز ، وهو كذلك . وجمع الاطم آطام وهو الحصن المبني بالحجارة أو كل بيت مربع مسطح ، (لسان العرب) . على أن من الاطام ما كان يبنى بالطين وحده .. ذكر ذلك نشوان الحميري في شرح قصيدته ، ص ١٤٦ ، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٨ هـ .



طلل أطم الضحيان بالمدينة المنورة

والعصبة على ما يفهم من فحوى أقوال مؤرخي المدينة كانت تعني جميع هذه البساتين الواقعة غربي مسجد قباء ، التي يفيض فيها وادي وادي رانوزاء ، كما أن السبيح أو السبيحي هو البساتين التي بغربي مسجد الفتش في العرف القديم . واسم العصبة في عصرنا يطلق على الحديقة المجاورة لأطم الضحيان .

وهذا الأطم جاهلي^١ كغيره من آطام المدينة .

١ في وفاء الوفا ، ج ، ص ١٤٧ و ١٤٨ ، ما يدل على أن جميع آطام المدينة جاهلية البناء ، ما عدا أطم بني ساعدة ، فقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو يبني . وفي المدينة آطام منها أطم الضحيان هذا ، و « الأشعر » : أطم بني عدي بن النجار ، وفارح أطم ثابت بن المنذر ، آل بعده إلى ابنه حسان الشاعر ، ويذكر المسعودي أن هذه الآطام خربت بعد ذلك في أيام عثمان بن عفان ولم يبق منها إلا أطلالها . ص ١١ « كتاب حسان بن ثابت » للدكتور إحسان النص . وأقول : ان منها بقايا إلى الآن .

حصن كعب بن الأشرف النبهاني^١

وصفه :

يقوم على هضبة من الحرّة الجنوبية الشرقية للمدينة ، وطوله ٣٣ متراً في عرض ٣٣ وارتفاع ما بقي من جدرانه ٤ أمتار وسمكها متر ، وله باب واحد في الجهة الغربية وثمانية أبراج ضخمة ، وبنائها من حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض مباشرة وطول بعضها ١٤٠ سنتيمتراً وعرضها ٨٠ سنتيمتراً وسمكها ٤٠ سنتيمتراً .

ولا أثر فيه للنقوش ولا للزخرفة ، بناءً حربيّ محض ، وبوسطه رحبة واسعة مربعة تبلغ مساحتها ألف متر مربع ، وهي غير مرصوفة ولا مبلطحة فالصخور الحرّية ناتئة فيها ، وبينها انخفاضات وارتفاعات .

١ ليس كعب بن الأشرف يهودياً ولكنه عربي نبهاني طائي ، مستخول في بني النضير ، وكانت له منزلة عالية بينهم ، لما لأخواله من المكانة في يهود ، كما له منزلة بين العرب ، لذلك ولشعره . وهذا الشعر طالما ألّب المشركين على محاربة المسلمين ، وطالما سب أعراضهم ، فكفأ ، لأذايته لرسول الله وللمؤمنين ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة لقتله ، فبادر بعضهم لتنفيذ رغبته العالية ، فذهبوا إليه في حصنه ليلاً ، واحتالوا عليه حتى أخرجوه منه وذهبوا به إلى شرق المدينة فقتلوه هناك .

وبجوار الحصن من الداخل ١٠ غرف مختلفة المقاسات ، وأعالیه مهدمة .

ولما جاء في كتب التفسير والحديث والسيرة من كون بني النضير لما غلبوا في محاصرة الرسول إلى الله عليه وسلم لهم ، واستسلموا عام ٣ أو ٤ هـ ، وحصل الاتفاق على جلائهم من المدينة ، مع حمل ما يستطيعون حمله من أمتعتهم ، غير السلاح ، ومن ذلك أخشاب سقوف حصونهم ونُجِفُ أبوابها الجميلة المزخرفة — نقول نظراً لما ذَكَرَ نرى أن سقوف هذا الحصن وعقوده أخرجت منه في ذلك العهد ، ونُقِلَتْ أخشابها فيما نقل يومئذ .

وإن هذا الحصن الهائل ، ذا الحجارة الضخمة السود ، والأبراج العظيمة ليعطينا صورة ناطقة عن كيفية بناء الحصون ، هنا ، قبيل الإسلام .

تحقيق عنه :

بقي علينا : هل هو ذا حصن كعب بن الأشرف بعينه أم هو حصن سواه ؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال ، أمهد للقارئ بما رواه المؤرخون عن موقع الحصن ، ومنازل بني النضير ، التي هو من جملتها .

في « وفاء الوفا » : أنه لما هتَفَ أبو نائلة بكعب بن الأشرف ، وهو في حصنه ببني النضير ليلة قتله ، نزل له .

وفي « سيرة » ابن هشام ، و « الكامل » لابن الأثير ، ذَكَرُ الحصن كعب ، ولكن بدون تعرض منها لموقعه .

* * *

بَحَثْتُ عَنْ مَنَازِلِ بَنِي النَّضِيرِ الَّتِي فِيهَا الْحَصْنُ ، فَعَثَرْتُ فِي « وَفَاءِ الْوَفَا » ، وَمَجْلَةِ الزَّهْرَاءِ ، عَلَى أَنَّهَا تَقَعُ بِحَرَةِ زَهْرَةَ : (الْحَرَةُ الَّتِي هِيَ بِطَرَفِ الْعَالِيَةِ) ، وَبِأَطْرَافِ وَادِي مُدَيِّنِيْبٍ ، وَبِالنَّوَاعِمِ ، وَمَا وَالَاهَا إِلَى الْحَرَةِ وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يَقْصُ لَنَا السَّمُودِيُّ مَشَاهِدَاتِهِ فَيَقُولُ : « وَرَأَيْتُ بِالْحَرَةِ فِي شَرْقِي النَّوَاعِمِ ، آثَارَ حَصُونٍ ، وَقَرْيَةٍ بِقَرَبِ مَدْيَنِيْبٍ يَظْهَرُ أَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ مَنَازِلِهِمْ » يَعْنِي مَنَازِلَ بَنِي النَّضِيرِ .

بَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ أَقُولُ : إِنْ مَا قَمْتُ بِهِ مِنْ بَحْثٍ وَتَنْقِيبِ عَقَبِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الْآنْفِ ذَكَرَهُ قَدْ أَكَّدَ فِي نَظْرِي تَأْكِيداً بَاطِئاً ، أَنَّ الْحَصْنَ الْمَوْصُوفَ هُوَ حَصْنُ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ بَعِينَهُ ، وَالِيكَ الدَّلِيلُ : يَقُولُ الْمِثْلُ السَّائِرُ : أَهْلُ مَكَّةَ أَدْرَى بِشَعَابِهَا . وَلِذَا اهْتَمَمْتُ بِالْوَصُولِ إِلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْحَصْنِ مِنْ طَرِيقِ الاسْتِخْبَارِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ .. كَانَ جَوَابُ أَحَدِهِمْ ، لَمَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْحَصْنِ وَلِمَنْ هُوَ فِي الْأَصْلِ ؟ : هَذَا حَصْنُ النَّصَارَى ! فَبَادِرَ زَمِيلٍ لَهُ بِجَانِبِهِ لِنَصْحِيحِ إِفَادَتِهِ وَقَالَ : هَذَا حَصْنُ النَّصْرَانِيِّ ... وَسَكَنَّا ، وَصُمْتُ أَنَا مَفْكَراً فِي جَوَابِيهَا الْمُتَحَدِّينَ فِي الْمَالِ : حَصْنُ النَّصَارَى أَوْ النَّصْرَانِيِّ .. عَجِيبٌ هَذَا الْقَوْلُ ، وَغَرِيبٌ هَذَا الْفَهْمُ .. النَّصَارَى لَمْ يَسْتَوْطِنُوا هُنَا قَطْ .. فَأَنْتَى لَهُمْ تَشْيِيدَ حَصْنٍ ضَخْمٍ كَهَذَا ؟ ! وَإِذْنُ لِمَنِ الْحَصْنُ ؟ .. لَا غُرُو أَنْ الْبَدُو الْأَمِّيِّينَ يَجْهَلُونَ الْحَقَائِقَ التَّارِيخِيَّةَ ، وَلِأَنَّمَا مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَخْبَارٌ وَأَقَاصِيصُ ، يَتَلَقَّفُونَهَا شَفْوِيّاً مِنْ آبَائِهِمْ عَنْ أَجْدَادِهِمْ يَتَنَاقَلُهَا مِنْهُمْ خَلْفٌ عَنْ سَلَفٍ ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا التَّحْرِيفُ وَالِاتِّوَاءُ وَالتَّغْيِيرُ .

وَبِالْتَّالِي ، فَالْبَدُو هُنَا لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .. كُلٌّ مَا سِوَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ نَصَارَى ، فَالنَّصَارَى يَهُودٌ ، وَالْيَهُودُ نَصَارَى .. وَإِذْنُ مَاذَا اسْتَفَدْنَا مِنْ قَوْلِ الرَّجُلَيْنِ ؟ !

كُلٌّ مَا اسْتَفَدْنَاهُ مِنْهُمَا أَنَّهُمَا مُتَّفَقَانِ عَلَى أَنَّ الْحَصْنَ قَدِيمٌ لَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ .. وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ هُنَا قَدِيمٌ هُمُ الْيَهُودُ ، وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَإِنْ كَانَ

نهبانياً من طيء إلا أنه بحكم الخوولة والحوار أصبح يعتبر واحداً من اليهود .
لا بأس ! هذه فائدة علمية لها أهميتها في الموضوع ، وإن تكن
مبتورة .. فلنمض في بحثنا قديماً .. فالحقيقة بنت البحث كما يقولون .
في أثناء ذهابي مرة أخرى للحصن عام ١٣٤٧ هـ صادفت رجلاً
قزماً بالقرب من الحصن اسمه (علي) يعرفني بقدر ما أجهله ، وله
بستان جميل في أم عشر ، وهو من « بني علي » أهل هذه الناحية .
وعندما شاهدني مقبلاً إلى الحصن ، نهض إليّ ، واستقبلني هاشاً باشاً
وقال : « أنت مقصدك أن تتفرج على الحصن ؟ » فقلت له : « نعم »
فقال : « تفضل ! هذا الحصن ملكنا من قديم وكان » وهنا قاطعته
قائلاً : « إذن لمن هو في الأصل ؟ » فأجابني بسرعة : « هذا هو
حصن كعب بن الأشرف » .. وتقدمني مرشداً ، وأراني الحراب الحادث
به ، من قبل فخري باشا ، فشكرته ، وحاولت الانصراف منفرداً ،
فأسرع إليّ ، يتابعني . ولما حاذينا باب بستانه أقسم لأدخلته معه ،
ولأقبلن عنده ، سحابة يومي .. ولظمئي دخلت معه البستان ، فلما
شربت الماء استأذنته في الخروج معترداً ، فقبل بعد إلحاح وتوسلات مني .

مشكلة علمية وحادثها :

بعد الوصول إلى ما شرح ، قامت في ذهني مشكلة علمية جديدة
حالت دون اقتناعي تماماً بأن هذا هو حصن كعب بن الأشرف ، ورغم
قيام الدلائل الموضحة سابقاً .

وتلك العقبة هي : أنه من أين يشرب سكان هذا الحصن إذا نفذ
ما معهم من ماء من الخارج . إذا كان هذا هو حصن كعب بن الأشرف ،
وهو معدّ للإقامة ، والحرب ، والحصار ؟! لا بد من وجود بئر
بداخله ، ليتحقق أنه هو ، وإلا فلا .. ومما أذكره أنني لم أعثر على

بشر بداخله أثناء جولاتي في رحبته وأنحاءه الداخلية .

قد يقول قائل : كثير من الحصون لا آبار فيها ، فأقول له : نعم ، ولكن ليست كلها سواء ، فمثل حصن كعب ، المُعدّ للإقامة والطوارئ معاً ، في موقع كموقعه ، ومكانة كمكانة صاحبه ، لا بد أن تكون فيه بشر داخلية^١ سداً للثغرة الاحتياج إلى الخارج في ألزم شيء لحياة الإنسان ، وهو الماء ، إذا اشتد الأمر ، وحوصر من هم بداخل الحصن مدة طويلة ، كما هو متوقع .

في الحق إن مشكلة عدم عثوري على بشر بداخل الحصن ، اغتص بها ريق فكري أمدأ مديداً ، وفكرتُ فيها شهوراً ، وحادثتُ عنها بعض الرفاق .. حتى كان عام ١٣٥١ هـ ، فذهبتُ في أحد شهوره معهم إلى الحصن ، فوجدنا - مُصادفةً - صاحبي « علياً » وبعد التحيات والترحيبات والتعريفات ، أعاد كلمته الأولى : أنتم مقصدكم أن تفرجوا على الحصن ؟ .. فقلنا : « نعم » ، فتقدمنا يقفز أماننا بخفة ورشافة ، فوق حجارة الحرّة ، وصار يدلنا ، ويحكّي لنا حكايات عن الحصن .. ويقول : إنه ورثه من أجداده ، وإنه ، وإنه .. فأجابه بسؤال ، مُستوضحاً ومُختسِراً : « يا أخي علي ! أين البئر ؟ لا بد أن تكون بداخل الحصن بشر ! » . وحالاً أفاض عليّ ، بما طيّب الخاطر ، وحل عقدة الإشكال .

قال : « تعالوا أركبكم البئر رأي العين ، ها هي ذي : (في الجهة الجنوبية خارج الحصن ملاصقة له) وقد انهارت بطول الزمن » .

١ يؤيد هذه النظرية ما ورد في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، من حصار النبي صل الله عليه وسلم لبني قريظة فجأة في حصونهم ٢٥ يوماً ، فلولا أن بداخلها آباراً ، ما استطاعوا المقاومة طول هذه المدة التي تقرب من شهر .

فقلت له : « إذا كانت بئر الحصن هي هذه ، على ما تقول ، فالمُسْتَقُونَ منها ، لم ينجوا ، بَعْدُ ، من خطر الأعداء ، لأنها خارجة عن الحصن » .

قال : « لا .. إن مدخل البئر من داخل الحصن هنا (وأشار إلى مكان بداخل الحصن مُنَاحٍ للبئر الخارجية) بسلم حجري يهبط منه المستقون ، من تحت هذا البرج ، وقد دفن التراب والحجارة المدخل والسلم ، وقال : أولا ترى هذا البرج ؟ »
قلتُ : « بلى . إنني أراه ! » .

قال : « بعد أن يهبط الواردون إلى البئر من الدرج الذي أشرت لك به ، يقف الرجال حاملي السلاح في هذا البرج لحراستهم إذا أحوج الحال » .
وبهذه المحاورة الطريفة التي دلّت على رُجْحَانِ عقل صاحبنا (علي) وتمكّنه من الموضوع ، وبمقارنة إفاداته مع ما مرّ ذكره ، من نص المؤرخين على أن الحصن يقع في منازل بني النضير ، وأنّ منازلهم ، بأطراف هذه الحُرّة التي فيها الحصن المبحوث عنه — من كل ذلك يتضح أن هذا الحصن ، هو حصن كعب بن الأشرف بعينه .
وهو بضاحية المدينة الجنوبية الشرقية ، وبينه وبينها نحو ساعة ونصف الساعة ، بالسير العادي للإنسان ^١ .

والطريق الموصل إليه منها هو هكذا : « بابُ العوالي — طريق قربان — أمّ عُسَـر — أمّ أربع — جزءٌ صغير من الحُرّة — الحصن » .

١ هذا البحث كتب قبل توافر السيارات بالبلاد ، إذ كان الاعتماد في قياس المسافات بالسير على الأقدام . والمؤلف قد كان وصوله إذ ذاك للحصن بطريقة المشي من المدينة إليه في كلتا المرتين .

وادي العقيق

هذا الموضوع شائق ، ولكنه مع ذلك شائك صعب المراس . ونحن سنبدل قصارى جهودنا في سبيل تدليل عقباته وجلاء صفحة سائه ، لنميط اللثام عن تاريخ هذا الوادي الذهبي ، الذي كان في عصر من العصور مطمح أنظار الخلفاء والأغنياء والشعراء بما حوى من قصور جميلة ومنتزهات لطيفة .

لم سُمِّيَ وادي العقيق بهذا الاسم ؟

عُرِضَ هذا السؤالُ على سليمان السعدي المتضلع في فقه اللسان العربي ، فكان جوابه للسائل : « لَأَنَّهُ عَقَّ فِي الْحَرَّةِ » أي شق وقطع . وهناك قول بأن سبب هذه التسمية هو حُمُرُ الوادي .

والتوجيه الذي أدلى به سليمان هو المقبول — في نظري — للأسباب التالية :

١ — ذكر ياقوت أن اسم العقيق شامل لكل مسيل ماء شقه السيل فأنهره ووسّعه (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١٩٨) .

٢ — ونصّ على أن ببلاد العرب أربعة أودية تُسمَّى جميعاً بالعقيق .

٣ - إن السهودي قصّ لنا أن تُبَعّا لما مرّ بالعقيق قال : « هذا عقيق الأرض » .. وهذا بعد أن مرّ بالعرصة التي كانت تُسمى بالسلييل من العقيق نفسه ، فقال عنها : « هذه عرصة الأرض » . فكما أن معنى العرصة لغةً : المكان المتسع الخالي ، ولذا أطلقها تُبَعّ على السلييل ، فكذلك كان إطلاقه اسمَ العقيقِ على هذا الوادي بسبب كونه شقاً في الأرض أحدثه السيل الذي يجري فيه .

هواؤه وتُربته :

هواءُ هذا الوادي صافٍ منعش على الإطلاق . وأمّا تربته فهي رملية تكتسي حمرة في الغالب . وأجملُ بقاعه « العَرَصَتان » : الصغرى والكبرى .

جهته بالنسبة للمدينة وطريقه ومسافة بعده عنها :

يقع وادي العقيق في غربي المدينة ، ويشقه طريقُ مكة^١ .. ويكاد عمران المدينة يتصل بمداخله والطرق إليه منها : باب العنبرية - الطريق شمالي قبة الخضر - المدرّج - العقيق .
ويبعد عن قلب المدينة من هذا الطريق بنحو ثلاثة كيلومترات .

مصدره ومصبه :

مصدره حضير : (مزارع بقرب النقيع الواقع بجنوب المدينة على

١ بني جسر كبير على القسم الذي يشقه طريق مكة من العقيق لتلافي تعويق سيل العقيق للمرور إذا جرى وسال .. بنته الحكومة العربية السعودية بعد كتابة هذا البحث بأمد ..

مسيرة يوم ونصف منها) ، ويفضي إلى بئر علي ، العليا المعروفة بالخليقة ، ثم يمر بغربي جبل عَيْرٍ ، فذي الحليفة ، ثم يسير مشرقاً إلى أن يحاذي حرة الوبرة ، في قسمها الذي يطلع إلى المدينة ، ثم يعرج إلى الشمال ، ويتجاوز العرصتين ويفيض في زُغابة .

قصوره ودوره :

قال محمد بن عبد الله البكري قاضي المدينة وعمر بن عبد الله :

أَيْنَ أَهْلُ الْعَقِيقِ ؟ أَيْنَ قُرَيْشٌ ؟
أَيْنَ عَبْدُ الْعَزِيزِ ؟ وَابْنُ بُكَيْرٍ
وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ خَلَدَ حَيًّا
كَانَ فِيهِ يُخَلِّدُ ابْنَ الرَّبَّيْرِ

هذا ويُشاهدُ الإنسانُ بعد أن يتجاوز طرف حَرَّةِ الوبرة ، مُصْعِداً ذاهباً إلى الميقات^١ ، أو متوجهاً إلى العرصتين بالشمال ، تُلُولا متسلسلة على جانبي المسيل ... وتلك التلول هي آثارُ قصور العقيق ودُورِهِ القديمة ، وقد لا يسترعي الأنظارَ مرأى هذه التلول لأول وهلة إذ يحسبها الناظر فيها بعض الكشبان الرملية المتكونة في أطراف الوادي تكوناً طَبَعِيّاً .. أما إذا دقق النظر فيها ، فإنه يتحقق أنها آثار القصور العقيقية الفاخرة ، بَدَتِ اليوم في هذا الشكل ، بحكم تقادم العهد وفعل المؤثرات الخارجية .

واليك مواقع القصور والدور بالعقيق حسب ما حققته بعد إجهاد القرينة ودراسة مختلف المصادر .

١ هو ذو الحليفة ميقات إحرام أهل المدينة المنورة في حجهم وعمرتهم .

أ - القصور الواقعة بطرف حَرَّةِ الوبرة إلى بئر رومة :

١ - قصر عروة بن الزبير ، بقرب بئرهِ .

٢ - قصر مراجل .

٣ - قصر سَكِينَةُ بنتِ حَسِينِ المسمى بالزَيْنَبِي .

٤ - قصور متتابعة لإسحق بن أيوب .

٥ - قصور أخرى لبعض الأعيان .

٦ - قصور ابنة المرازقيّ الزهرية .

٧ - منازل جعفر بن إبراهيم الجعفري .

ب - القصور التي في العرصة الكبرى التي بها بئر رومة :

١ - قصر عبد الله بن عامر .

٢ - قصر مروان بن الحكم .

ج - القصور التي بالعرصة الصغرى :

١ - قصر سعيد بن العاص (هو الباقية آثاره إلى اليوم دون سواه)^١ .

٢ - قصر عنبسة بن سعيد بن العاص .

٣ - القرائن (دور كانت لآل سعيد بن العاص بقرب قصره) ،

(الأغاني ، ج ١ ، ص ٦) .

د - القصور التي بسفح جِباء أمّ عاقر (أو عاقل) :

١ - قصور جعفر بن سليمان .

١ أحيطت أطلال هذا القصر بمخاط القصر الملكي الذي حول إلى دار للضيافة الملكية .

هـ - القصور الكائنة بسفح جِء أمّ خالد :

- ١ - قصر محمد بن عيسى الجعفري .
- ٢ - قصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة .

و - القصور الواقعة بسفح جِء تضارع :

- ١ - قصر طاهر بن يحيى .
- ٢ - منازل لعبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان .
- ٣ - قصر عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان . (وقد درسنا هذا القصر وعقدنا له فصلاً خاصاً بعد هذا ، شمل موقعه وتخطيطه كما درسنا السد المنسوب لصاحب هذا القصر في الفصل المشار اليه بنفسه) .
- ٤ - قصر عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان . ويبدو أن عنبسة هذا هو أخو عاصم ، المذكور آنفاً .
- ٥ - قصر عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن عثمان بن عفان . (وهو ابن بكير المذكور في البيتين السابقين) .

ز - القصور الكائنة بسفح جبل عَيسَ :

- ١ - قصر إسحاق بن أيوب المخزومي .
 - ٢ - قصر لآل طلحة .
 - ٣ - قصر إبراهيم بن هشام .
 - ٤ - منازل لآل سفيان بن عاصم .
- هذا بيان إجمالي لمواضع قصور العقيق^١ ، ومنه يتضح أن مجموعها

١ تصنيف القصور بالعقيق هكذا من شأنه أن يسهل وضع خارطة أثرية لصاحبة العقيق الأثرية .

هو (٢٤ قصرآ) . أما تعيين موضع كل منها بالتحقيق فذلك مطلب مسير جاداً^١ .. ناهيك بما تحملناه من البحث العلمي والتفكير حتى توصلنا إلى إيضاح مواقعها بالصفة المشروحة آنفاً .

بساتينه وآباره :

لا عجب أن يكون وادي العقيق في سابق عهده مغموراً بالبساتين الجميلة التي يسقيها السيلُ إذا جرى ، والآبارُ إذا توقف .. فوجود الرياض فيه من مستلزمات حياة النعيم التي كان يستظل بأكفافها أهل المدينة ، في تلك الحقبة من الدهر :

وهذا بيانُ ما اطلعتُ عليه من ذلك :

- ١ - مزارعُ أبي هريرة قبيل (الميقات) .
- ٢ - مزارع عروة بن الزبير قريباً من بشره .
- ٣ - بساتين ابن بكير بقرب قصره الذي هو بسفح جباء تضارع .
- ٤ - مزارع مروان بن الحكم بقرب قصره بالعروسة الكبرى .
- ٥ - بستان سعيد بن العاص بقرب قصره بالعروسة الصغرى .
- ٦ - مزارع الحرف التي منها « الزَّيْنُ » : مزرعة النبي صلى الله عليه وسلم على ما رواه ابن زبالة .
- ٧ - مزارع ثنية الشريد (بعد ذي الحليفة) .

وفي سنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م كان بالعقيق مزارع وبساتين متفرقة ، لا تكاد تذكر بالنسبة لاتساع رقعته وصلاحيته تربته .. وأهمها ما يقع

٢ وكما أشرنا اليه فقد تمكنا أخيراً في سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، من تعيين موضع قصر عاصم ابن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان وسده ، وعقدنا لهما فصلاً خاصاً تجده بعد هذا الفصل رأساً .

بقرب ذي الحليفة شمالاً وجنوباً ، وتعرف بمزارع الأبحساء ، لقرب الماء من ظاهر الأرض في تلك البقاع ، ويجودُ (الشَّرِي) ^١ في هذه المزارع .

أما بسنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م فقد انتشرت في العقيق المزارع والحدائق بصورة واسعة . وبالعريصتين والحرف حدائق أطيبها ماء (الرَّبْخِيَّة) ^٢ بالحرف ، وهواءاً ، سلطنة ^٣ .

وكان بالعقيق عدد غير قليل من الآبار ، لا تزال آثار بعضها بادية ، ولكنها مطمورة . أما بئر رومة وبئر عروة فقد احتفظتا بحياتهما إلى اليوم ^٣ لمزاياهما الخاصة على أنهما قد انطمرتا في بعض الحقب الحالية .

جَمَاوَاتُهُ وَالْآثَارُ بِهَا :

هي ثلاث هضبات سود^١ كبار قائمة بطرف العقيق ، على شفيره الغربي ، وسميت جَمَاوَات لأنها دون الجبال ، تشبهاً لها بالشاة الحَمَاء التي لا قرون لها .

وأقربها إلى المدينة ، جَمَاء تَضَارِع ، وهي التي يشاهدها الإنسان عندما يهبط من المدرج إلى بئر عروة ، وحذاءها غرباً بشمال : جاء أم خالد ، فجاء العاقر التي تصب على العرصة الصغرى . وعلى رأس جَمَاء خالد

١ الشري في عرف أهل المدينة المنورة اسم جامع للطبخ الأحمر والخريز والقشأ والخيار .

٢ هي العرصة الكبرى أو جزء منها .

٣ كان ذلك بسنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م وما بعدها ، والآن : سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ، فإن بئر عروة عادت للانفطار من جديد ، ولعل الله يوفق من ينبتها فيعود الاستقاء من مائها العذب المشهور بتخلل أحقاب التاريخ .

كان عمر بن سليم الزُّرقي اكتشف هو وزميل له قبراً قديماً ، وَوَجَدَا عنده حجرتين مكتوبين لَا تُقْرَأُ كتابتهما ، فحملهما ، فلما ثَقُلَ أحدهما عليهما ألقيا به في الجلاء نفسها . ولا ندرى هل هو باق فيها أم نقل ؟ أم ماذا جرى له ؟ والبحث يظهر الحقيقة . وكذلك لا ندرى ماذا حدث للحجر الآخر الذي كان قد بقي معها .

فضائله وعمرانه وخرابه :

في صحيح البخاري : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أتاني الليلة آت فقال : صَلِّ في هذا الوادي المبارك» .

وفي عرصته يقول : «نعم المنزل : العرصة ، لولا كثرة الهوام» . وكثرة الهوام فيه لا تزال إلى اليوم .. ومن ذلك اني في ذات أصيل كنت مع بعض الرفاق في زيارة للعقيق من ناحيته الجنوبية .. ورأيت حجراً مستديراً أملس فراقني منظره فلما حملته بيدي ظهرت من تحته حية بيضاء ضخمة مُقَرَّرَتَةٌ .. فقتلتها بنفس الحجر .

أما تاريخ عمرانه فيبدأ من الوقت الذي أعطى فيه النبي بلال بن الحارث المزني ما أصلح من العقيق^١ وذلك بموجب حجة نبوية نصّها :

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث .. أعطاه من العقيق ما أصلح فيه معتملاً ، وكتب معاوية» .

فلما لم يعمل بلال شيئاً في العقيق أبقي لديه عمر بن الخطاب في زمن خلافته قسماً منه ، وانتزع منه الباقي ، وأقطعه للناس . وكان هذا

١ يعتبر إعطاء الرسول صلى الله عليه وسلم لبلال ما أصلح من العقيق ، إرهاب عمرانه الذي بدأ فعلاً في خلافة عمر رضي الله عنه .

منه انفاذاً لفحوى الوثيقة النبوية المشار اليها آنفاً على ما سنوضحه فيما يأتي :

وكان مستندُ عمر رضي الله عنه في هذا الصنيع أمرين :

الأول : الشرط الوارد في كتاب الإعطاء النبوي ، إذ ان بلالاً لم يعمل شيئاً في العقيق ولذا أصبح غير مالك له .

الثاني : احتياج الناس اليه ، لما كثر المسلمون في المدينة حيث انها كانت العاصمة .

ومن ذلك الوقت أنشئت به البساتين الغناء ، والقصور الفيحاء تدريجياً فما كادت دولة بني أمية تستريح من القلاقل الداخلية حتى وجهت عنايتها إلى عمرانها ، فأصبح جنة سندسية خضراء ، زهورها القصور ، ونوارها الدور ، وأكمامها القُطآن والرواد .

ثم ما كاد يتبدئ دور التوقف في هذه الدولة حتى ابتدأ دور اضمحلال عمران العقيق وازدهاره ، فما هَوَتْ حتى ذَوَى ، ثم صار في خبر كان ثم بدأ العمران يدب فيه تدريجياً حتى الآن سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

إذن فعمران العقيق الفعلي مقرون بحادثة تصرف عمر فيه ، وإنها لمنقبة جليلة تضاف إلى سجل مناقبه الضخم ، إذ برهنت على نظراته الاقتصادية والدينية الثاقبة ، كما دلت على تفانيه في حب العمران وكراهية الخراب .

فلو فرضنا أنه لم ينتزع العقيق من بلال ، وبقي في يد ورثته لكان من الجائز أن يظل قاحلاً ، وبذلك تخسر المدينة عمران ضاحية من أجمل ضواحيها ، وأقبلها للعمران .

بين سد عاصم .. وقصره .. بالعقيق *

١ - السّد :

أقيم هذا السد كسائر السدود القديمة في هذه البلاد ليمنع تسرب المياه عقب هطول الأمطار إلى الخلاء ، وليحجز الماء لسقيا صاحب القصر وربما لمن كانوا بجواره ، وربما لحديقته ، وحدائقهم بقرب بطن وادي العقيق إذا كانوا أصحاب حدائق .

وهذا السد مبنيّ من حجر أسود غير منحوت : (دبش) ومجصص ، وهو عريض ، يبلغ عرضه نحو مترين ونصف المتر ، وطوله نحو ٣٦ متراً .

وقد أقيم بين فتحتي جبل تضارّع ، المنفرجتين ليستقبل ما يهبط أثناء الأمطار ، وبعدها ، من مياه ، ويحتفظ بها أطول مدة ممكنة .. ولا بُدّ أن له فتحة أزالها السّنون . وما تبقى من أطلال السد متهرئ وإن كان شاخصاً للعيان ، كما كان . وهو مستقيم ، يمتد من ناحية

(*) لقصر عاصم هذا ذكر في الفصل السابق ضمن القصور التي حددت مواقعها بالعقيق ، وقد أوردنا لقصر عاصم وسده ، هذا الفصل ، للتعريف بهما كنموذجين لقصور ذلك الوقت وسدوده .

الجنوب إلى الشمال . ويليهِ إلى جهة الجبل - الجهة الغربية من السد -
أساس "مبني" ، لا أدري : هل كان دكة أو مُنْزَلَقاً لمياه الأمطار أو
غير ذلك ، وما تبقى أو ما هو ظاهر - على أدق تعبير - من هذا
المبنى يتمثل في أصول ثلاثة جدران ، وقد بُنِيَتْ هذه الأصول
بالحجارة غير المنحوتة السود التي هي من نفس الجبل والحص . وأحد
هذه الجدران يتجه من الشرق إلى الغرب . والآخر من الجنوب إلى
الشمال ، وهذا الجزء قد اخترقه السيل ، وأتلفه . أما الجدار الثالث
فيتجه من الغرب إلى الشرق .

وقد لاحظتُ في غرب السد من حيث يأتيهِ السيل المنحدر اليهِ من
الجبل أنه قد مُهَّدَ لهذا السيل بمجرى له خاص ، ليسهل عليه النزول
إلى السد ، أو ليُجعل ماء المطر ، يصل اليهِ من الأعالي صافياً بقدر
الإمكان . وباب مياه السد ، الذي تنحدر منه عند اللزوم لا بدّ أنه في
الناحية الجنوبية من السد ، لأنّ ذلك أمر طَبَعِيّ بالنسبة لقصر عاصم ..
وبالنسبة لهذا الأخدود الذي شقته السيول فيما بعد ، وإلى الآن والذي
ربما كان هو مجراها القديم ، وذلك لأن الجهة الشمالية من السد لا يمكن
أن ينحدر منها الماء لاعتلاء ما يليها إلى الجنوب .

وقد بقي هذا السد حتى يومنا هذا بهيئته وشكله ، يقارع الزمن ،
ويقاوم عوامل الطبيعة القاسية .. ولا يبدو لي أنه رُمِّمَ كثيراً عقب أو
بعد عهد ازدهار العقيق .. مما يدلنا على متانة بنائه وروعة هندسته ...
ويتراءى لي أنه لو أعيد تعميره بشد أجزاءه المتآكلة إلى بعض بخص
أو اسمنت ، لكانت منه فائدة طيبة في الاحتفاظ بكثير من المياه التي
تهبط من هذه الجبال في موسم الأمطار .. وهذه الفائدة هي التي
توخاها من بنائه ، فحققت له أمله المنشود ..

هذا وقد أخذتُ لهذا السد بعض الرسوم .. كما رسمتُ في نفس

الوقت : بيوم ٩ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م جيل تضارع الذي يشرف على السد ، وتهبط مياه الأمطار منه اليه .

٢ - القصر :

وبعد أن فرغت من دراسة هذا السد وأخذ رسومه ، اتجهت إلى قصر عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان صاحب السد على ما يبدو من وضع السد والقصر المجاور له .

وقد عُنِيَتْ بالغ العناية بدراسة آثار القصر المذكور ، وزمن بنائه ، وشيء من تاريخه وطرز بنائه .

ويقوم القصر إلى ناحية الجنوب ، ببعض انحراف إلى الشمال ، بالنسبة للسد .. وبينهما نحو ٨٠ متراً .

وطول القصر نحو ثلاثين متراً ، وعرضه نحو ثلاثين متراً أيضاً ، فهو مربع .. تماماً . وطرز تقسيماته عادي : 'غرف متجاورة ما بين صغرى وكبرى ، وما يبدو لي أنه مطبخ أو غرفة الخدم ، ودكة للسمر لا تزال أطلالها ، وهي مربعة الشكل تقريباً ، وعالية عن الأرض حتى اليوم ، وأمامها ما يشبه غرفتين ، وبجانب هاتين الغرفتين ربوة مستديرة 'يُخَيَّلُ إليّ' ، أنها طلل بناية لعلها تكون ملحقة بالقصر كإصطبل . أما البابُ ، أي باب القصر ، على ما يترأى لي ، فهو واقع في ناحية الشمال منه ، ليكون بمنأى عن مجرى السيل الواقع في جنوب القصر . ويلفت النظر أن غرف القصر غير متساوية في المساحة .. بعضها كبير مستطيل ، وبعضها صغير مربع .. وجدارُ كل غرف القصر الواقعة في غربيه هو سور القصر نفسه .. وأما الغرف التي بناحية الشمال والجنوب والشرق فجدرانها منفصلة تماماً عن سور القصر .. الذي لا تزال

أطلاله شاخصة للعيان بشكل واضح . وآية وجود هذا الحائط المحيط بسائر أجزاء القصر ، هي بقاء أطلاله المتراكمة المنهارة محيطة بسائر أجزاء القصر من كل ناحية . وفي ناحية ما سميته المطبخ ، بدأت أبحث لعلّي أجِد بعض آثار القصر ، لأن المطبخ دائماً هو محل استهلاك الأدوات المنزلية القابلة ببقاياها للبقاء والإلقاء خارجه ، مثل القُتلل والأزيار وأواني الزجاج والفخار وما أشبه .. وفعلاً لقد عثرنا على شيء من كل هذا خارجه .. فهذه قطعة زجاجة (إسلامية) زرقاء اللون باهتة بفعل القرون .. وهذه قطعة زجاجة أخرى بيضاء من زجاج أبيض شفيف باهت بفعل مئات السنين .. وهذه الزجاجة الثالثة وقد وجدتُ عليها صورة نجمة لإخاها خماسية .. وهذه قطع واضحة المعالم من بقايا الأزيار والقلل الملقاة بجانب المطبخ ، وهي ما بين ملوَّنة وغير ملوَّنة .. وهذه قطع زرقاء مصبوغة بصيغ ثابت ، وربما تكون من بعض زهريات الزينة في القصر ..

وقد أخذتُ رسماً لكل من السد والقصر .. في جميع أبعادهما .. كما أخذتُ رسماً من زوايا متعددة لحبل جِماء تُضارِع الذي بني كلا السد والقصر في سفحه ، على ما رواه مؤرخو المدينة المنورة . ولا يزالان مشاهدين كذلك .

وأعتقد أن قصر عاصم في تقسيماته الداخلية والخارجية ، يعطينا فكرة محددة عن طراز بناء قصور ذلك العهد ، بصفة عامة ، وعن طراز بناء قصور العتيق في عهده بصفة خاصة . ومن أجل هذه النظرية عنيت بوضع المخطط التقريبي له .

كما أعتقد أن بناء هذا السد يعطينا نموذجاً واقعياً منظوراً لبناء السدود التي تبني إذ ذاك لتحفظ أكبر كميات المطر النازل من الأعالي في أطول مدة ممكنة ، للاستعمال المنزلي ، وللاستعمال الزراعي ، معاً ، في ذلك

الظَّرف .. ومن أجل هذا كله رسمتُ السد في مختلف أنحائه .. ورسمت ما حوله .. ليكون مثلاً مشاهداً لهندسة بناء السدود في تلك الحقبة من الدهر .. ولأثرية جماء تضارع الشاخصة على العقيق من هذه الناحية عنيت برسمها أيضاً هنا ، تكملة لإطار الصورة الشاملة للقصر والسد وموقعهما .

أما وقد انتهينا من شرح ما قمنا به إزاء هذا الأثر النموذجي الذي هو « قصر عاصم بن عَمْرٍو بن عُمَرَ بن عثمان بن عفَّان » ، فلا بأس من الاستئناس بما أورده تاريخ المدينة المنورة عن هذا القصر وصاحبه .

يعرّفنا التاريخ : بأنّ قصر عاصم هذا كان معروفاً ومشهوراً في وقته .. فقد نص السهمودي في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » على أنه : « في قبل الجماء : (تضارع) المشرفة على قصر عروة ، وعلى وادي العقيق ، وأنه يواجه بئر عروة بن الزبير » . كما أفادنا بأن جماء تضارع التي رسمنا صورتها فيما سبق ، تسيل على قصر عاصم ، وعلى بئر عروة .. وهذا نص صريح على أن السيل الهابط من جبل جماء تضارع يسيل على قصر عاصم ، كما نراه مُشاهداً اليوم . ولربما كان ذلك بتعديل خفيف ، فهنا إلى جنوب القصر ، غيّرَ بعيد عنه ، الأخدودُ الذي أحدثه مرور السيل الدائم بهذا المكان القريب جداً من القصر ، كما حدثنا السهمودي بأن سيل هذه الجماء ، كما يسيل على قصر عاصم ، يسيل على بئر عروة بن الزبير .

وقد تعرض هذا القصر لهجاء بعض شعراء المدينة ونقدهم في حياة صاحبه وبانيه . وتدلنا الأبيات التي تعاونَ على نظدها عبدُ الله الجعفري وعمرُ بن عبد الله بن عروة ، على أن هذا القصر كان قد بني في مكان يضايق مرور الناس ، على طرف من الطريق العام إذ ذاك ، كما تدلنا الأبيات على أن القصر كان مشرفاً وعالياً وواضحاً غير خفي للناظرين .

كما يدلنا هذا الشعر على أن صاحبه - عاصماً - لم يكن من مشاهير الأجراد ، على غناه وثروته ومكانته الاجتماعية .. وهذا مع أن القصر كان دائماً محل طهي وطبخ وشواء خاص ، وربما لم يكن يتجاوز تناولها ، صاحب القصر وعياله وصحبه الخاصين به دون سواهم ، فهو - أي عاصم - مُنْطَوِي في قصره على نفسه وعياله وصديقه .. ويقدم لنا هذا الشعر نصاً مهماً حيال موضع إقامة هذا القصر .. فهو مُشَادٌّ على مكان حَزَنٍ من الحجارة ، ولم يوضع على مكان سهل لين .. كما تدلنا الأبيات على أن القصر لم يُبْنَ لِأَوَّلِ عهده بالحجارة والحص .. شأن روائع قصور العقيق .. بل بِبُيِّي بطين .. لأول وهلة ، مما يدلنا على الروح الاقتصادية المسيطرة على صاحبه .. ثم إن صاحبه اضطر ، من أجل إصلاح معالمة وتجميل منظره في أنظار المجتمع حينئذ ، إلى شراء « قصة » فطَرةُ بها ، وغرم في ذلك ألفي درهم .

وفيما يلي أبيات هجاء القصر أو نقده ، ونقد بانيه ، التي نظمها الشاعران : عبد الله الجعفري وعمر بن عبد الله بن عروة .. ويلاحظ أن الأخير هو حفيد عروة بن الزبير .. فلا بد أن عامل التنافس كان له أثره في بعث هذا الهجاء أو النقد التحليلي المؤثر ، لقصر عاصم ، ولعاصم نفسه . قال الشاعران :

ألا يا قصر عاصم لو تبين	فتستعدي أمير المؤمنين
فتذكر ما لقيت من البلايا	فقد لاقيت حُزناً بعد حين
بُسِيتَ على طريق الناس طراً	يَسْبِكَ كل ذي حسب ودين
ولم توضع على غمض فتخفى	ولم توضع على سهل ولين
يُرى فيك الدخان لغير شيء	فقد سُميت خداع العيون
قبيح الوجه منعقد الأواسي	حيث الخلق مطرور بطين

ويتراعى لي أن المنافسة الاجتماعية في البناء والكرم كانت شديدة وقتها ، بين أصحاب أكثر قصور العقيق عامة ، وخاصة بين صاحب قصر عاصم وأصحاب قصر عروة وبثره .. ولذلك نرى عاصماً لا يستطيع أن يكبت ألمه مما ناله من هجاء قصره المنيف أو نقده ، من مكروه سوء السمعة وغمط الحقوق ونكران المزايا .. وقد رأينا عاصماً إذن يتصدى بشعره للدفاع عن قصره بسين قصور العقيق ، فيما يتعلق باختيار موقعه بالنسبة لمواقع القصور التي كانت تُبنى في جنبات العقيق وبأعلى قِمَمِ جباله ، أو على أرضه القرار ، كما فعل صاحب قصر عاصم بقصره حينما اختار لإقامته مكاناً سوياً شتوياً ، غير ذرى الجبال المرهقة لقاصد قصورها والمقيم فيها في كلا الطلوع والهبوط . وقد افتخر عاصم على معاصريه ومنافسيه في وادي العقيق بأن قصره كان شامخاً وعالياً بخلاف القصور الأخرى ، فهي إما واطئة أو قائمة على رؤوس الجبال بُعِداً بها عن مواقع اقتناص مجد الكرم وبذل الضيافة السخية للوافدين والطارقين . فقصره ، لقربه من الناس في مَقَارِهِمْ مع سعته وعلوه هو مثابة كَرَمٍ وفير ، للقاصدين والوافدين ، يطعمون في أمهاته ما لذ وطاب ، ويبستون في غرفه الواسعة خير مبيت . بخلاف قصور أولئك المنافسين ، وهذا دحض عاصم ، شعراً ، ما رماه به الشعاران من البخل ، وما نقداً به قصره من سوء الموقع ...

قال عاصم يدافع عن نفسه وقصره ويمدحه ، ويبرز فضائله ومزياه :

بَنَوْا وَبَنَيْتُ وَاتَّخَذُوا قُصُوراً فما ساوَوْا بذلك ما بَنَيْتُ
بَنَيْتُ عَلَى الْقَرَارِ وَجَانِبُوهُ إلى رَأْسِ الشَّوَاهِقِ وَاسْتَوَيْتُ
عَلَى أَفْعَالِهِمْ وَعَلَى بَنَاهُمْ عَمَلَوْتُ وَكَانَ مَجْدًا قَدْ حَوَيْتُ

وقد أمعن عاصم أو ابنه (زيد) في إبراز مزايا قصرهم الذاتية على ما عداه من سائر قصور العقيق في قوله :

وتلك صلاصل قد فلتستهم^١ وذلك وذئهم^٢ فيها يموت^٣
فليس لعامل فيها طعام^٤ وليس لضيفهم فيها مبيت^٥

والصلاصل أرض كانت لعروة ببحرة^٦ وادي بطحان ثم صارت
لابنه (يحيى) فوقها في بنيه ، وكان يقال لها (المقربة) . ويدلنا
بيت لأبي معروف أخي بني عمرو بن تميم على أنها كانت في واد قال :

إلى وادي صلاصل فالمصلى إلى أكناف أعلق ذي وشيع^٧

هذا ولأرض صلاصل هذه مزايا في نظر عروة بن الزبير ولم تكن
لها هذه المزايا في نظر عاصم .. ولعله عامل التنافس على المجد يؤدي
إلى اختلاف وجهات النظر في مثل هذه الأمور ..

فهذا عروة يقول في صلاصل التي هجاها عاصم مؤخراً :

مآثر أخوالي عدي^٨ ومازن^٩ تخيرت^{١٠}ها والله يعطي الرغائب
فمن قال فيها قيل صدق فلم يقل^{١١} ومن قال فيها غيره كان كاذبا

واذن فصلاصل هذه كانت موضع مناقشة اقتصادية ذائعة ، فيما يتعلق
بمزاياها وضدها .. صاحبها عروة يمدحها ويفتخر بها ويعتز ، ويرى
أنها من الذخائر ، لأنه تخيرها بنفسه ، بين الأرضين الحصبة .. وعاصم
يذمها كل الذم ، ويرى أنها جلبت الإفلاس لأصحابها ، فذلك
(وذئهم^{١٢}) أي بنات نخلهم تموت فيها إما لقلة الماء أو من إسباخ
أرضها وقحولتها .

هذا وقد تكون «صلاصل» أيام اشتراها عروة بن الزبير واستصلحها
وغرس بها النخيل وغيرها ، جيدة التربة ، وفيرة الإنتاج فيما غرس فيها ،

١ «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» ، المجلد ٢ ، ص ٣٣٦ ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة

١٣٢٦ هـ .

ثم ساءت حالتها ، وقلت غلتها بعض الشيء ، بعد وفاة هذا الماهد ،
وفي أيام أحفاده ، بسبب بعض الإهمال ، أو لقلة المال ، فكانت على
بعض ما وصفها به عاصم في زمنه المتأخر عن زمن مُنشئها عروة بن
الزبير .

ويدلنا على أن لعاصم بعض الحق في وصفه لصلاصل عروة المغلفة
في نظره بالملوحة وقلة الغناء ، ما رواه السهودي من أن ابن أبي البداح
(وكان أعلم الناس بالتخيل) مرَّ على عروة وهو يغرس أرض الصلاصل
هذه ، ألواناً فقال له :. إن كنت ولا بد غارساً فعليك بعنق ابن عامر ،
فانه ليس عنق أحسن للتره ولا أصبر على المالح منه ^١ .

١ وفاء الوفاء للسهودي ، ج ٢ ، ص ١٩٥ و ١٩٦ ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة
١٣٢٦ هـ .

قصر سعيد بن العاص^١

وصفه :

يقوم هذا القصر ، في وسط العرصة الصغرى من العقيق ، وبشرقيه على مسافة قريبة منه بستان ، وطوله نحو ٣٦ متراً ، وعرضه نحو ٢٧ متراً ، وارتفاع أطلاله الباقية نحو ٩ أمتار ، وسمك جدرانه ٧٦ سنتيمتراً ، وطوله وعرضه المذكوران إنما هما بيضمّ الأقسام المتساقطة منه ، اليه . وبناءه بالحجارة السود المتوسطة الحجم ، وبالحصص ، وحجارته غير منحوتة ، ولا أثر فيها للكتابة ، وإنما توجد في بعض أروقه ونوافذه نقوش على الحصص ، وزخرفة بالطوب المجصص ، وقد عبّث البدو بناحيته الجنوبية الشرقية ، إذ استحدثوا بها بناءً مسقفاً لإيواء أنعامهم . وقصر سعيد بن العاص مطلي بالحصص ، من داخله وخارجه . ولتانة بنائه وارتفاعه عن المسيل ، وتخصيصه بالصفة المذكورة تأثير كبير في بقاء أطلاله واقفة شامخة إلى هذا اليوم برغم اندثار ما بالعقيق من سائر القصور .

١ أبقى هذا القصر كما هو في الجنوب الشرقي بداخل سور القصر الملكي الذي أصبح فيما بعد ، دار الضيافة الملكية بالمدينة المنورة كما أشرنا اليه فيما مضى .

وفي جنوب القصر مسطبة (دكة) متداعية ، لعلها كانت مُعدّةً
للجلوس والسمر ، في ليالي القمر ، والعشيات والبكر .



طلّـلُ قصر سعيد بن العاص بالعقيق بالمدينة المنورة

وبمقربة منه جنوباً وشمالاً ، تُرى سلسلةُ أكوام ، يعلوها رمل
الوادي الأحمر ، وهي آثارُ دُورٍ ، قد تكونُ الدُورَ المسماةً بالقرائن
التي كانت لبني سعيد ، على ما رواه صاحب الأغاني .

نبذة من تاريخه :

جاء في « وفاء الوفا » : « ابنتي سعيد بالعرصة قصرّاً في سُرتِها »
وفيه : « أن القصر بالعرصة الصغرى » . وفي « مرآة الحرمين » إيضاح
لموقع هذه العرصة إذْ ورد فيها ما تلخيصه : « القسم المقارب للمدينة

من العقيق الغربيّ يُسمى العقيق الكبير ، وفيه بثر عروة . والقسم الشماليّ يسمى العقيق الصغير ، وفيه بثر رومة . وبهذا العقيق الصغير عرصتان : كبرى ، وهي التي تلي بثر رومة ، وصغرى تقع جنوبي الكبرى .

وسعيدٌ باني هذا القصر هو أحد أمراء المدينة في خلافة معاوية رضي الله عنه ، وهو من مشاهير أجواد بني أمية ، وقد كان معجباً بقصره هذا ، كل الإعجاب ، ولذا خصصه للتنزه والاستجمام ، مما يدلنا على مبلغ عنايته بتشجيده وتأنيقه وربما وتأثيره .

قال البتنونيّ في رحلته : وكان هذا القصر في أيام صاحبه آيةً في جماله وفخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجري ، وأعجوبة من أعاجيبه ، حتى فضله الشاعر على أبواب جيرون : (دمشق) التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة ومكان فخامتها وأبهتها .

والشاعرُ الذي يشير اليه البتنوني هو أبو قطيفة إذ يقول :

القصر فالنخل فالحماء بينهما أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

قصر إمارة المدينة المنورة

في الجنوب الشرقي من مسجد قباء ، وبعد حديقة (الصَّوَيْبِري) وفُؤَيْقَ بستان (ابن مُسَلِّم) تجثم أطلال بناء ضخّم قائم اللون . وهو عبارة عن أروقة ضخمة تنتهي إلى بروج في أركانه ، وتقع في وسطها رحبة .. هذا البناء الضخم مجهول الهوية لديّ قبلاً ، وقد بحثُ عن حقيقته كثيراً فأخذتُ عن أحد المُعَمِّرِينَ : (حمزة خليل ، رحمه الله ، إمام مسجد قباء ، المتوفي قبل نحو ٣٧ سنة) .. أَخَذْتُ عن هذا المعمر المدني ، أنه - وهو صغير - أدرك صاحب هذا الحصن ويعرفه ، فإنه « ابن مضيان » أمير المدينة في عهد آل سعود الأوّل . وهذا الحصن أو القصر يقع في طرف حرة قباء متصلاً من ناحية الشمال بالبساتين ، وهو يشرف عليها لارتفاع مستوى عمارته عنها قليلاً .. وتحيط به الحرة من ثلاث جهات ^١ .

١ يستأنس هذه الرواية عن هذا المعمر الذي أدركناه بما ورد في كتاب : « عنوان المجد في تاريخ نجد » لعثمان بن بشر ، حيث ورد فيه ، ص ١٣٥ ، طبع المطبعة السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٩ هـ ، ما نصه :

« وفي أول هذه السنة قبل مبايعة غالب ، بايع أهل المدينة المنورة على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، وهدمت جميع القباب التي وضعت فيها على القبور والمشاهد ، وذلك أن آل مضيان =

= رؤساء حرب وهما بادي وبداي ابنا بدوي بن مضيان ، ومن تبعهم من عربانهم ، أحبوا المسلمين ووفدوا على عبد العزيز وبايعوه ، وأرسل معهم عثمان بن عبد المحسن أبا حسين ، يعلمهم فرائض الدين ويقرر لهم التوحيد . فأجمعوا على حرب المدينة ونزلوا عواليها ، ثم أمرهم عبد العزيز ببناء قصر فيها ، فبنوه وأحكموه واستوطنوه ، وتبعهم أهل قباء ومن حولهم ، وضيقوا على أهل المدينة ، وقطعوا عنهم السوابل ، وأقاموا على ذلك سنين ، وأرسل اليهم سعود ، وهم في موضعهم ذلك ، الشيخ العالم قرناس بن عبد الرحمن صاحب بلد الرس المعروف بالقصيم ، فأقام عندهم قاضياً معلماً ، كل سنة يأتي اليهم في موضعهم ذلك ، فلما طال الحصار على أهل المدينة ، وقعت المكاتبات بينهم وبين سعود ، من حسن قلعي وأحمد الطيار ، والأعيان والقضاة ، وبايعوا في هذه السنة ، سنة ١٢٢٠ هـ .

وأقول تعقيباً : « أنه ربما يكون حمزة خليل رحمه الله ، أدرك ، وهو صغير ، من أهل المدينة المنورة من أدركوا عهد إمارة ابن مضيان وكانوا يتناقلون في مجالسهم الخاصة والعامة حوادث ذلك الظرف الذي ضيق عليهم فيه ، رطبة وجديدة بالنسبة اليه ، فعزا ذلك إلى مشاهداته تجوزاً أو مجازاً أو تأكيداً من مسموعاته واعتبارها ضمن مشاهداته والله أعلم .

وادي رانوناء

هَضَابٌ يَهْدَا السَّدَّ بِالصِّلْدِ كُلِّهَا
عَلَى كُلِّ وَادِيهَا جِنَانٌ مِّنَ الْأَرْضِ
وَلَا النَّغَوَانِي لَا يَزَلْنَ يَرُدُّنَّهُ
وَكُلُّ فَتًى سَمَحَ سَجِيَّتُهُ غَضَّ

عُثِرَ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مَنَقُورَيْنِ - بِخَطِّ قَدِيمٍ - فِي صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ جَدًّا ، بِقَرَبِ السَّدِّ الَّتِي بِوَادِي رَانُونَاءَ ، عَلَى يَسَارِ الذَّاهِبِ إِلَيْهِمَا مِنْ قُبَاءٍ .. وَقَدْ وَقَفْتُ مَعَ بَعْضِ الْإِخْوَانِ أَمَامَ تِلْكَ الصَّخْرَةِ تَحْتَ شُعَاعِ الشَّمْسِ الْمَحْرَقِ ، زَهَاءِ نِصْفِ سَاعَةٍ ، مُنْجَاوِلُ قِرَاءَةِ هَذَا الْخَطِّ الْعَتِيقِ . وَبَعْدَ اللَّتَا وَالَّتِي وَفَّقْتُ إِلَى قِرَاءَتِهِمَا بِالصَّوَرَةِ الْمَرْقُومَةِ أَعْلَى . وَلَا أَزَالُ أَلَا حَظَّ اضْطِرَابًا لَفْظِيًّا وَمَعْنَوِيًّا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ .

وَأَسْلُوبُهُمَا الْفَخْمُ يَنِمُّ عَنْ كَوْنِهِمَا مِمَّا قَبْلَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ .

وَلَنَا لِنَشْكُرَ لِهَذَا الشَّاعِرِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ تَسْجِيلِ هَذَا الصَّكِّ الشِّعْرِيِّ التَّارِيخِيِّ الْخَافِلِ بِذِكْرِيَّاتٍ رَائِعَةٍ عَنْ دَوْرٍ نَاضَرَ مِنْ أَدْوَارِ وَاقِعِ هَذَا الْوَادِي الْقَاحِلِ الْيَوْمَ .. ضَرَبَ عَنْهُ الْمُؤَرِّخُونَ صَفْحًا ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا كُلِّيًّا .

وهكذا نرى بعض الشعراء في بعض الأحيان يقومون بدور المؤرخين ولكن بمثل هذا الأسلوب الشعري الإجمالي الأخاذ .

يريدُ الشاعر أن يُطْلِعَنَا — نحن الأجيال القادمة — بالنسبة لزمناه — على أن هذا الوادي لم يكن كما نراه اليوم ، أُجْرَدَ قاحلاً ، بل لقد كان في عصره زاهراً وذاخراً بالرياض الغناء ، ومرتعاً للظباء الأوانس ، ومسرحاً للفتيان الأجواد ، يقصده النوعان ، بكرة وعشياً ، للتنزه في مروجہ الخضراء ، والتمتع بجماله الجذاب .

ويُخَيِّلُ الينا أن الشاعر لما ارتسم في ذهنه الصافي ، مجالُ منظر الوادي ومَنْ فيه أَبَتْ قريحته الحصبة إلا أن تجود بالبيتين المذكورين ، وأبى سمو مداركه إلا أن ينقشهما بيده على هذه الصخرة المساء ، وقلنا : إن ناظهما هو راقعهما ، استنتاجاً من وجود اسم تحتها ، ولرداءة خطهما ، كخط أغلب الشعراء البارعين .

* * *

آثار الوادي : السّد — الكتابات :

قولنا (السّد) بلفظ المفرد ، لا يخلو من مجاز ، وإلا فالحقيقة أنها سدودٌ ثلاثة محكمة البناء متقاربة ، وأكبرها الجنوبي الذي يلي مصادر السيل ، يليه في الضخامة الثاني فالثالث .

وحجارة بناء السدود الثلاثة متلاصقة بدون حَسُوٍ بينها .
والحِكْمَةُ في جعل السّد الجنوبي ، أضخم ، تقويته لتسلّقي تيار السيل الذي يصادمه لأول وهلة ، فإذا امتلأت السدود يجري السيل في الصفاصف إلى أن ينزل إلى العصبه .. وهناك مجراه ظاهر .

* * *

هذا وقد عثرنا على كتابات شتى في صخور الهضبة التي تلي السد في غربيه . وأهم ما فيها كتابة هذا نصها :

« جدد هذا السد بإرادة الملك المظفر السلطان عبد العزيز خان سعادتلو شيخ الحرم خالد باشا بنظارة الفاضل محمد صالح حماد سنة ١٢٨٩ هـ بالمدينة المنورة .. عمر ازميري غفر الله له آمين » ١ هـ .

وهذه الكتابة تدل على أنه كان في موضع هذا السد ، سدّ آخر ، لأن التجديد لا يكون إلا للموجود ، ولعلّ السدّ المُجَدَّدَ بهذا هو سد عبد الله بن عمرو بن عمر^١ بن عثمان الذي جاء في « وفاء الوفا » أنه يصبّ فيه سيل رانواء :

وتوجد كتابات كثيرة في صخور هذا الوادي ، وبمصبه إلى العصبه . أما مصدر سَيْلِهِ فهو مقمة أو مقمن (جبلٌ جنوبيّ عَيْر) ، ومن هذا الجبل يفيض على قرين صريحة ، فالسدّ الموصوف ، فالعرصة بَعْدَهُ ، فالصفاصف ، فالصخور ، فأرض العصبه ، ثم يسير حتى يعترض طريق قباء الحديث حيث عمل له هناك مجرى فوقه جسر ، ثم يختلط بوادي بَطْنَحان ، ويدخلان المدينة معاً تحت باب قباء في شريقته .

وادي رانواء في الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة . والسد الذي به يبعد عن بطن المدينة بنحو خمسة كيلومترات ، وطريقه منها :

باب قباء — طريق قباء — انحراف إلى الجنوب الغربي — الطريق غربي بستان العصبه — الحرة — الصخور — الصفاصف — العرصة — السدّ أو السدود .

١ عبد الله بن عمرو بن عمر بن عثمان هذا هو أخو عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان صاحب القصر المعروف بقصر عاصم الذي تحدثنا عنه في فصل خاص .

جبل سلع والآثار به

جبل عظيم شامخ في شمالي المدينة ، وقد اتصل به العمران حالياً وتجاوزه . وحجارة هذا الجبل سودٌ بوجه الإجمال ، تَشَقَّتْ مِنْ ضغطها باليد ، ويقال إنها تحتوي على مادة الإسمنت ، ولكن لم يتحقق هذا بتجربة علمية بعدُ . وفي شرقيه « دكة جلال » مهدها شخص يدعى بهذا الاسم في عهد الدولة العثمانية ، وفي سفحه الغربي كهف بني حرام الذي كان به مبيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبشمال هذا الكهف في سفح الجبل أيضاً مسجد الفتح .

وفي علو سفح جبل سلع الجنوبي كتابة كوفية أثرية قديمة منقورة في الصخر ، نصُّها على ما رواه صاحب مرآة الحرمين : (أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يشكوان إلى الله من كل ما يكره) .. (يقبل الله عمر . الله يعامل عمر بالمغفرة) . وهي في أماكن متفرقة وقد أثبت البحث الأثري أنها قديمة ، ونحط هذين الصحابين الجليلين ^١ .

١ انظر مرآة الحرمين لابراهيم رفعت .

جبل سُلَيْع

هو الجبل الصغير الذي يقع بجنوبي جبل سُلَيْع ، وفيه كانت بيوت بني أسلم من المهاجرين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفوقه اليوم أحد أبراج قلعة الباب الشامي ، وكان عليه في القرن التاسع الهجري حصن أمير المدينة من الأشراف ، بناه الأمير ابن شيخة أحدُهم في القرن السابع الهجري ليتحصن به وليكشف منه ضواحي المدينة ، ويقول جعفر برزنجي في «نزهة الناظرين» : إن هذا الحصن هو القلعة المعروفة عند باب السور المعروف بالباب الشامي وفي تاريخ المدينة للعباسي ما يفيد أن القلعة المذكورة هي في مكان الحصن ، وأنها من منشآت الدولة العثمانية .

وفصل بين سُلَيْع وهضبة بشاله ، طريق يؤدي إلى المجزرة وسُلَيْع . وهذا الطريق هو المعروف قديماً بثنية عثعث .

الجليل المتوهج

كانت هوايتي الأولى منذ صدر شبابي ، التنقيب عن الآثار .. ومعرفة أخبارها وتطوراتها ، وساعدني على ذلك كثرة الآثار بالمدينة المنورة .. سواء ما كان منها جاهلياً عريقاً في الجاهلية ، أم قريباً من الإسلام ، أم ما كان إسلامياً في صدر الإسلام ، وبعد ذلك .. وكانت أولى خطواتي في هذا الميدان قراءة الكتب التي تبحث عن آثار المدينة في القديم ، مثل كتاب «وفاء الوفا» للسهمودي ، وكتاب المطري والمراغي وغيرهم من قدامى العلماء الإسلاميين الذين عنوا عناية خاصة بآثار المدينة المنورة في عهودهم المتتابة .

ثم كانت الخطوة الثانية الاستقراء العملي ، والدراسة الواقعية ، لما كتبوا عنه ، فكنت لذلك أتجشم مشاق الوصول إلى كل ضاحية وناحية تحدث عنها أولئك المؤلفون ، مشياً على الأقدام ، في أغلب الأحيان ، وركوباً على الحمير ، في بعض الأحيان .. إذا كانت المسافة نائية أو الطريق وعرة ، لا يمكنني المشي على الأقدام من الوصول إلى ما أبتغي الوصول إليه منها .

والمدينة ذات طقسين متباينين : أحدهما حار لافح ، ويمثل أغلب نصف العام ، وهو فصل الصيف والحرور ، وثانيهما بارد

قارس ، شديد البرودة إلى حد نزول الثلج في بعض الفصول . وهذا الفصل هو فصل الشتاء . ولكن الهمة الطموح المنبثقة من جوانحي حينئذ لتحقيق هذه المهمة ، كانت لا تدع لي مجالاً للتقاعس عن تحقيقها ، سواء أكان الزمن شتاء قارساً أم صيفاً لافحاً .. فَكُنْتُ تراني أتجول في شوارع المدينة ، يستوقفني مثلاً « حَجَرُ مِسَنِّ » مثبت على باب عتيق ، أو دارٌ متهدمة عتيقة ، أو مسجدٌ قديم .. وَكُنْتُ تراني أتجول في ضواحي المدينة ، مُحَقِّقاً مجرى واد مجهول الآن ، ذَكَرَهُ قدامى المؤرخين ، أو باحثاً عن منازلٍ لقوم من الأنصار في إحدى تلك الضواحي ، أوردَ ذَكَرَهَا المؤلفون الأولون .. وَكُنْتُ تراني في بعض الأحيان أتجاوز كل هذا وذاك ، مستطعاً منقباً عن آثار لم يحدثنا عنها المؤلفون ، كَانَتْ تستوقفني عَرَضاً أثناء تجولاتي ، فأقفُ مصرّاً ، على حلِّ طلاسم رموزها .. أقفُ تارة في صيهود الجو الملتهب ، وتارة في زمهرير الشتاء .. وكثيراً ما وَفَّقْتُ إلى حل طلاسم من الخط العتيق ، بالمقارنة والبحث والتأمل .. مثال ذلك أنه يوجد بقرب السد الواقع جنوبي غرب المدينة المنورة ، رقعةٌ بيضاء فسيحة من الأرض تحيط بها الجبال من كل ناحية ، وبأحد تلك الجبال صخرة ضخمة ملساء ، استرعى انتباهي إليها وجود نقوشٍ عتيقةٍ مضطربةٍ عليها .. فوقفت أمامها تحت أشعة الشمس الملتهة ، زهاء ساعتين ، حتى اهتديت إلى حل هذا الطلسم من الخط العربي البدائي المنحوت على الصخرة الضخمة الملساء .. ويا عَجَبَ ما قرأتُ وحللتُ !.. فقد دلني ذلك على أن هذه المنطقة الجرداء القاحلة ، كانت في عصر من العصور القديمة رياضاً غناء ، ومنازلَ أنيقةً ، ومرتاداً للشبان في تنزههم وروحاتهم وغدواتهم .. ذلك ما عبّر عنه البيتان المنقوشان بالمسار على تلك الصخرة الملساء الضخمة التي تمثل جانباً من جوانب الحبل المتقورين فيه كما سبق ذكره بإيجاز .

يقول أحد البيتين عن ذلك الوادي :
وإنّ الغواني لا يزلن يرُدُّنهُ
وكلّ فتى سَمَّحٍ سجيتهُ غَضٌّ

* * *

هذا وقد دفعني حب الاستطلاع في يوم من أيام الصيف الملتهبة ،
إلى أن أمتطي حماراً ، من المدينة المنورة ^١ ، وأتوجه إلى طريق
(الحِصَّة) . وطريق الحِصَّة اصطلاح لاهل المدينة يعنون به ذلك
الطريق الأثري الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم ، في هجرته من
مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .. وقلتُ في نفسي : لا بدّ لي من
استكشاف أواخر هذا الطريق بنفسي ، ورؤية معالمه ، لأنه أثر من
الآثار التاريخية المهمة .. يُتمثِّلُ نقطة تحول عظيمة في تاريخ الحياة
البشرية .

ومضيتُ على حماري بعد أن وضعتُ فوقه خُرْجَيْنِ للزّاد والماء ،
في هذه الرحلة الاستكشافية ، وحملت عصاً صغيرة من نوع الخيزران ،
أسوق بها الحمار إذا ما جمع ، أو تبلد عن المسير . ومضيتُ متجهاً
صوب جنوب المدينة .. لقد مررت على قباء ، وأخذت الطريق إلى
جانبها الأيمن ، في اتجاه جنوبيّ غربيّ ، وتركتُ بجانبني حديقة
« الرفيعة » ومن ورائها شاهدتُ (أطم الضحيان) .. ذلك الأطم الأسود
الهاثل القائم على ذراع الحرة الغربية .. وهو الأطم الوحيد الباقي من
آطام الأنصار في عصر الجاهلية ، وكان أحييحةُ بن الجلاح أحدُ
زعماء المدينة من الأوس قد بناه في عهد الجاهلية بالحجارة البيض الصغار
فلما رآه عُرضةٌ للتهدم ، أمر بنقضه وبناء بالحجارة السود الضخام ،

١ لم تكن السيارات يومئذ بهذه الكثرة الموجودة اليوم .

وما يزال ماثلاً للعيان إلى اليوم ، أثراً خالداً من آثار العرب القدامى
في فنّ البناء ..

وبدأت أتوغل في الحرّة ، ورأيت أمامي خطاً دقيقاً باهتاً أكل
الدهر عليه وشرب ، من خطوط الطرق القديمة .. فهل هذا الخط
الدقيق المتفاني يمثل طريق الحصّة الأثري .. وتتبعته ومضيت لا ألوي
على شيء .. هذا جبل « عَيْر » حدّ المدينة المنورة الغربي الجنوبي ..
وتكاثرت الجبيلات عن يميني وعن شمالي ، وبدأ حماري يتعثّر .. إذ
كانت الطريق وعرة مهجورة ، والحجارة بها متوافرة .. وقد نفعت
العصا ، فصرت أزجر الحمار بها زجراً هيناً خفيفاً وأوجهه بها توجيهها
غير صارم .

ها أنذا الآن قد توغلت في الجبال ، وقد مضت ثلاث ساعات على
خروحي من المدينة المنورة .. وها أنذا أمضي قدماً .. ما الذي أريده
الآن ؟ ما الذي أسعى إليه ؟ لا أدري ! إلا أنني أزمعت المضيّ قدماً
لألبي هاتفاً عميقاً في نفسي ، لا يريد لي العودة رغم طول ابتعادنا عن
نقطة قيامنا .. لعل كل ما أريده استكشاف اللمسات الأخيرة الدانية من
طيبة في طريق هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق .

ومضيتُ .. وتظامنت الجبال وصغرت .. وقبّلتُ وصات هضباتٍ
وتلالاً غير سامقة .. فسجلتُ هذا الاختلاف الطبعي في مذكرتي .

وها نحن أولاء الآن قد مضت علينا أربع ساعات في السير ، وقد
ارتفعت الشمس فوق رأسي حين توسطت كبد السماء . وكنت قد
استعددتُ لهذا ، بمظلة تقيني الحرّ اللافح . ففتحتُها فوق رأسي ،
ومضيتُ .. وقد رأيت إلى الأمام عن يساري جبلاً واطناً ، يلوح لي
من بعيد .. مشرقاً متوهجاً أبيض وضاءاً ، على عكس جميع الجبال
والجبيلات التي مررتُ بها وكانت كلها سوداً ، وداكنة ، ونحاسية

الألوان .. أما هذا الجبلُ الذي أُقربُ منه رويداً رويداً ، والذي يقع إلى اليسار من طريقي ، فهو أبيض متوهج ، يشبه الأضواء الساطعة في الليل الدامس ، والشمس المشرقة في فجوات الضباب ، والألماس المتألُّي بين الحجارة السود .. ألا يكون لِدَنْ جَبَلِ الْمَاسِ ؟ لنُدع الخيال يسرح ويمرح .. فإنني مُقَدِّمٌ على الجبل ، وعمّا قليل سأكون عنده ..

بلغت الجبل الساطع .. فما خائني البصر ، وعند سفحه نزلتُ من على متن الحمار ، وقيدتهُ حتى لا يَتَقَرَّ مني في هذا البقع الموحش المخيف .. وأخذت عصاي بيميني ، وتقدمت للصعود إلى الجبل ، فإذا حيوان أخضر ناضر الاخضرار ، أكبر قليلاً من القِطِّ وأصغر من الكلب ، يقف لي فوق سفحه بالمرصاد ، فأخذتُ حجراً من الحجارة الكثيرة - وكنت رَمَاءً بالحجارة - وألقيتُ بالحجر على هذا الحيوان الأخضر الناضر الاخضرار ، الذي لم أرَ له مثيلاً من قبل ، سوى الخرباء الصغيرة التي تتلون بلون ما تقف عليه ، فيخضر لونها إذا كانت على عُصْنِ أخضر .. وبمجرد أن وقع الحجر قريباً منه وثب عليه ، فعضه ، وسرعان ما أَتْبَعْتُ الحجر بحجر آخر مثله ، في رمية أقوى من الأولى وأعنف ، فلما استهدفه الحجر وكاد يصيبه وَتَبَ بعيداً عنه ، وما إنْ هبط على الأرض حتى وثب عليه فعضه . عندها آثرتُ المهادنة ... فقد يكون هذا الحيوان ساماً وخطيراً ، وقد يكون مفترساً عارماً ، وقد يكون ... وقد يكون ... الخلاصةُ أنني آثرتُ بعدها طريق المسالمة فانهيت قصياً عن طريقه .. ومضيتُ في ترقب وحذر ، إلى الجانب الآخر من الجبل .

ويا لدهشتي ، فقد لاحظتُ عندئذ أن الجبل كلهُ فصوص ذات بريق مشرق .. وعدتُ إلى حماري المقيد ، فأخذتُ الحرجين ، ووضعتُ

ففيهما كمية لا بأس بها من الفصوص ذات البريق الخاطف ، ثم عدت إلى الجبل ثانية فاسترعت نظري هذه القُبُيَّباتُ الواطئة المنتشرة كالبحور على سطحه المتكور من كل ناحية .. إنها قُبُيَّباتٌ من حجارة الجبل نفسه ، ولكنها الحجارة السودُ الكبيرة والمتوسطة .. فقد ظهر لي أن الجبل ذو ثلاث طبقات .. طبقة الفصوص المتوهجة ذات البريق الخاطف وهي العليا البارزة للعيان .. وطبقة الحجارة الكبيرة والمتوسطة وهي سوداء اللون ، وتحت الطبقة السالفة طبقةُ الصخور الكبرى التي تمثل كيان الجبل الداخلي ، وهي سوداء وصفراء باهتة اللون يتخللها تراب وطن أحمر .

وقفتُ عند قُبُيَّبةٍ من هذه القببات الواطئة المنبثة على الجبل الغريب ، ومن باب الاستكشاف ، أقدمتُ على محاولة رفع حجر من حجارة إحداها .. وبجهدٍ تمكنتُ من رفع الحجر ، ونظرت إلى داخل القُبُيَّبةِ ، عن طريق الثغرة التي أحدثتها برفعي الحجر .. فبهمني ما شاهدتُ ... لقد شاهدتُ داخل القُبُيَّبةِ هياكلَ بشريةً مُسدَّدةً .. ثلاثة وأربعة وخمسة في كل قُبُيَّبةٍ ، ولكن هذه الهياكل البشرية العظيمة الضخمة ، مجردة عن اللحم تجريدًا تاماً .. وهي أضخم بكثير من الحالية .. في الحمجمة والأذرع والسيقان والأقدام وفي كل شيء .. وذهبت إلى قُبُيَّبةٍ أخرى ففتحتها أيضاً بعد جهد ، فإذا بالمنظر نفسه يتكرر ... عندها علمتُ أن هذه مقبرة مجهولة ، عريقة في القدم .. والشيء الذي حَزَّ في نفسي هو أنني أدركت من وقتها أن هذه المقبرة لا بد أن تكون جُبانةً لمدينةٍ قريبةٍ منها .. وكم وددت لو تمكنتي المقادير من استكشاف موقع المدينة القريبة من هذه الجبانة ؟ .. ولكن الشمس بدأت تميل إلى الغروب ، وخشيتُ البقاء وحدي في هذا القفر الموحش ، خصوصاً بعد أن كاد الماء ينفد من الركوة المعلقة على الحمار . وسرعان ما عدت لأمتطي حماري ، وأرجع أدراجي إلى المدينة

من الطريق التي أتيتُ منها ، فوصلت إليها والشمس قد آذنت بالمغيب ، وقد سقطت وراء الأفق البعيد .

إنها رحلة شاقّة ولكنها ممتعة .. أما ما التقطته من الفصوص فقد بقي لديّ فترة من الزمن ، ثم رأيتُ عرضها في سوق سويقة بالمدينة .. وبالفعل عرضتها ، وفهمت أنها ليست بالملاس كما توهمت ، وإنما هي من هذه الحجارة المعروفة في المدينة « بحجر المدينة » .. وهي تستعمل أيضاً فصوصاً للخواتم كالألماس تماماً .. ولكنها ضئيلة القيمة .. قيمتها يومذاك أشبه بقيمة الألماس الصناعي اليوم .. لقد بعْتُ كل ما جمعته يومئذ منها بخمسين ريالاً فقط .. وكان الذي اشتراها مني بالحملة أجد الباعة بالمدينة في سويقة وقال لي : إنه سينحتها وينظمها ويعمل منها فصوصاً براقّة كالألماس لبييعها للزوار في موسم الحج القادم .. هكذا آل مصير الفصوص التي ظننتها ألماساً ، وهكذا تبخّر حلمي بالألماس .. وذلك كان آخر عهدي بالجبل المتوهج .

جبل عار *

عار : كما هو معروف اليوم ، هو سلسلة هضبات متصلة بعضها برقاب بعض ، تبعد عن المدينة جنوباً بنحو ١٩ ساعة ، بسير القوافل الحجازية ، وبنحو نصف ساعة بسير السيارات في الوقت الحاضر ، وهذه السلسلة من الهضبات الشاخمة تخترقها الطريق الذي يوصل بين مكة والمدينة . وتقعن قبيلة (الرّحلة) الحربية في هذه المنطقة الآن . ويحدثنا التاريخ بأنها كانت من منازل قبيلة مُزَيْنَة . وتنتهي هذه السلسلة غرباً إلى وادي الفريش ^١ ، وشرقاً إلى مفرق الطرق المعروف

(*) نشر هذا البحث في المحرم ١٣٥٦ هـ - مارس ١٩٣٧ م ، بالعدد الثاني من مجلة « المنهل » ، وكانت هذه الرحلة القصيرة مع بعض الأصدقاء ، فقد قمنا من المدينة المنورة بعد صلاة العشاء ممتطين سيارة كبيرة ، ووصلنا في الليلة نفسها إلى محطة الفريش وبتنا بها وفي الصباح أجمعنا أمرنا وتوجهنا صوب جبل عار وتجولنا فيه مدة حتى حمي وطيس الشمس فعدنا إلى المحطة .

١ وفي « وفاء الوفاء » ما نصه : « فرش ملل ، والفريش مصغره معروفان قرب ملل ، يفصل بينهما بطن واد يقال له مثر كان بهما منازل وعماثر ، وكان كثير بن العباس (الشاعر الحجازي المعروف) مقيماً في هذا الوادي » . وعلى هذا فالفرش هو الوادي الذي يقع بعد عار جنوباً ، المعروف الآن بالعاصد ، ومثر هو هذا الوادي الواقع في هذه الهضبات المعروف بمجموعها اليوم بجبل عار . وبهذه الهضبات كان منزل شاعرنا ، مع محبوبته إذ يقول (معجم البلدان ، ص ١٥٣ المجلد السادس) :

سقياً لعة خلة سقياً لها إذ نحن بالهضبات من أملا
قال ابن السكيت : « أملا ، هي ما يدعى اليوم جبل عار ذو الهواء النقي والتلاع الوفيرة والشباب الحصبة الجميلة .

اليوم بالعاصد . والاحمرار هو اللون الغالب على هذه الهضبات . .
وبداخلها في الجانب الشمالي من الطريق فتحة واسعة في وسطها مهراس^١
عميق ، وجدناه مملوءاً بالمياه المتحدرة اليه من أعالي الجبل . ويستقي
منه البادية هناك^٢ .. وبشرق المهراس قاع^٣ أفيح ، فيه منازل مبنية
بالحجر والطين ، بناية في غاية البساطة ، ولا يزال من فيها يدعونها
بالخيام . وبجنوبه وشرقه صخور أثرية منقورة بالمسار على طريقة العرب
الأولين ، وهي بالخط الكوفي القديم ، وقد ذهلت عن المهراس ومائه
العذب النمر على رغم اشتداد الظمأ بي ، بسبب عثوري على هذه
الآثار التاريخية في هذه القطعة المتروية عن الأنظار .. وتملكني الدهشة
من روعة هذا الخط المنقور منذ مئات السنين على هذه الصخور ،
وعجبت من ضخامة حروفه وانتظام تركيبه وخلوده واحتماله لعوادي
الأيام ، وتقلبات الأجواء ، وقسوة الحر والبرد ، فليلة أيد نقشته ،
ولله أنامل رَسَمَتَهُ .

وقفتُ مع بعض الإخوان بُرْهَةً ، أمام كل واحدة من هذه
الصخور ، أحاول قراءة ما احتوته من هذه الخطوط المتداخلة المشتبكة
المهملة من التنقيط ، وبعد تدقيق عميق وامعان شديد ومقارنة دقيقة ،
استطعت أن أقرأ منها ما يلي :

(اللهم ثبت عبد العزيز بن المعتز بن عمر بن عبد)
(اللهم أعتق محمد بن عبد بن عبد الرحمن برحمتك ولا ...)
(اللهم صل على محمد النبي عبدك ورسولك و سعيد بن عمر
وموسى الله الجنة) .

١ المهراس : هو النقرة في الجبل ، تجتمع فيها المياه .

٢ لعله ماء العشيرة الذي يقول فيه كثير عزة :

أحزناً على ماء العشيرة والهوى على ملل يا لطف نفسي على ملل

(انا عبد الله بن سعد المرتضى)

(لا اله إلا الله وحده)

(اللهم صلي على محمد النبي عبدك ورسولك)

(الله لم يلد ولم يولد شهد الله وملائكته أن الله لا إله إلا هو العزيز الحميد) .

(وعلى ذلك شهد يوسف ومحمد في خمس وثمانين وخمسمائة)^١ .

وهناك كتابات أخرى كثيرة ، بدأ بعضها في الانطاس بسبب الأمطار والمؤثرات الطبَّعيَّة ، والبعض لا يزال ظاهراً ،

وتشابهُ أشكال هذه الخطوط ، واتفاق كاتبيها على عدم تنقيطها ، واختلافها في دقة الرسم وجمال الحروف كل ذلك يجعلنا نرى أنها كُتِبَتْ في القرون الإسلامية الأوَّل ، وأحدثها عهداً بينها ما كُتِبَ في عام ٥٨٥ هـ لأنه أجملها وأظهرها جيِّدةً ورونقاً .

أما ما نستنتجه من هذه الخطوط فهو أمران :

الأول : اشتهار هذا المهراس في تلك العصور بسبب عمران هذا الجبل بالقُطَّان والرَّواد والمتزهين^٢ .

الثاني : عناية الناس بهذه الصَّخَرَات العظيمة الملساء المصقولة ، بنقش أسماهم ودعواتهم لأنفسهم ، وصلواتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، عليها .. ومن هذا يُفهم أنها مأثورة في أنظارهم . ولا نزال

١ من الملاحظ هنا أن هذه الخطوط العربية الأثرية مع قدمها - إذ هي أو بعضها منقورة على الصخور في القرن الهجري السادس - هي أحدث عهداً من النقوش التي نقرت على صخور الصويدرة كما سيأتي في الفصل التالي لهذا الفصل .

٢ كما سبق فإن هذا الجبل كان منزل كثير الشاعر وحبيبته عزة ، وقد كان عامراً ، وهو أمر يدل على أنه كان معموراً بالسكان ومرافق الحياة الملائمة .

نرى كثيراً من المسلمين إلى يوم الناس هذا يكتبون نحواً مما ذكر على جدران المساجد المأثورة والأماكن المقدسة .

لقد نَقَبْتُ في الأسفار التاريخية ، عليها تتعرض ، ولو بإشارة عابرة ، لذكر هذا المكان وهذه الصخور ، وهذه النقوش ، فما عثرت إلا على قول ياقوت الحموي في معجمه (م ٦ ، ص ٢٦٠) : « الفرش واد بين غميس الحمائم ومَلَكَلٍ . وفرشٌ وصُخَيْرَات الثمام كلها منازل نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى بدر » اهـ . فلعل هذه الصخيرات هي صخورات الثمام التي أشار إليها ياقوت ، بالنظر لما سبقت إليه الإشارة آنفاً . وقد يكون التصغير للتعظيم .

وليس هذا الغموض الملاحظ في حقيقة هذا الموقع بمقصود عليه وحده ، فهذا شأن أغلب الأماكن المأثورة في الجزيرة العربية عامة ، والأماكن التي يحلها البادية منها خاصة ، لا يَحْتَفِلُ المؤرخون بتحديداتها تحديداً علمياً يحفظ كيانها من الجهالة في العصور التي بتلي عصورهم : قُصُورُ ملموس في تاريخ الجزيرة العربية يجب أن نسعى سعياً حثيثاً لتلافيه ، وثلمةٌ واسعة في حضارة الجزيرة الإسلامية ، يجب أن نعمل على سدها . ويلوح لنا أن للمؤرخين الأقدمين بعض العذر في عدم تحقيقهم لهذه الآثار المنتشرة في جبال الحجاز وأوديته : فاختلالُ الأمن ، واضطراب حبل الطمأنينة ، اللذان كانا يسودان أماكن الآثار لقد وَضَعَا عراقيل قوية في سبيل الباحثين والمنقبين والرحالين والعلماء والأدباء ، يضاف إلى ذلك جَهْلُ سكان هذه البقاع من البادية وعدم اتصالهم بأهل العلم ، ونفورهم من هذا الاتصال بهم في كل عصر ومصر . أما وقد زالت العقبة الأولى - وهي كبرى العقبات - بفضل شمول الأمن في هذا العهد ، فإني أرى حسناً أن تُؤَلَّفَ (بَعَثَاتٌ أثرية) من أساتذة المدارس ، حكومية وأهلية ، شهراً من كل عام ،

وتكون هذه البعثات تحت إشراف مديرية المعارف العامة ويضم إليها فريق من الأدباء الممتازين ، والكتاب المحققين ، وتتجول هذه البعثات في كل الأماكن المظنون أن بها آثاراً تاريخية هامة ، مسترشدة في تجوالها وأبحاثها بمؤلفات المؤرخين الذين كتبوا في تقويم البلدان وتعريف المواقع التاريخية ، كصفة جزيرة العرب للهمداني ، وكمعجم البلدان لياقوت وخلافهما ، من مراجع التاريخ العربي التي تُعنى بالبحث عن منازل العرب والمواضع الأثرية فيها . ويكون لهذه البعثات نظام دقيق في التدوين ، حاملة معها آلات التصوير ، راسمة بها ما ترى رسمه مفيداً . وبعد استكمالها لهذه الحلقة المهمة من البحث والاستقصاء ، تعقد اجتماعات متوالية ، وتضم إليها من ترى انضمامه لازماً وناجماً . وفي هذه الاجتماعات تُدَوَّنُ خلاصة أبحاثها ودراساتها وملاحظاتها وآرائها فيما درسته ، وتخرج من ذلك أسفاراً تاريخية جلييلة الأسلوب ، واضحة التراكيب علمية جامعة شائقة .

وما أُلِف بالطريقة المدرسية يقرر في المدارس ليعلم النشء الحديث من تاريخ بلاده الذهبي ، ما جهله من تقدموه ، وما أُلِف بالصفة العلمية يستنير به الباحثون وطلاب العلم في داخل البلاد وخارجها .

بعد أن تجولنا هنيهة حول المهراس والصخور الأثرية ، صعدنا إلى الجبل فراغتنا هذه الأعشاب البرية الزاهية الألوان المفتحة الأزهار الفواحة النوار . وأعجبتنا هذه الأشجار المورقة المتلاصقة المصطفة بجوانب التلاع ومجاري المياه ، كأنما تُنسقت تنسيقاً فنياً بديعاً لتجذب بانتظامها الأنظار ، وراعنا هذا النسيمُ الطلقُ الذي ينشر أريدته الفضفاضة على فروع الأشجار المتراسة ، فينعشها ويرسل لنا من أريجها ما يُنعشنا ويُدْهِبُ عنا وعناء التعب . ويحول بيننا وبين هذا الشرر الملتهب المتطاير من أتون ذكاء .

ومن أهم ما شاهدته بهذا الجبل شجرُ البَيْلَسَم المعروف عندنا باسم (البَيْلَسَان) . ووصف هذا الشجر - كما شاهدناه ، أنه شجر ليس بالكبير ولا الصغير ، ورقه دقيق صغير جداً ، يشبه من حيث الشكل لا الحجم ، ورق شجر السدر ، وورق النبات المعروف هنا بالشذاب وإذا جُرِحَتْ شجرةُ البَلَسَم أو كُسِرَتْ ، تقاطرت المادة الصمغية من الموضع المجروح أو المكسور تقاطراً بطيئاً متوالياً . وتفوح رائحة البَلَسَم من الشجر ومن ورقه وغصونه على السواء . وفي جبل (عار) معدن الرخام ولكنه ليس بذلك الرخام الأبيض الجميل .. إن لونه مشوب بصفرة ، وفيه عروق سود كثيرة ، وقد عثرنا على هذا المعدن على مقربة من المهراس في الجهة الجنوبية بالنسبة له .

ومما استرعى أنظارنا في عار ، شَجِيْرَةٌ رائعة الجمال اللوني والشكلي معاً ، ولها ساق قوية كعمود المرمر النقيّ البياض ، وتقوم فوق هذه الساق كتلة من الزهر إثمديّة اللون ، متجمعة من زهرات من هذا اللون . وقد راعني منظر هذه الشجيرة الغريبة لأول وهلة ، إذ كدت إخال أنها قطعة من الديباج الأحمر ، شُدت فوق هذه الساق بوضع هندسي محكم جذاب ، أو أنها كِمْمَةٌ (طاقية) شديدة الاحمرار ، ضاربٌ احمرارها إلى السواد - وقد وُضِعَتْ فوق رأس هذه الشجيرة لتحميها من وهج الشمس ، وتأثير تيار أشعتها القوي هنا . ولكن بمجرد وصولي إليها فهمت كل شيء .. وقد ورد في « تاج العروس » : « والغلي كسكري شجرة مرة يدبغ بها وإذا أطمع ثمرها السباع قتلها قال أبو وجزة : (كأنها غلي من الرخم تدف) .

وكنت سألت دليلنا الأعرابي عن اسم هذه الشجيرة وعن سرّها . وخطر ببالي قبيل توجيه هذا السؤال إليه ، أن لهذه الشجيرة سراً ، وأنها لم تَسُدْ بهذا الشكل الجذاب اللطيف البالغ في الجمال أقصى حدوده إلا

لاحتوائها على خطر خفيّ .. وإذَنْ هي سامة ، وشافهت بعض الإخوان بهذا الرأي ، قبيل إلْقائي السؤال على الدليل البدويّ ، فلما سألتُه أجبني بأن اسمها في عرفهم هو (الغُلِّيّ) ^١ - بغين معجمة ولام مضمومتين وثناء مكسورة بعدها ياء - . وقال : لأنها من الأشجار السامة ، وهم يضعونها مع قطعة لحم أو خبز لما يريدون قتله من السباع المفترسة . وبمجرد ابتلاعها تَخِرُّ ميتة ... وهكذا تحققتُ فراستي لإزاء هذه الشجرة الغريبة . وشجرة الغُلِّيّ هذه شبيهة الشكل بالصَّبَّار المعروف ، فيما عدا زهرها الموصوف . فهذا الزهر لثَمِدِيّ اللون ، مكون من عدة زهرات مخمسة الأضلاع ، في وسط كل واحدة منها ، نوارٌ صغير ، ناصع البياض ، يبدو ، لشدة بياضه وسواد ما حواله ، ذا بَرِيقٍ وتوهج ، كالنجم الساطع في السماء ، في ليلة ظلماء .

ويحكى في هيئته وصفه ، عِيُونُ العناكب ، وفي بريقه ، الألباس الأبيض . وقد لاحظنا تَجَمُّعَ الذباب على هذه العيون خاصة ، ففهمنا بطريقة الاستنتاج ، أن طعمها حُلُوٌّ ، لأنّ الذباب لا يتجمع عادة إلا على ما كان من هذا القبيل . وهكذا يندس السم في العسل ، والله في خلقه أسرار وشؤون .

١ في كتاب « الروض الأنف » شرح سيرة ابن هشام ، وصف لشجرة الرامة : « قال أبو حنيفة : الرامة من أغلات الشجر . » ص ٤ ، ج ٢ ، طبع مطبعة الجالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م واذن فقد حرف اسم الشجرة وبقي اسمها مع تحريفه لها حتى الآن .

الصويدة وادي الآثار الجميل أو الخلاء الذي أصبح مدينة عامرة

تمهيد :

كم ديار كانت مقاصير عمرا
نِ ، وقد أصبحت طُلُولا قواء
ثم عادت ربعا فربعا فكانت
كل جرداء روضة غنّاء
عبد المحسن الكاظمي

منذ رحلتُ إلى الصويدة في عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، ما زالت
تحولك في صدري رغبةً شديدة وعميقة ، إلى تكرار هذه الزيارة مرة
أخرى ، لاستيفاء دراسة الآثار الموجودة بها ، وتصويرها ، بالآلة
المُصَوِّرة ، إذ لم تكن لديّ هذه الآلة المصورة في رحلتي الأولى إلى
الصويدة .

وقد يسر الله تحقيق الحُلُم القديم .. بعد ثلث قرن . وكان ذلك
في يوم عيد الأضحى من عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .

وقد امتطيتُ سيارتي (البونتيك) واتجهتُ إلى الصويدة . وكانت الساعة إذ ذاك تشير إلى الخامسة والرّبع قبيل الظهر حسب التوقيت العربي للمدينة المنورة من يوم السبت الموافق ١٠ ذي الحجة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨ م . وانسابت بنا السيارة ناحرة صوب مشرق الشمس ، فكانت أشعة الشمس تسقط سقوطاً قريباً من العموديّ على أعلى جباهنا . وكنتُ في نشوة غامرة بهذه الرحلة الممتعة التي حقق الله بها أمنية طالما تحركتُ بين جوانحي . ومع ذلك كنت أحس بشيء من القلق .. إذ لا « دليل » من الاعراب ، معنا ، يقوم بإرشادنا إلى الطريق السويّ في هذه « الحلقة » الملقاة في فلاة جرداء .. على ما كنت أخبر .. ومع ذلك فلن العزم المصمم كان رائدنا في هذا السّفر « الأثري » المنشود .

وقد مضت السيارة في انسيابها السريع الهادئ على الإسفلت ، إلى ما وراء المطار بقليل ، وحاذينا العاقول ، وانقطع عنا الاسفلت الأملس الجميل .. ودخلنا في « حَزَن » مليء بالحجارة ، ولا بدّ للسيارة من اختراقه .. وقد شعرنا بآثار إعلان الحرب بين عجلات السيارة وجهازها السّقليّ من ناحية ، وبين حجارة الطريق من ناحية أخرى . فالعجلات تطفأ أكوام الحجارة في طريقها غير المعبد ، وتتأثر الحجارة بهذا التلاحم الشديد الضاغظ عليها فترتفع عمودياً وتضرب جملة وفرادى « بطن » السيارة وأجهزتها الدّنيا .. التي فيها وعاء النفط ووعاء الزيت معاً . وأشدّ ما كنا نخشاه حينئذ أن يصيب طلقٌ حجري قوي نافذ ، أحد هذين أثناء صدامها مع الأرض فيعوقنا ذلك ، ويعطل سيارتنا عن المسير إلى الهدف المقصود .. لقد كانت ملحمة صارخة طويلة المدى ، لم تقف رحاها عن الدوران والطحن ، حتّى وصلنا الصويدة بعد التّيع . وكانت السيارة كثيراً ما تضطر إلى أن تزحف على « بطنها » فوق تلال الحجارة الواقفة لها بالمرصاد .. فيحدث زئير مزدوج .. ينشأ جانبه الأول والأخير من احتكاك « حديد السيارة » بجدار الحجارة

الصغرى والوسطى والكبرى .. ويُحدث هذا كله « رَدَّ فعل » في نفوسنا .
ولكن الله لطف بنا ، فلم تتوقف السيارة ، ولم يُخَرَّقْ وعاء النفط ولا وعاء
الزيت في مسيرتنا إلى الصويدة .. في هذا الطريق « الْجَمَلِيَّ »^١
الذي قلده السيارات وخلفته في المسير به ، وحاله على ما كان عليه منذ
عهد مطايا الجبال والدواب .

وفي أثناء سيرنا طالعتُ في ساعتي فإذا بها تشير إلى السادسة والرَّبع .
وإذن فلقد تابعنا السير في هذا الطريق البدائي الوعر ، ساعة كاملة
ولمَّا نَبَلُّغِ الصويدة .. وكنا نتلوى ونصعد ونهبط باستمرار تبعاً
لتلوي الخط غير المعبّد وصعوده وهبوطه ، وكانت الجبال المتوسطة
والشامخة تُضَيِّقُ علينا الخناق كلما أمعنا في السير .. وقد علّت
الشمس ، وتوسّطت كبد السماء ، وبدأت ترسل أشعتها الحادة الحارة
إلينا . وكنا نسير بغير دليل وقد دَاخَلْنَا شَيْءً من التردد بين الإقدام
والإحجام ، ولكننا تغلبنا على هواجس الضمير ووهم الفكر ، وجزع
النفس ، وحيرة الفرّاد .. فمضينا إلى الأمام .. مترقبين بكل احساسنا
ومشاعرنا رؤية مشارف الصويدة أو العثور على مرشد لنا إليها على الأقل
وإذا بنا نقف بجانب « مُعسكر » - كَمَسَب - أقامته شركة (كات)
المتولية لأمر لإصلاح هذا الطريق وسفلته بين المدينة والقصيم ، وقد
تطلعنا ملياً لعلنا نرى لإنسيّاً في المعسكر يهديننا سواء السبيل إلى الصويدة
وقد لمحنا شبحين يتحركان من بعيد بين خيام المعسكر وتحت وهج
الشمس ، فسررنا بهذه المفاجأة وترجلنا من السيارة .. وأقبل الشبحان
إلينا ، فإذا هما حارسان من حرس هذه المعسكرات ، وقد طلبنا من
أحدهما - سعيد بن حمّاد العُجماني - أن يرافقنا في طريق

١ نسبة إلى الجبل لأنه هو الذي كان واسطة المواصلات قبل عهد السيارات والطائرات وكان يسمى
بحق « سفينة الصحراء » .

الصويدرة .. فوافق بعد شيء كبير من التردد .. وفاجأنا بأن الطريق ما يزال طويلاً أماناً ، وشاقاً ، ومرهقاً . وأضاف إلى ذلك أنه لولا خوفه الضياع علينا في هذه الصحراء المضيئة ما كان يرافقنا .. وقد شكرناه .. وكان رجلاً صموتاً هادئاً .. لم يرهقنا بثثرة لسانه ، ولا بعنجهية جلجلانه^١ ، ولم ينس بينت شفة الهم إلا بالكلمات الأولى المذكورة آنفاً التي أطلقها من عقابها ، أو عقاله ، عن إخلاص وتقدير للموقف ...

وقد صدق الرجل .. فيما قاله لنا ، حيال بُعد الصويدرة عنا .. فقد أدركنا أن المعسكر الذي أخذناه منه للمرافقة والإرشاد ، كان بينه وبين الصويدرة نحو ثلاثين كيلومتراً ، كلها مسحجراً عنيفاً وخيف يرهق اجتيازه السيارة ، ويحيل الكيلومتر الواحد إلى كيلومترات مضاعفة بالنسبة لوعورته ، وصعوبة قطعه ، وأخذنا أمداً مديداً من الزمن ..

وفي أثناء سيرنا من بُعد المعسكر ضاقت منا الصدور وبدأت أشباح اليأس من الوصول إلى الصويدرة بهذه السيارة الصغيرة الواطئة ، بدأت تلك الأشباح السلبيه تراقص أماناً في كل لحظة ومكان ، كما تراقص النجّان في هذه الفلوات في أساطير الأزمان الخالية .

وبعد أن تعبنا ودأخلنا من الرهق الكثير ، أشار الدليل الصموت الهادئ ، إلى جبل حرّي ممتد أماناً من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي .. متعرج في التفافه كالأنفى الأسود البسراق .. وقال لنا : إنه وادي الصويدرة الذي نقصده .

على مشارف الصويدرة :

وقد انحدرت بنا السيارة المزججة ، في وهدة منخفضة جداً كالخندق

١ الججلان : هو القلب .

العميق تقريباً ، وأفضت بنا هذه الوهدة إلى وادي الصويدرة الذي مازالت صورته هذه مرتسمة في تلافيف دماغ كاتب هذه السطور منذ ثلاث قرن .

وكنْتُ أعرف « الصويدرة » فلاة خالية مجردة من أي أثر للحركة أو الحياة .. وليس فيها ، حينما رأيتها لأول وهلة ، سوى بضعة شجيرات دَومٍ متعاقبة ، ومتناثرة ، كُلهُ ثلاث أو أربع مع بعض .. كأنما كانت تستأنس بهذه المعانقة من هذه الوحشة الرهيبة التي تحيط بها من كل جانب .. وكانت هناك نُخيلات متفرقة لا ندرى من غرسها هنا ، وهي تقوم قريباً من جبل الصويدرة الحَرِّيِّ ، وقريباً من مسيل واديه الملتوي الكبير .. وقد دلنا البدوي الذي كان رفيق رحلتنا الأولى^١ إلى أن أرض وادي الصويدرة ذات أحساء .. فأين ما نَبَّشْتَ بيدك الأرض وجدت ماءً عذباً نيراً .

كذلك كنت أعهد الصويدرة .. وكذلك وصَفْتُها في رحلتي الأولى إليها .. فيما قبل ثلاث وثلاثين سنة .. فأما اليوم فان شجيرات الدوم الصغيرة المتعاقبة والمتناثرة قد تَنَمَّوْنَ وكبرن وصرن أشجاراً فارعة القامة طويلة الغصون .

وحيثما قرت عيوننا وهذأت خواطرنا ببلوغنا وادي الصويدرة ، كان أول ما رأينا القيام به أن نملأ وعاء سيارتنا الفارغ من مادة النفط ، من المحطة التي لا تزال بدائية بالصويدرة^٢ .

١ بسنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .

٢ هي الآن سقيفة من الصفيح ، بها وبجانبها براميل مملوءة بالنفط الذي تزود به السيارات بأن يوضع في داخلها أنبوبة من اللدائن وتحتها صفيحة يصب فيها النفط حتى تمتلئ ومن ثم يملأ به وعاء النفط بالسيارة على الطريقة البدائية التي عرفناها في المحطات بين مكة وجدة والمدينة قبل تطور محطات النفط الى حالها الحاضر .

في بلدة الصويدرة :

وكان أول ما لفت نظري ، هذه البلدة الصغيرة التي وُلِدْتُ بالصويدرة بعد عهد قدومي الأول إليها لاحقاً .. لقد كان شيئاً مدهشاً ورائعاً أن تُبنى مدينة ذات مرافق حديثة في هذه التنوفة التي كنت جئت إليها قبل ثلث قرن ، وكانت كلها جرداء يلفها سكون عميق ، كما يلف سائر الصحراء المحيطة بها من كل جانب .

ومن يُدرينا ؟.. فلعل هذه الصحارى المائلة في هذه البلاد كانت في سالف الدهور العريقة القدم ، تموج بالحضارة والزراعة والصناعة والتجارة .. ثم لُفها عامل الحفاف ، فإذا هي بعد ذلك تستحيل كما رأيناها ونراها ، جرداء ظمياء .. بكاء عجفاء موحشة ..

ومن يدري ، فلعل هذه الصويدرة ، وهي جزء من هذه الصحراء المخيفة ، لعلها كانت في عهد من العهود الخوالي مدينة متحضرة راقية تحتوي على كل مرافق الحياة الرافهة .

وكما يشقى الإنسان ويسعد في مختلف فترات حياته .. كذلك شأن البلاد والأرضين .. تتعاورها عوامل الشقاء والسعادة في فترات تاريخها الطويل .

ولا ريب في أن انبعاث هذه البلدة الصغيرة الحميلة ذات المرافق الحديثة من مدرسة ابتدائية لأطفالها ، ومستوصف لمرضاها ، وخزان ماء مُعْتَمَلٍ يصل إليه الماء من عميق آبارها بوساطة مضخة حديثة مركبة عليها وذات المحطة النفطية البدائية ، والدكاكين والبيوت الطينية المشينة ، والصفحية البراقة — لا ريب في أن هذا كله هو من آثار التطور الشامل الحثيث الذي تسير في فلكه هذه البلاد قُدُماً ، نحو قمة الازدهار. وهكذا تشاهد اليوم الصحارى الجرد الموحشة أثناء القرون العديدة الخالية تتحول تدريجياً

إلى مدن وقرى وريف .. وهذا يستتبع بطبيعة الحال تحوّل أبناء
البادية وتطورهم أيضاً إلى حضريّ مقيمين ، ينشدون الاستقرار وينعمون
به .. وينشدون الرقيّ العلميّ ويحظون به . ولقد ذكرني مشهد الصويدة
الحاليّ بقصة أسطورية كنت قرأتها في بعض الكتب . تقول القصة :
إن الخضر الذي وهب حياة الخلود المديدة في هذه الدنيا
مر في إحدى سياحاته العالمية على مدينة كانت حاضرة البحر عامرة
تموج بالسكان وبسائر مرافق الحياة الرافهة السعيدة الهانئة .. وبعد ألف
عام مرّ بمكانها مرة ثانية ، فإذا هو بلقح خال من كل معاني الحياة
حتى لكأنّ لم تمض عليها فترة عمران أثيل .. وبعد ألف عام ثالثة مرّ
بالمكان ذاته مرة ثالثة وقد عادت الحياة إليه فعاد مدينة ضخمة كما
كانت قبل ألفي عام ، تموج بالحركة والنماء وبالسكان ، والسعادة الوارفة
من جديد .

* * *

والصويدة واد مستطيل يأني من الجهة الجنوبية الغربية ، ممتدّاً إلى
هذا المكان الذي عرف في وقت سابق نجمه باسم الصويدة .. وبجانب
وادي الصويدة خبّئت مرتفع عنه بعض الشيء ، به أقيمت « بلدة
الصويدة » الجديدة . وحينما تكاثر السكان بها اضطروا إلى حفر الآبار
العميقة بالوادي ، لتأمين سقيهم وريّ مزارعهم التي بها النخيل
والخضراوات والفواكه .. وقد أقاموا خزان ماء الريّ بمنصف علو
جبل الصويدة المليء بالآثار الذي يقع إلى الغرب عن بلدتهم المولودة
حديثاً .. على أيدي هؤلاء الماهدين من أبناء البادية ، ومن انضم إليهم .
وقد حدثني أحدهم — سعيّد العجمي — نسبة إلى قبيلة العجمان ،
بأن تعداد سكان بلدة الصويدة الآن : آخر شهر من سنة ١٣٨٧ هـ —
١٩٦٨ م ، هو نحو مائة شخص ما بين رجل وامرأة وطفل وطفلة .

ولها أمير اسمه مرزوق السُّحيمي . وكما قلنا فقد بنت الحكومة لأطفالهم مدرسة ، ولمرضاهم مستوصفاً . وبها محطة نفط بدائية ومقاهٍ . وبناء البلدة من مادة طينها ، ومن الصفيح ، ودورها من دَوْرٍ واحد .. وبها دكاكين ..

واختراق طريق المدينة - القصيم - المسفلت لبلدة الصويدرة أعتقد انه عامل مهم في الإسراع بها إلى التطور والنمو في السكان ، وفي العمران ، على السواء .. لا سيما إذا استغلوا هذا الاتصال الدائم بين البلدين خير استغلال ، فأقاموا استراحات ، ومقاهي حديثة وفنادق صغيرة لتزول المسافرين ، ومطاعم كذلك .

* * *

هذا وبعد اطمئناننا إلى نجاح قضية ملء وعاء السيارة بالنفط هدأ البال ، لأن هذا النفط هو « وسيلة » حركة المستقبل ، بالنسبة لرحلة الإياب الوشيكة إلى المدينة . وعندئذ تَلَقَّتْ فرأيت من حولنا بعض أهل الصويدرة ، جاءوا يرحبون بمقدمنا .. فقد أخبرهم زميلهم المرافق لنا ، بنا ، وقد ألحوا في أن نذهب معهم إلى مضافتهم فيذبحوا لنا الذبائح ويصنعوا لنا القهوة والشاي ، ونرتاح عندهم إلى قريب من الليل .. فوعدناهم وعداً سطحياً غير جازم .. وقلت لهم : ان المهمة التي حضرتُ إلى هنا من أجلها هي أخذ صور لنقوش الصويدرة .. وهي كثيرة .. ونخشى أن تميل الشمس كثيراً إلى الغروب ، فيتعذر أخذ الصور بالآلة المصورة . واننا نلرجو أن تسمحوا لنا بالاياب الآن ، فالوقت ضيق .. وعندما يتم رصف طريق الصويدرة بالاسفلت وبسهل الوصول إلى بلدكم الناشئ الجميل ، عندئذ سنحضر اليكم إن شاء الله ونقيلُ لديكم ، ونأكل ذبائحكم السمينة ، ونشرب قهوتكم العربية وشاهيكم المنعنع ، براحة وهناة ... وبعد التأكيد بذلك قبلوا منا العذر على

مضض .. وأقبلنا أنا ومسعود قاضي ، وسائق السيارة نمشي على الأقدام إلى الجبل ، فقد مللنا ركوب السيارة وعانينا منها المتاعب ، وتَحَصَّصَتْ منا الحسوم خضاً كارباً ، وصكَّتْ آذاننا صكاً بزجرتها ويهدبرها وبوقع حوادث معركتها الرهيبة مع جماهير حجارة الطريق المتربصة لها ولثيلائها إذا سرن في هذه التنوفة الخاوية ..

تقديرات علمية :

هذا ويبدو لي من كثرة النقوش وجعلها وعمقتها بهذا الجبل ، ما بين خطوط ثمودية وعربية ، وبين صور حيوان أليف ومتوحش - يبدو لي من كل هذا أنه قد كان للصويدة هذه ، شأن مجهول لدينا الآن ، ويدلنا على طَرَفٍ من هذا الشأن معرفة اسمها والاحتفاظ به وبموقعها حتى صدر الإسلام ، فهي فيما يبدو لي (الترة) التي وصل إليها بعض الصحابة في معركة أُحُد . ويترآى لي ، أنها كانت مدينة معروفة مقصودة من البلاد .. وقد عُمِّرَتْ في عهد الجاهلية بدليل هذا الخط الثمودي الذي نقر على بعض صخورها ^١ ، كما عمرت في عهد الإسلام ، وبالتحديد في أواخر القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث ، بدليل هذه النقوش الخطية التي تنطق بنقورها في هذا التاريخ أو قريباً منه ^٢ ، ولربما كانت تكون بها حدائق غناء ومراتع ظباء ، وليالي سَمَرٍ في أضواء القمر ، وكثيراً ما ينتقل إليها الناس ومنها بالجمال ، بدليل نقش صورها فيها ^٣ ، وبها وحواليها كان كثير من الحيوان المفترس وغير

١ ستأتي في هذا الفصل صورته ومثاله .

٢ لها صور وأمثلة في هذا الفصل .. تأتي فيما بعد .

٣ في هذا الفصل .

المفترس .. بدليل هذه الطباء ذوات القرون الكبيرة المعقوفة المنقورة على صخورها^١ ، وبدليل هذا الاسد المنقورة صورته على أحد صخور جبالها^٢ .

ولربما لو أُجْرِيَ بها حفر أثري علمي ، لتكشفت لنا أعماق أرضها عن مدينة زاهرة وأثاث ورياش ونقوش وأدوات من حديد ونحاس وعن ذهب وفضة ، مما كانوا يتعاملون به .. كما أنه من الممكن أيضاً أن نعرّ كذلك على هياكل وجثث وأحداث لسكانها وروّادها القدامى .

وكل هذا رهن بمجهود دائرة الآثار التابعة لوزارة المعارف ، إلى جانب إسهام جامعة الرياض في قسمها الأثري في هذه المهمة العلمية الأثرية .

دراسة الآثار بالصويدة :

وبعد فهذه إلمامة عن دراسة الآثار بالصويدة ، دراسة أعمق مما سبق وأدق .

١ - الآثار الخطية :

ولإليك قائمة الصور الحيوانية والإنسانية ، والنقوش الكتابية المنقورة في صخور جبل الصويدة ، التي أخذتُ بعضها بالآلة المصورة ، وبعضها باليد من كتب ، وهي صور مطابقة تماماً لأصولها المنقورة بالجبل .

١ أخذنا صورها بالآلة المصورة وستأتي في هذا الباب .

٢ له صورة فتوغرافية سنأتي في هذا الفصل .

وها نحن أولاء نبدأ بأقدم النقوش الكتابية . وأقدم هذه التدوينات
الأثرية ، هو النقش الثمودي القديم التالية صورته .



النقش الثمودي في جبل الآثار بالصويدرة

وقد نُقِشَ هذا الأثر الممغن في القدم على صخرة كبيرة تقع
فوق منتصف الجبل بالنسبة لارتفاعه ، في نقطة غير بعيدة من فم
الوادي الذي يخترقه طريق المدينة - القصيم .. وهذا النقش هو أقدم
نقش هنا . ونعتقد أنه ثمودي^١ لمشابهته في الحروف ، لنقش وادي بويب
القريب من جدة .. ويدل على أن ثموداً كانت تقيم هنا أيضاً ، أقامت

١ أيد هذه النظرية الدكتور عبد الرحمن الأنصاري المتخصص بعلم الآثار والمدرس بجامعة الرياض
كما سيأتي ، في نفس هذا البحث .

فيه بهذه الديار ، عقب نزوحها الجبري من الجنوب العربي مباشرة
أو بعده بأزمان .

ومما هو جدير بالذكر أنني كنتُ قد عرضتُ هذا النقش الكتابي
على عبد الله (فليبي) سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م . وبعد أن قام بدراسته
أفادني بما نصه :

« إن هذه الحروف قديمة جداً ، وهي من نوع غريب ، ومتداخل
فيها بعض الخطوط القديمة ، وعلى كل فهي إما أن تكون ثمودية ، أو
من الخط العربي القديم ، أو العبراني القديم ، أو الفينيقي . وعلى كل
فالأربعة من أصل واحد . والأرجح عندي أنها من العربي القديم .
وأرجح أنها أسماء لأشخاص كانوا نزلوا في المحل الموجودة به في
الحقب الخوالي . وهي تقرأ كالخطوط السامية من اليمين إلى الشمال » .
وهذا حلها في نظره :

هت ل ودل ودد ز هت ز م م

ز ش م ل ع ت ي ش ل

وهذا تركيبها :

(هت ل . ودل . بداد . زهت . زمام . شرح عيشل) . ولكن
(فليبي) لم يفسر لنا معاني هذه الكلمات ولم يبين عنها شيئاً في
جواهرها ، ومدى صلتها بالعربية الفصحى التي نعرفها .. لقد اكتفى
بما ذكره آنفاً .

وقد كان جوابه هذا في سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، كما ذكرنا آنفاً .

هذا ومن دراستي لهذا النقش ، بالنسبة لذاته ، توصلت إلى ما يأتي :

أولاً — إن حروف هذا النقش كلها فرادى منفصلة عن بعضها كما شاهدناه في خط المسند والخط الفينيقي والخط الهيروغليفي ، وأخيراً الخطوط الافرنجية التي هي امتداد للخط اللاتيني الذي هو امتداد للخط الفينيقي .

ثانياً — يتكون كامل النقش من ثلاثة أسطر ، منظمة التكوين منسجمة متساوية في ابتداءاتها .

ثالثاً — وهناك خمسة أحرف انفردت بمكانها في آخر السطرين الثاني والثالث . وربما يُكوّنَان توقيع المُؤثِّقِ أو كاتب النقش ، ر غير ذلك على ما كنتُ رأيته وأيده الدكتور عبد الرحمن الانصاري في تحليله لهذا النقش وتفسيره له .

* * *

وكما سبق أن بيّنتُ ، فلإني قد كنت بعثت بهذا النقش مخطوطاً بيدي ، نقلاً حرفياً ومسطرياً عن النقوش التي بالجبل ، إلى الدكتور سليم حسن عالم الآثار بمصر ليقراه ، فلم يردني منه جواب ، فلربما يكون خطابي لم يصل إليه ، أو وصل إليه وشغل عنه بما هو أهم في نظره .

* * *

ولعل أقدم النقوش الكتابية ، بعد النقش الشمودي الموصوف آنفاً

هو ما تلي صورته :

اللهم طاب علي محمد
من ماحمك بن ما يورس
الأهوازي ومعه ولد
المطل بن ما يورس
خمس ومائة سنة

وقد قرأته هكذا : « اللهم صل على محمد من أحمد بن أيوب
الأهوازي ومعه ولد الفضيل بن إبراهيم سنة خمس ومائتين » .

وملاحظاتي على هذا النقش أنه ذو أهمية أثرية ، لأن ناقشه قد
أرّخه .. كما دَوّنَ فيه اسمه واسم أبيه ولقبه واسم بلده الأصلي
(الأهواز) فهو (أحمد بن أيوب الأهوازي) .. ولعله كان في
طريق الحج أو التجارة أو الزيارة أو الاستئناس بجو الصويدة الماتع ..
كما أفادنا بأن اسم رفيقه هو (ولد الفضيل بن إبراهيم) ونص لنا في
النقش على أنه نقره (سنة خمس ومائتين) .. أي في نصف العقد الأول من
القرن الهجري الثالث : ولا بد أن راقم هذا النقش اذن قد ولد في

١ في قراءتي الأولى له لم أتمكن من حله كله .. وقد تمكنت في قراءتي الثانية هذه من حله .

العقد الهجري الثاني .. وجاء هنا شاباً أو كهلاً أو شيخاً .. حيث خلد بخطه الكوفي الحميل الحالي من النقطة قصة قدومه مع رفيقه إلى هذا المكان .

ونحن نقش مضلع ، وفي أوائل وأواخر بعض حروفه زخرفة بسيطة لتجميله كما كنا رأيناه ودوناه في مماثله في الزخرفة : كخط شاهد مقبرة مدينة بني سليم المنشرة^١ .

* * *

وثالث النقوش الكتابية المهمة هو النقش التالية صورته :

اللاهـمـا عـر
لـطـهـور س
مار لـخـراسـا
مـولـر هـار مـو
لـمـر لـمـو
مـسـس

١ انظر فصل « قبيلة بني سليم » في هذا الكتاب .

وقد قرأت هذا النقش على النحو التالي :

(اللهم اغفر لطيفور بن باز الخراساني مولى هارون أمير المؤمنين)
ومعنى هذا ، أن راقمه كان قد عاش في عصر هارون الرشيد الخليفة
العباسي المولود سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م والذي استخلف سنة ١٧٠ هـ -
٧٨٦ م . ومات سنة ١٩٣ هـ - ٨٠٩ م . فالتقى على هذا مدون في
القرن الهجري (الثاني) أو أول الثالث ، وذلك لأن كاتبه بموجب نصه
هو مولى لهارون الرشيد . واسمه : (طيفور) . وأصله من (خراسان) :
فهو (خراساني) كما يقول عن نفسه .

وقد جاء ذكر أحمد (بن طيفور) في كتاب الأعلام للزركلي فقال
عنه : « أحمد بن طيفور أبي طاهر الخراساني ، أبو الفضل : مؤرخ
من الكتاب البالغ الرواة ، أصله من مرو الروذ ، ومولده ووفاته
ببغداد . كان مؤدب أطفال ، له نحو ٥٠ كتاباً ، منها « تاريخ بغداد »
طبع منه الجزء السادس .. إلى أن قال : وله شعر قليل أورد ياقوت
نبدأ لطيفة منه »^١ . ولأحمد هذا ابن اسمه عبيد الله وهو مؤرخ
خراساني الأصل ولد وتوفي ببغداد^٢ أيضاً . ويبدو لي أن طيفوراً
صاحب النقش وموضع البحث هو والد أحمد بن طيفور وجد عبيد الله
لأنهما خراسانيان وموطنهما بغداد ، وبغداد هي موطن خلافة هارون
الرشيد ، وقد يكون طيفور أدباً ولده أحمد في ظل عطف الخليفة
فصار مؤرخاً معروفاً ، كما أن ابنه أحمد أدب ابنه عبيد الله فصار
مؤرخاً مثله لبغداد والخلفاء العباسيين . ودعاء طيفور لنفسه بالمغفرة يدل
على أنه ذو دين وعقيدة طيبة وإيمان بالله عميق .. ولذلك طلب مغفرة
الله ، والله غفور رحيم .

١ الأعلام للزركلي ، م ١ ، ص ١٣٨ ، الطبعة الثانية بمصر .

٢ نفس المصدر والطبعة ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ .

وهذا والنقش كغيره من النقوش المثبتة هنا، منقور على صخرة ضخمة بركانية سوداء من صخورات هذا الجبل الحَرِّيِّ البراق .. ومُلاحَظٌ أن الكثير من هذه الصخور عرضة للتدحرج إلى الوادي لأن تماسكها مع بعضٍ وارتباطها بالأمِّ — التي هي الجبل — ضعيف واهن .. وهي ضخمة وارتفاع الجبل شبه عمودي .. فَدَحْرَجَتْهَا أو تَدَحْرُجُهَا أمرٌ سهل ومرتبب بين سنة وأخرى .. وقد رأينا بعض هذه الصخور وقد هبط بنفسه من عليائه ، بفعل انحلال الجبل وعمودية ارتفاعه ، ونزوء الصخور به ، حتى لكأنها بثور^١ وضعت هكذا لتزيلها يد الأيام ببسر وسهولة متى أراد الله .

وعلى هذا فلو عني بهذه الآثار المهمة وحفظت ثم نُقِلَتْ بِفَنِّيَّةٍ إلى (متحف) الصويدة المرتقب السذي نرى ضرورة إيجاد الصويدة ذاتها أسوة بمتحف كل بلد فيه آثار من هذه المملكة — كان في ذلك إنارة للتاريخ القديم ، وتنقل هذه الصخور الأثرية إلى متحف الصويدة بعد تنسيقها مع ما سيكتشف مستقبلاً إذا أُجريت الأحافير الأثرية بالصويدة ، ونود أن يتم ذلك قبل أن تكبر البلدة وتتسع .. فيعصب حينئذ إجراء هذه الحفريات بأبحاثها ، بالنظر لامتداد العمران وانتشار السكان في كل مكان من البلد .

ونَقِّشُ (طيفور) المشار إليه لا يخرج في قاعدته الكلية البارزة عن قاعدة نقش (أحمد بن أيوب) .. إلا أننا نلاحظ على نقش (طيفور) أنه مجرد من الزخرفة الفنية في أوائل حروفه وفي أواخرها ، بعكس نقش (أحمد بن أيوب) الموجودة فيه هذه الزخارف .

ونقش (طيفور) مكون من ستة أسطر ، متساوية الأطراف الأولى

١ أي دمايل .

والأخيرة .. باستثناء السطر الأخير منه : (مس) الذي جعله راقمه منفرداً ، مع انه يكون الجزء الأخير من كلمة واحدة هي ، (المؤمنين). ولست أدري باعث هذه التفرقة في الكلمة الواحدة مع أن المكان متسع لصمها إلى أولها : (المو) ...

* * *

وهناك نقش عربي قديم آخر ، هذه صورته :

أحمد بن عباس بن أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

وقد قرأته حسب ما يأتي :

(أحمد بن عباس بن أحمد يعتصم بالله الخالق الكريم) .

ولاحظت من دراستي لهذا النقش أموراً هي :

أولاً - إنه غير متسق السطور ولا متساويها ، ففيه فجوات وكلمات منفصلة عن بعضها بدون علمنا للسبب .

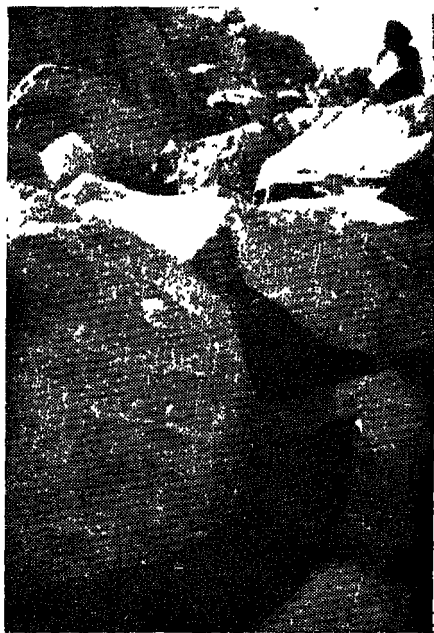
ثانياً - إنه يثبت همزة الوصل في كلمة (ابن) مع وجودها بين عَلمَين ، ومع انها ليست في أول السطر وهذا مما ينافي قاعدة الخط العربي التي نعرفها مدونة في الكتب .

ثالثاً - يشبه أسلوب هذا النقش في بساطته وفصاحته أسلوب نقش جبل سلع بالمدينة المنورة المذكور في فصله من هذا الكتاب .

فنقش (أحمد بن عباس) يقول لنا : (أحمد بن عباس بن أحمد
يعتصم بالله الخالق الكريم) ... ونقش جبل سلع يقول : (يقبل الله
عمر الله يعامل عمر بالمغفرة) ومن هذا يمكننا أن نستنتج تقارب عصرهما ،
وبالتالي قرب عهد نقش (أحمد بن عباس) من صدر الإسلام .

* * *

ومن النقوش الأثرية هذا الأثر :



نقش القاسم بن محمد بن أبي عيسى

ونص هذا النقش : (اللهم اغفر للقاسم بن محمد بن أبي عيسى الحراني
أو (البحراني) .

ونلاحظ في هذا النقش أمرين :

أحدهما : خلوه من الزخرف الخطي فهو على غرار خط (أحمد
ابن أيوب) .

وثانيهما : أنه حذف دفعة واحدة همزة الوصل بين الاسمين العَلَمَيْنِ سواء أكانت متصلة بِعَلَمٍ سابق كما في كتابته لـ (لمقاسم بن محمد) أم كانت في أول السطر كما في : (بن أبي عيسى) . والقاعدة الخطية تفرق بين الحالتين .. فإذا كانت صيغة (ابن) بين علمين ، وهي مندرجة في السطر ، فإن همزة الوصل لا تُكْتَبُ . وإذا كانت بين عِلْمَيْنِ وجاءت في أول السطر فإن همزة الوصل تُكْتَبُ في هذه الحالة .

* * *

ومن هذه النقوش نقش : (أبي سليمان علي بن طالوت) وهذه صورته :



نقش أبي سليمان علي بن طالوت

وقد قرأته هكذا : (أبو سليمان علي بن طالوت يشهد أن لا إله إلا الله شهادة يلقي بها ربه) .

ومن دراستي لهذا النقش توصلت إلى أنه من قَبِيلِ نقش (القاسم بن محمد) السابق الحديث عنه ، فلا زخرفة به ، وإنما تضليع ، وعقفة إلى اليمين للألفات في ذيولها ... وهو من هذه الناحية يشابه خط (أحمد بن أيوب) الذي كتب سنة ٢٠٥ هـ على أنه خير منه انسجاماً وانتظاماً في حروفه وسطوره في أولها وفي آخرها ويلاحظ عليه انه رسم صيغة (يَلْقَى) بفتح الياء والقاف وبعدها الف رسمها بالألف ، خلافاً لقاعدة الرسم المعروفة .

* * *

وهذا نقش آخر عَانِسَتْ الكثير في محاولة قراءته كله ، فلم يخالفني كل التوفيق بسبب انطاس بعض حروفه وانمحاء بعضها :



نقش النجمة الحماسية

وقد استطعت قراءة بعضُ جُملِ هذا النقش الكتابي المطموس ،
وأعياني حل بعض جملة .

وهذا بيان ما تمكنت من قرأته منه :

اللهم اغفر ...

اللهم اغفر لزيد بن

عبد الله المعتصم رحم الله

من قال آمين (وفي آخر هذا السطر رُسِمَت بِدِقَّةِ النجمةُ
الحماسيةُ متّصلة بالسطر نفسه) .

وفي أسفل الحجر نقشٌ نصه :

لا اله إلا الله .

وتحتة حرفان ثموديان هما على التوالي هكذا :

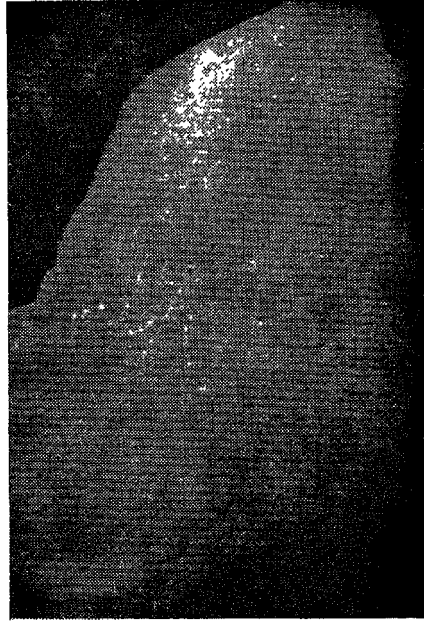
◻ هو الحرف العربي (ج)

◻ وهو الحرف العربي (ي)

وخط هذا النقش يشبه تماماً نقش أبي سليمان علي بن طالوت إلا أنه
أدق صنعةً منه ، وأجمل تكويناً بعض الشيء ، ولعل هذا يعود إلى
الكاتب أكثر مما يعود إلى تفاوت العصور وتطور الكتابة العربية .

* * *

وفي نقش آخر ما صورته الفوتغرافية :



نقش ناصر بات على لحم

وقد قرأته مبدئياً هكذا : (نَاصِرُباتَ عَلى لَحْمٍ لَدَيَّ وَعَلى
منصور .. قَنَاصُ الأيَلِ) .

ونتيجة دراستي له كانت كما يأتي :

أولاً- لا يزال الغموض يكتنف قراءته ، فهي في حاجة إلى مزيد من
الحل الصحيح .

ثانياً- إن أسطره غير منسقة ولا مستقيمة ، ففيها مِثْلٌ واضح إلى
أَسْفَلُ .. وهو بالجملة من نوع خط « أحمد بن عباس » تقريباً ، في
الطراز ، وفي اضطراب السطور ، وعدم توازنها .. وكلاهما من نوع

الخط الكوفي القديم .. وإذا كان حَلِّي له صحيحاً فهو يدلنا على حالة اجتماعية مهجة للقوم تؤيد جاهلية شعر امرئ القيس في قوله :

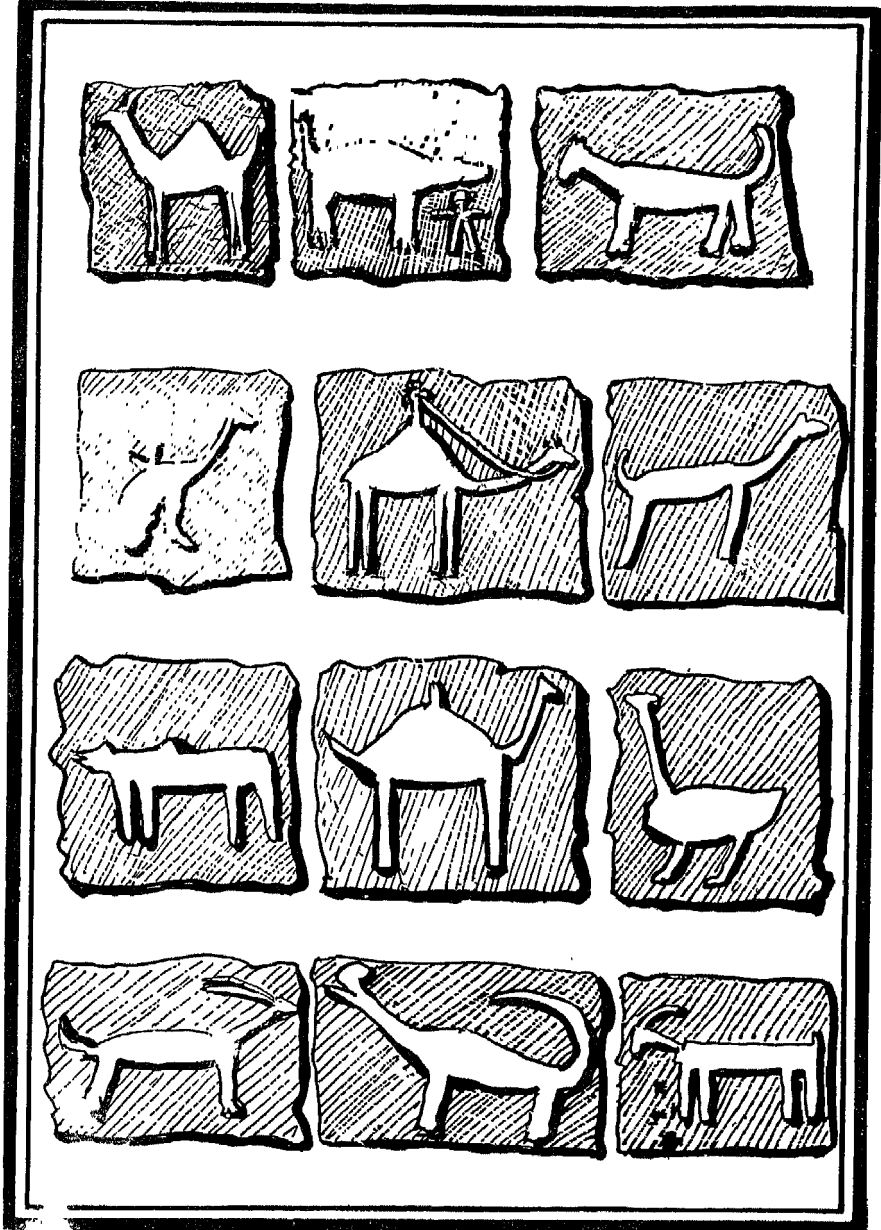
وظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل
وعلى صخرة ملساء مكسورة أخرى نقش أحمد بن عباس بن أحمد
عبارته السابقة المنقوشة على الصخرة التي نقلنا صورتها سابقاً نقلاً مسطرياً ،
ولعل الكلام ظهر مبتوراً ، بما كُسِرَ من الطرف الأول للصخرة
نفسها .

الصور الحيوانية ، ودراسة لها :

أما الصور الحيوانية ما بين بشرية وغيرها فإن صخور الحبل مفعمة

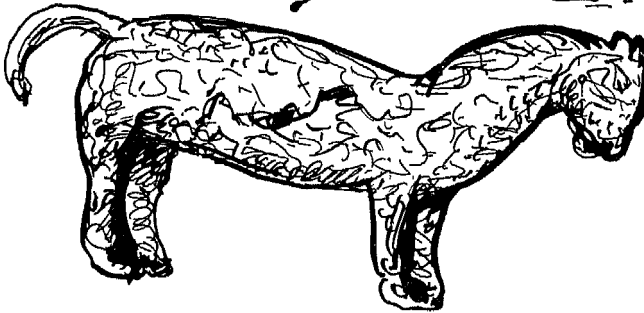
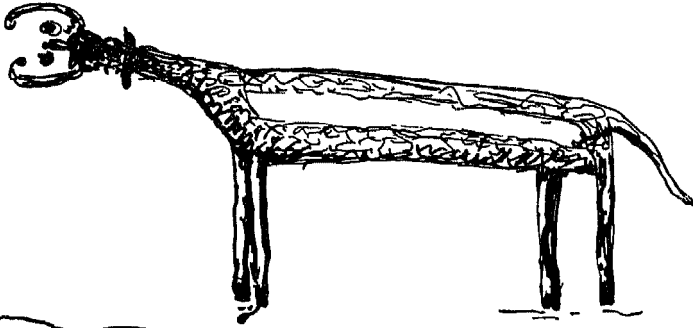
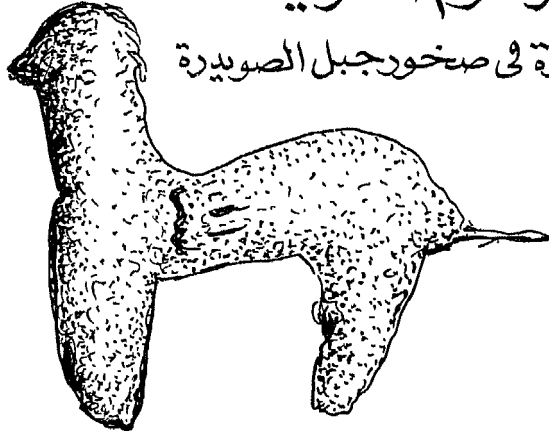


من آثار الصحراء الكبرى : رسم الخيل التي تجر العربات

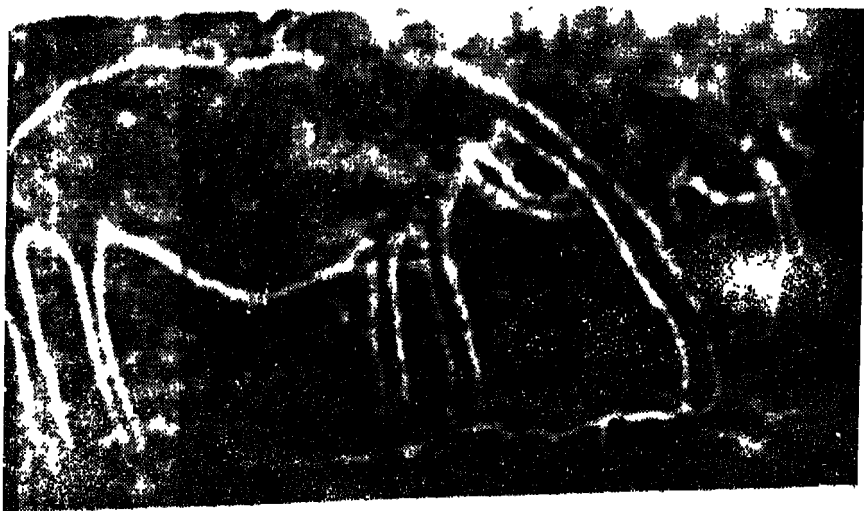


من الآثار المنقورة على جبل الصويدة
وهي تدلنا على وجود الجمال والبط والظباء والنعام وحيوانات
أخرى بعضها يشبه الديناصور ، كانت تعيش بهذه المنطقة

رسوم أثرية
منقورة في صخور جبل الصويرة



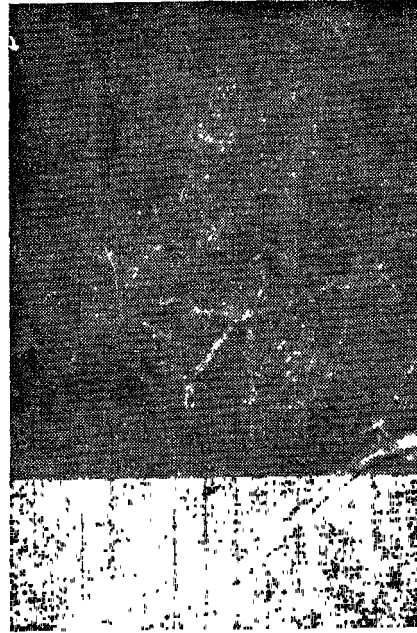
بها ، من كل لون .. فهذه صورة ثور ، بجانبها صورٌ بدائية لحيوانات
شتى من حيوان الجزيرة .. وإلى جانب الصورة الكبيرة لحيوان منقرض
يقف رجلان ، أحدهما بجانب الآخر وهما يصوبان سهامهما أو رماحهما
لأرتال الحيوان البرية الهاربة من أمامهما ..



صورة تمثل صيد الفيل . ويبدو فيها رجل لم يكس يطلق سهمه ،
حالما اضطلع آخر ميتاً على الأرض

ويرى على الصخرة السفلى الجامعة لتلك الصور العربية البدائية العتيقة
كنمة (الله) محفورة بخط كوفي واضح ..

ومقارنتنا لرسوم هذه الحيوانات مع الرسوم المصورة في كتاب :
(الصحراء الكبرى) لمؤلفه (جيمس ويلارد) يظهر تماثلها في الشكل
والبدائية خاصة رسم الخيل التي تجر العربّة وهي التي تحدث عنها
(هيرودوتس) فيما كتبه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وكذلك يشبه
تقريباً الرسم المحفور للرجلين الصيادين ، الرسم المحفور في الكتاب



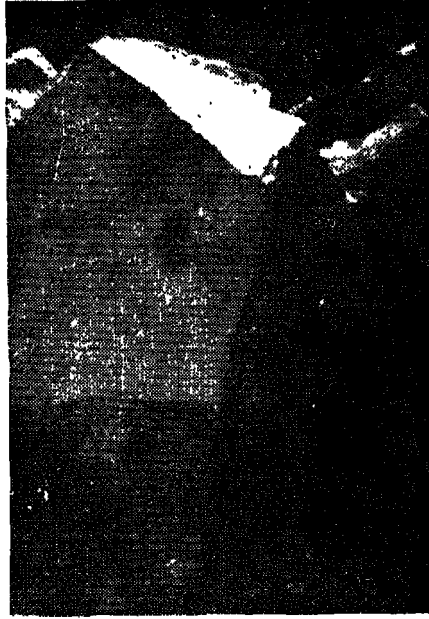
صورة الصيادين العرب بالصويدة

المذكور لرجل يقوم بمحاولة صيد فيل^١ .

وهذه صورة أسد متحفز بكل ما لديه من حَوَلٍ وجِزْءة ، للوثوب على الرجل الواقف أمامه وجهاً لوجه ، وكأنما هما في عراك^٢ ، أو على وشك عراك شديد .

هذا وبعد ما انتهينا من التقاط الصور التي تهمتنا من صخور جبل الصويدة انتهت مهمتنا فيها ، فعدنا فوراً إلى امتطاء سيارتنا آيين إلى

١ كتاب الصحراء الكبرى ، تأليف جيمس ويلارد ، نشر مكتبة الفرجاني بطرابلس ، ليبيا .
أمام الصفحة ١٦٠ ، من الكتاب المذكور .



صورة الاسد والرجل

المدينة المنورة^١ .

مسافة الطريق :

والمسافة بين المدينة والصويدة هي سبعون كيلومتراً قطعناها في الذهاب

١ يرى القارئ في هذا الفصل رسوم الحيوانات الانسية والوحشية المنقورة على صخور جبل وادي الصويدة الذي يحده غرباً. وبين الرسوم رسم حيوانات منقرضة أغربها شكلاً الحيوان ذو القرون المعقوفة ، وذو الذيل الملتوي والقم المهروت . ويبدو أنها كانت تجوب هذه المنطقة قبل عصر الجفاف. فلما بدأ هذا العصر انقرضت وزالت من الوجود وبقيت رسومها شاخصة على الصخور التي سجلها عليها معاصروها الاقدمون .

إلى الصويدة في ساعتين وربع الساعة . واجتازناها في عودتنا إلى المدينة
في نحو ساعتين إلا ربع الساعة . وقد حمدنا الله على سلامة الأياب .
وهتف الضمير عندما شاهدنا مأذن المسجد النبوي ترتفع قاماتها
الرشيقة إلى السماء ، هتف بهذا البيت الذي كان علي باكثر ارتجله في
مساجلة لنا معه :

مأذن مسجد هذا الرسو ل تزف المسرة للناظرين

آثَارُ الرِّيَاضِ وَمَا حَوْلَهَا

من آثار الرياض

لا تخلو مدينة قديمة في المملكة العربية السعودية من بعض الآثار .. وأغلب الآثار التي تتحدثنا عنها في أغلب مدن المملكة هي الآثار الظاهرة على سطح الأرض ، ما بين معمر ومنقوش ، أما ما يستكن في باطنها مما يحتاج إلى أحافير ، فمن المعلوم أنه إلى هذا التاريخ لم تجر أحافير أثرية علمية بهذه البلاد ، فيما أعلم ، اللهم إلا ما ندر جداً .

وفي مدينة الرياض مبان قديمة عقي عليها التنظيم الحديث لمدينة الرياض . وما تبقى من معالم بعض آثارها يحسن أن يحتفظ به كمعالم وكصوى للتاريخ .. يستدل بها ، عن عيان ومشاهدة ، طلاب العلم ، وعشاق البحث العلمي والأثري والتاريخي في الحيل الحاضر والأجيال المقبلة ، على ما كانت عليه حال عاصمة البلاد في الأجيال الماضية .

المصمك :

ومن تلك الآثار مثلاً : قصر « المصمك » .. وقد أحسنت الحكومة

١ أواخر جمادى الآخرة ١٣٨٧ هـ - سبتمبر ١٩٦٧ م ، حيث كتب هذا البحث في ذلك الوقت .

بوابة بيت جويسر تاجر
 البقر الذي دخل منه جلاله
 المغفور له الملك الراحل
 عبد العزيز آل سعود
 وصحبه ليلة فتحه للرياض
 للوصول إلى بيت حريم
 عجلان أميرها من قبل
 ابن الرشيد



إذ أبقتة على حالته ، فلم تعمل فيه معاول الهدم .. فإنّ هذا القصر
 المبني بالطين في أواخر المائة الثالثة عشرة الهجرية ، له طابعه المعماريّ
 وله أثره التاريخي البارز في مطلع عهد « توحيد المملكة » ورأب الصدع :
 صدع الفرقة الشاسعة المدى التي كانت تزيد شمل أبناء البلاد الواحدة
 تمرقاً وشتاناً .

لقد كان هذا « المصمك » المكان الذي « وئدت » فيه « الفرقة »
 و « وُلدت » فيه « الوحدة » .. كما هو مفصل في التاريخ ، ولا لزوم
 لإعادته هنا ، فهو معروف .

دار الأشعة :

ومن آثار مدينة الرياض (دار الأشعة)^١ ، وكانت غرفها واسعة تشرح الصدر ، وكانت في وسط البلد ، وكانت مشادة أيضاً بالطين ، وقد صمدت لحوادث الزمان ، فلم تتركع تحت وطأة أقدام الخراب .. كانت كالكهل القوي العضلات ، الصامد أمام التقلبات . فحبذا لو أبقى هذا « المبنى » الأثري على حاله ، وحبذا لو أحيط بسياج يفصله عما يراد تجديده وتنظيمه على الطراز الحديث في هذه المدينة المتطورة ، ليكون بهيئته « الوقور » وبضخامته ، كذكرى حية للتاريخ .

المربع :

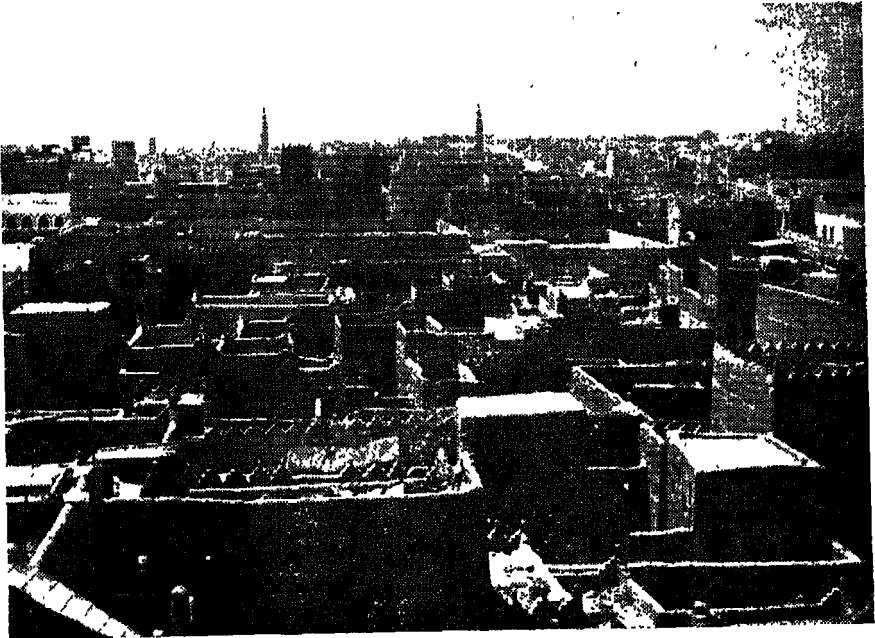
وكذلك قل في قصر « المربع » أي القصر الذي بناه وعاش فيه مؤسس المملكة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، فإنه يعتبر في نظري - وإن قُربَ أوانُ بنائه - من مهم الآثار الحديثة في البلاد .

أهمية المحافظة على آثار الرياض وعموم الآثار :

وفي اجتماع لي ، مع صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز ، أمير منطقة الرياض ، تحدثُ إلى سموه عن فائدة المحافظة على الآثار عامةً ، والعناية بتاريخها ، لحساب التقدم الحضاري العام في البلاد ، وقلتُ لسموه فيما قلتُ : إنَّ مَنْ لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل . وتطرقت

١ هذا من تسمية المحل باسم الحال فيه .. فقد وضعت بها الأشعة الصحية فيما بلغني ردحاً من الزمن . فشاعت تسميتها بذلك . وكانت قبل ذلك داراً للحكم على ما بلغني أيضاً .

إلى أهمية استبقاء ما تبقى من قصر المربع ، الذي كنت لمحتة - في رحلتي إلى الرياض بجمادى الآخرة ١٣٨٧ هـ - سبتمبر (ايلول) ١٩٦٧ م - وقد بدأت عوامل التنظيم الحديث للرياض تتسلل إلى كيانه وتأخذ من أطرافه ، وتكاد تأتي عليه كله ، واقترحت أن يُعنى بالمحافظة على ما تبقى منه كَعَلَمٍ مُهِمٍّ من معالم التاريخ الأثري الحديث ، لموحد شمل البلاد ، وعَرَضْتُ على سموه فيما عرضته أن يُعْتَنَى - بضم الياء - بجميع آثار الأئمة من آل سعود ، وخاصةً آثار الملك عبدالعزيز كَسَيُوفِهِ وبناقه وبعض أثاره الذي كان يستعمله ، وبعض آثاره الأخرى ، وتحفظ كلها في (المتحف) التاريخي بالرياض ، بعد أن يسجل بجانب كل أثر ، تاريخه الخاص به .. وقد استحسن سموه هذا الرأي ، ووعد بتنفيذه وتحقيقه ..



عمران الرياض القديم

متحف جامعة الرياض :

وعلى ذكر المتاحف ، فمن الجدير بالإشارة أن في (كلية الآداب) بجامعة الرياض « متحفاً » أثرياً ، أو نواة متحف أثري على التعبير الدقيق . وهذا « المتحف » عبارة عن « غرفة » واسعة علوية ، نُسِّقَتْ بها مختلف الآثار التي تحتويها ، بإشراف عالم الآثار الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري . وقد حَدَّثَنَا عن تاريخ كل أثرٍ موضوع بالغرفة ، وعن التعريف به ومكان العثور عليه ، وكيف تم جلبه إلى هذا المتحف ، كما حَدَّثَنَا عن نبذة مما نُقِشَ عليه .. وكان يقرأ لنا بعض السطور المنقوشة بالخطوط القديمة قراءةً خبيرٍ مُمارِسٍ مستوعبٍ .

وقفة بين أطلال الدرعية

في «رحلة الرياض» رأيتُ أن لا بدّ من مشاهدة «أطلال» مدينة الدرعية التي كانت إحدى عرائس الجزيرة العربية ، عمراناً وضخامة وازدهاراً . وفي طريقنا إليها من مدينة الرياض رأينا إرهاصات العمران تمتد من الرياض إلى هذه المنطقة الفيحاء التي تفصل بين الرياض والدرعية وبعد نحو عشر كيلومترات — سَيَرّاً على السيارات كنا نسير في مشارف مدينة الدرعية . لقد أَشْرَفْنَا على واديها الهادئ الجميل ، الواسع ، الذي تحتضنه من جهة حَدائقُ النخيل الباسقة ، ومن جهةٍ مدينةُ الدرعية المرتفعة عن وهدته والمنخفضة ، ومن ثمّ شاهدنا أبراج الدرعية التي كانت تمثل بعض تحصيناتها الخارجية أيام ازدهار عمرانها وقبل تقويض بنيانها ..

ورأينا سور الدرعية الطيني القوي المتداعى من فعل الحريق . وقد اقتحمت سيارتنا وادي الدرعية بجرأة وإقدام ، وذلك لأن الطريق اليه وفيه ، قد سُقِلَتْ ، فلم يَعُدْ كما كان صعبَ المراس . وكان وصولنا إلى الدرعية في الظرف الملائم ، فقد خفت حدة أشعة الشمس ، فمنحتنا خفتها فرصة طيبة للتجول الباحث المستطلع بين أطلال

مدينة الدرعية المنهارة بفعل الغزاة القُساة ، وجاءت لنا المقادير على يد أحدنا : أحمد سليمان داود ، بالشيخ عبد الرحمن اليوسف أحد سكان الدرعية ، فكان دليلنا إلى معرفة أمورٍ ، ما كنا لنقف على حقائقها ولا على ماضي تاريخها لولا دلالته وإرشاده .

أرانا الأماكن التي دارت فيها رحَى القتال طَحُوناً للعمران وللرجال .

وأرانا قصر الإمام عبد الله بن سعود بمحلة (سَلَوَى) .

وأرانا الطريق الهابط المُسَقَّف بالعقود الحجرية المطابقة ، في أيام ازدهار الدرعية وحين عنفوان عمرائها . وهو الطريق الذي كان عبد الله ابن سعود يسلكه إلى (دَكَّتِه) المُفَضَّلَة الشبيهة بمدرجات الجامعة أو مدرجات ملاعب الرومان في استطالتها وبنائها وهيئتها من حيث العموم .. وقد أصبحت اليوم أثراً بعد عين . والدَكَّةُ هذه مبنية بالحجارة المطابقة المنحوتة البيضاء .. ومع مرور عشرات السنين عليها وهي مهجورة لم يَجْرَ عليها ترميمٌ أو عناية ، فهي لا تزال على حالها في انتظام صفوف حجارتها وتماسكها . لم يطرأ عليها تَفَتَّتٌ أو تَكَسَّرَ أو تساقط .. مما دلنا على مهارة من بنوها ، وعنايتهم ببنائها لمن بنوها من أجله .

وهذه (الدكة) العالية المشرفة المديدة تحد الوادي في ناحيته القريبة من الرياض .. تحده شمالاً .

وكان عبد الله بن سعود ، يجلس عليها هو وصحبه وأقاربه وضيوفه ومن كان معه من العلماء ووجوه البلد والحاشية ، جَلَسَةً الراحة والاستجمام بعد صلاة العصر ، وربما للنظر في بعض القضايا المتعلقة بهذه السوق المتحركة النشطة : (سوق الإبل والشاء) وربما كان من يفدون اليه ويجلسون معه على هذه (الدكة) ، من ذوي الشأن والحلِّ والعقد

من أطراف البلاد أو من الخارج . وكان مجلسه فيها بأوقات الأصيل التي تنكسر فيها حدة الشمس حينما تهبط وتتوارى بين أغصان النخيل السامقة وبين التلال قليلاً قليلاً ، كما تتوارى العروس الحسناء عن أنظار الناس بعد ليلة الزفاف . وإذا بدأ قُرْصُ الشمس الكبيرة في السقوط تدريجياً وراء الأفق الغربي ينهض الإمام من مجلسه ، وينهض كل من كانوا معه ، فيصعدون معه إلى المسجد الجامع ، ريوذْنُ لصلاة المغرب ، فيصلون صلاة المغرب جماعة ، ومن ثم ينصرفون مع الإمام إلى قصره العامر ، حيث السمر البريء ، والأحاديث الدينية ، والمذاكرة ، وعرض الأوراق والأمور المستعجلة المهمة عليه ، ليَسَبَّتَ فيها ، حتى إذا أذنَ للعشاء ، نهضَ إلى الجامع وصلّى به هو ومن معه ، ومن ثم يعودون إلى القصر ليتناولوا طعام العشاء والقهوة العربية .

وقصّرُ الإمام عبد الله قريبٌ من كلا الجامع والوادي .. هو في الطرف ويليه الجامع ، ويلى الجامع الوادي الذي تقع (المسطبة الإمامية) في طرفه الشمالي .

وكان الإمام ورفاقه يجلسون على هذه الدكة الكبيرة المرتفعة ، بعد صلاة العصر ، كما قلنا سابقاً ، بحيث يشاهدون عن كثب حركة هذه السوق المائجة بالرغاء والثغاء .. وربما بالصهيل وغيره .. رغاء الإبل المعروضة في السوق للبيع ، وثغاء الشاء المعروضة فيه لنفس الغرض ، وصهيل الخيل كذلك .

والجامع ذو عقود ومبني بالحجارة المطابقة .. وهو كبير^١ مشاد على مرتفع من الأرض في موقع ليس ببعيد عن الوادي ولا عن القصر

١ في كتاب تاريخ البلاد العربية السعودية للدكتور منير العجلاني ذكر للمسجد الكبير الذي بناه الأمير محمد بن سعود بناء على رغبة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية ص ٩٨ . فهل هو هذا الجامع أو غيره ؟

الكبير ، وقد شاهدناه مُهَدَّمًا .. لم تبق منه إلا بعضُ جُدُرانه وبعضُ أطراف عقوده التي أزيلت أعاليها فبقيت أكتافها التي لم يتناولها التهديم الشامل العام الذي شمل كل مدينة الدرعية ، فأحالتها إلى أكوام متراكمة من حجارة مطابقة بيض ، ما بين متناثرة ومدفونة تحت أطباق الثرى ، وتحت أطباق أنقاض المدينة التي أشعل فيها الغزاة المهاجمون النار في آخر الأمر ، ولم يَنْجُ في هذه المدينة من هذا البلاء المستطير سوى « بضعة مشاجب » ظلت عالقة بالحدار العلوي في قصر الإمام عبد الله ابن سعود ، وقد رأيناها وهي (مخروطة) ولا تزال مثبتة في بقايا أعالي الحدار الغربي في داخل القصر ، بطابقه الأعلى .. ولعل ارتفاعها البالغ هو الذي حماها من أن تلتهمها النيران المتأججة في هذه المدينة في تلك الأيام السود الحالكة .

وسار بنا عبد الرحمن اليوسف في منعرجات الشارع العام ، فاذا به ضَيْقٌ ومُلْتَوِيٌّ ، مثل شوارع أمهات مدن المملكة ، قبل تنظيمها الحاضر .

وتأملتُ طراز بناء القصور والدور في الدرعية الساكنة سكون الأموات في أجواف القبور المهجورة ، بعد حياة حافلة بالنشاط والمجد الديني والعلمي والعملي ، فإذا هي كلها مشادة بالطين وباللبن الأصفر ، كما شاهدتُ ذلك في مدينة (الرياض) - خليفةها - قبل أن يَحْدُثَ بها هذا التطور الكبير .

وطراز بناء بيوت مدينة الرياض وقصورها فيما رأيناه - سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م ، هي نسخة طبق الأصل ، من طراز بناء بيوت مدينة الدرعية وقصورها المُشَاهِدَةِ أَطْلَاقًا الْآنَ (سنة ١٣٨٧هـ) .

وَلَتَهْدُمُ كل ما في الدرعية من أماكن ومنازل ودكاكين وغرف ومخازن ، ودارات ، لم نتمكن من معرفة حقيقة ذلك إلا أن لنا من

مدينة الرياض قبل تطورها الحديث صورةً لا تخلو من معالم مماثلة لكل ما ذكر .

وإننا لنأسف أن رأينا كل ما في الدرعية مهدوماً ومركوماً .

ومن رأيي أنه لو قامت جامعة الرياض أو أية هيئة علمية أثرية بإجراء البحث والتنقيب العلميين الواسعين في أرجاء هذه المدينة وما يُطيفُ بها من حصون وأسوار وأبراج ، وما حولها وفيها من حدائق ، ومساجد وبيوت ، ومحلات ، بصفة شاملة ودقيقة ، فلا بُدَّ أن آثاراً بالغة الأهمية لتقدم معرفتنا ، لتاريخ هذه البلاد الحديث ، سنجدها بين هذه الانقراض وتحتها .

* * *

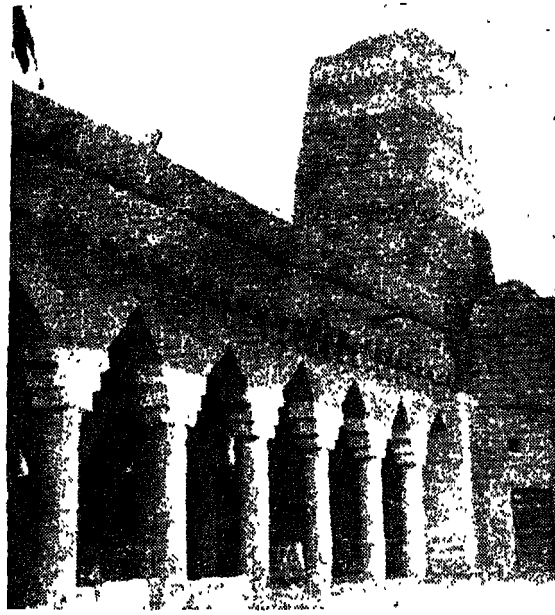
والدرعية مدينة عربية إسلامية المنشأ والطراز ، بدأ العمران يدب فيها بصفة واسعة معروفة منذ اتخذ ربيعة بن مانع بسنة ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م المليبيد وغصيبة المعروفين بالدرعية مقاماً له .. وقد كان مانع المذكور يحلّ بلكد الدروع من نواحي القطيف ، ثم ترأسل مع رئيس دروع حجر اليمامة الذين هم بنو عمومته ، دروع القطيف ، فدعا ابن درع حجير اليمامة ، ابن عمه مانع بن ربيعة من القطيف ، فوافاه بحجر اليمامة وأعطاه المليبيد وغصيبة ، فاستقر فيهما هو وبنوه^١ .

وظلت الدرعية عاصمة آل سعود الأولى إلى أن خربت - بضم الخاء وتشديد الراء المهملة - بسنة ١٢٣٣ هـ - ١٨١٨ م . والدرعية الجديدة تُقابلُ البلدة القديمة .. وهي في الجهة الشمالية من وادي حنيفة ، وتقع بغربي الرياض ، غير بعيدة عنها . وقد بلغ سكانها

١ تاريخ عنوان المجلد لابن بشر ، ص ١٦ ، طبع المطبعة السلفية بمكة المكرمة .

سنة ١٣٥٤ هـ نحو ١٥٠٠ نسمة . وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة وتسقيها ٤٠٠ بئر غزيرة المياه ، وأشهر ضواحيها الطريف في الجهة المقابلة من الوادي ، ومريح وغصيبة ، وهي منفصلة عن بعضها بأسوارها الخاصة^١ .

ويذكر المؤرخون أن تدمير مدينة الدرعية تم بأمر محمد علي باشا ، في حزيران سنة ١٨١٩ م^٢ .



جامع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية

١ كتاب جزيرة العرب لحافظ وهبة ، ص ٥٨ .

٢ تاريخ نجد لفلبي ، تعريب الدبراوي ، طبع بيروت ، ص ١٦١ .

آشَارُجُودَةٍ وَمَا حَوْلَهَا

الآثار في مدينة جدة

ليست الآثار الماثلة كثيرةً في هذا البلد . ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعة جوِّ البلد الرطب الذي لا يكاد يُبْقَى على أثر أو بناءٍ ، وقتاً طويلاً من الزمن ، إذ تصطالح عليه عوامل الرطوبة والحرارة ، فيقضيان عليه تدريجياً وبصورة منتظمة وغير بطيئة . يضاف إلى ذلك ملوحة الأرض ، فإن أغلب أرضُ جدةَ — لقربها من البحر الأحمر المِلْح — سَبْخَةٌ — حتى العمارات تتأثر بهذه الطبيعة الغَلَاظَة فلا تَبْقَى قروناً ما لم تكن ذات قوة وتماسك في البناء يستطيعان مقاومة عوامل طبيعة الجو والأرض القاسية إلى أبعد وقت ممكن .

وكل الآثار التي اطلعتُ عليها في جدةَ ، أيّاً كان لونها أو شكلها ، لا ترتقي إلى العصر الجاهليّ ، بل لم أرَ حتى الآن أثراً شاخصاً يرتقي إلى صَبْح الإسلام أو ظهره .

وأقدمُ الآثار الشاخصة التي شاهدتها ، مسجدان ، هما : مسجد الشافعيّ القائمُ في حارة المظلوم ، فإن بناءه المائل للبيان الآن كان بَعْضُهُ ، في سنة ٩٤٠ هـ وبعضه قبل ذلك ، كما هو مثبت على الحجرين الملتصقين ببابه إلى اليوم ، ولا يمنع هذا أن يكون قد حدث فيه ترميم أو إصلاح بعد بنائه ، إلا أن أكثر البناء القديم هو باقٍ إلى اليوم .

وقد لاحظت أنه أصبح لَتَقَادُمٍ عهدِه ، أخفَضَ مُستوىَّ من الشارع الذي يقع أمامه ^١ . وقد تلقيتُ عن قِدَمٍ هذا الجامع رسالةً من عمر نصيف رحمه الله ، كتبها بخط يده في أواخر شعبان ١٣٨١ هـ قال فيها :

« وأقدم عمارة في بُجْدَة هي الدار وَقَفُ الحَدِّ عبد الله نصيف أمام دار سيدي الوالد بمحلة الَيَمَن ، ثم تليها الدارُ مِلْكُ فرج يسر سابقاً ، وهي سكني آل الجمجوم الآن بالقرب من مسجد المُعَمَّر ، وأقدمُ جامع هو جامعُ الشافعي ، وأقدم مسجد هو مسجدُ عَمَّان بن عفان رضي الله عنه » .

والمسجد الثاني القديم هو مسجد عَمَّان بن عفان .

هذا ، وقد أشار عمر نصيف إلى دارين قديمتين في بُجْدَة ، هما : دارُ جَدِّه ، ودارُ فَرَج يُسْر سابقاً . وأعتقد - بناءً على القرائن التاريخية - أنهما بُنِيَتَا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري أو أول الرابع عشر .

ومن الدور القديمة ، دارُ الحكومة التي يملكها آل باناجه والتي كانت فيها قائمةًامية بُجْدَة إلى عام ١٣٧٨ هـ ، وتقع أمام « بَرَحَة » سيارات الأجرة الذاهبة إلى المدينة سابقاً . وكان قد عمرها الدكتور عارف بك التركي ، الذي كان من أغنياء التُّركِ ، وقد جعلها مُسْتَشْفًى حينما لم تَبْنِ الحكومة مستشفى بجدة ، ثم وهبها للحكومة فانتقل إليها الوالي ودائرتُه ، وبقيت مقرّاً لِيُولَاة السُتُوك والأُمراء من بعدهم ،

١ يشبه في هذا ما حدث في بيوت المدينة المنورة القديمة في حارة الاغوات وفي زقاق الحزايوي وما شاكلها من المنازل .. حتّى المسجد النبوي والمسجد الحرام في واقعهما الراهن منخفضة أرضهما عن أرض الشوارع المحيطة بهما .

إلى ما قبل أمد ليس بالبعيد . وقد بنت الحكومة التركية المستشفى العام بباب شريف . وجدير بالذكر أن الوالي كان يقيم قبل انتقاله إلى الدار المذكورة - بالدار المعروفة بِالْمَشْوَرةِ ، وكانت تقعُ غرب دارِ آل الزاهد ، وراء المسجد هنالك ، وكانت تطل على البحر لعلوها عن غيرها وقد هدمت ^١ .

وإذا بحثنا في بطون الكتب عن الآثار القديمة الباقية في مُجدّة إلى الآن فإننا واجدّون بينها مَسْجِدَ الْآبَنُوسِ ، وقد تواتر ذكر هذا المسجد لدى الرّحالة والمؤرخين قديماً وحديثاً . ذكره الرحالةُ ابن جُبَيْرٍ في القرن الهجري السادس ، وقال عنه : « وبها مسجد آخر له ساريتان من خشب الآبنوس » ينسب إلى عمر بن الخطّاب ، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد ^٢ . وذكره غيره . وأظنّ البشاريّ يقصده بقوله : « وبها جامع سريّ » ^٣ كما ذكره بطرس البستاني فقال : « وبها جامع الآبنوس يقال : إنه يستجاب فيه الدعاء » ^٤ .

وقد تأملت بناءه الحاليّ ، فإذا هو من طراز أبنية القرن الثاني عشر الهجريّ . إن له شرفات ، وبنائوه ما زال متماسكاً ، وهو مبني على « تَلّ مُجدّة » في نقطة مرتفعة ، وهو صغير ، ولا تقامُ فيه الجمعة الآن ، وإن كان فيما مضى جامعاً تقام فيه الجمعة .

وقبر حواء من الآثار المذكورة في التاريخ ، وهذه مزية كبيرة لِمُجدّة لو ثبتت ، ولكن دون ثبوتها خرط القتاد .

١ عن الشيخ محمد نصيف .

٢ ابن جبير : رحلته ، ص ٥٣ ، ط بيروت .

٣ ابن بطوطة : رحلته ، ص ٤٣ ، ط بيروت .

٤ بطرس البستاني : دائرة المعارف ، ص ٤٠٤ ، ط بيروت .

إنَّ قبر حواء على طرازه المعروف هو قبرٌ طويل كَمَسَجَرَى نُهَيْرٍ^١ ذاهِبٍ إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً ، وشكله يشبه قناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاثة جدران ، وفيه مكان لرأسها ومكان لقدميها ومكان لِسُرَّتِهَا . وكان به حَجَرٌ من الصَّوَّان يبلغ طوله نحو متر ، محفور من وسطه .

وقد ذكر ابنُ المجاور ، هذا القبر ، فقال : « وما أظن هذه البَرْكَتَةَ لِجُدَّةَ بمضاعفة أجر الصلاة والصدقة فيها ، إلا من جهة أمِّ البشر حَوَّى صلوات الله عليها ، لأنَّها مدفونة بظاهر جُدَّةَ ، وكان الفرس قد بنوا عليها ضريحاً بالآجر والحص ، مُحْكَمًا ، فبقي إلى سنة إحدى وعشرين وستائة ، فعند هذا التاريخ تَهْدَمُ ، وارتدم بعضه على بعض ، وهو موضع مُبَارَكٌ ، مستجاب فيه الدعوة »^٢ .

ولو أخذنا بقول ابن المجاور ، لاعتقدنا أن قبرَ حواء المزعومَ وجوده في جُدَّةَ هو أَقْدَمُ أثر بشريٍّ على وجه الأرض ... ذلك أنه يقول : « ويقال إنما سميت جدة ، جدة ، لأنها دفنت بها أمُّ البشر حواء عليها السلام ، فهي جدة جميع العالم ، فلما بُنِيَ هذا البلد عرف باسم جدة ، أي حواءَ زوج أبي البشر عليه السلام »^٣ .

١ يشبه في هذا قبور الأنبياء : هود وصالح وحنظلة في حضرموت ، وقبر حنظلة الوهي فيها وكلها مفرطة في الطول على ما رواه صالح الحامد في كتابه تاريخ حضرموت ، الجزء الأول ، ط دار الكتب ، بيروت ، ص ٧٢ و ٧٣ ؛ فلعل للأساس في الزعم القائل : أن قبر حواء بمجدة في هذا المكان بالذات وتطويل مساحته هكذا ، علاقة بما قيل عن قبور أولئك الأنبياء .

٢ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤٨ .

٣ نفس المصدر ، ص ٥٢ .

وتطرق ابن المجاور إلى مضاعفة أجر الصلاة والصدقة في جدة ،
وعكّل ذلك ببِرَكَّة وجود قبر حَوَاءَ فيها ، وهو تعليل لا نوافقه
عليه . فإذا كان أجرُ الصلاة والصدقة يُضاعَفُ في جُدَّة ، فلعل ذلك
يَعُودُ إلى أنها دارُ «رِباط» للمسلمين ، وثغُرٌ من ثغور الإسلام
الأولى ، وبابُ الحرمين الشريفين . للرباط فيها أجر كبير ، بالنسبة
للرباط ذاته عامة ، وبالنسبة للرباط بها خاصة من أجل حماية الحرمين
الشريفين من أيّ تَسَلُّلٍ مُعادٍ أجنبيّ . ولا يمكن أن يُعزى ذلك إلى
وجود قبرٍ مزعوم لحواء فيها .

على أننا استفدنا من ابن المجاور أن الذين بنوه ضريحاً بالآجُر
والحص هم النُفُرسُ ، وأنهُ بقي على بنائه لهم ، إلى سنة ٦٢١ هـ
وإن لم يَذْكُرْ لنا تاريخَ بنائهم له . ولعله يقصد بعض جَوَالِيهِمُ
في عهد الإسلام . ثم أعيد بناؤه بعد ذلك ، وهكذا ، وقد رآه ابن
المجاور عامراً وخراباً .

هذا ، ولا يصح مطلقاً الزعمُ القائل بأن اسم جُدَّة (بضم الجيم)
هو مأخوذ من اسم جُدَّة البشر (بفتح الجيم) وذلك لتباين الصيغتين :
جُدَّة (بضم الجيم) وجُدَّة (بفتحها) ، في الوضع وفي المعنى معاً كما
هو واضح .

ومن آثار جُدَّة ، هذه الصهاريج التي كانت مخازن للماء العذب
في القرون الخالية . ومن الصهاريج القائمة أطلالُها إلى اليوم صهريجُ
الْمَشَاطِ العائدُ للشيخ محمد نصيف ، وصهاريجُ أخرى في المحلتين :
البغدادية والشرفية ، وه كلها قديمة البناء مَتِينَتُهُ ، ولربما يكون من
بينها ما له عدة قرون . وهذه الصهاريج بُنِيَتْ بالطوب الأحمر والنورة
البلدية بناءً مُحْكَمًا ، يُمَكِّنُهَا من اختزان المياه ، ومقاومة الجو
والموازة في حالة حصارها ..

ومن صهاريج الماء الخاصة ، صهريج مسجد الشافعي الذي يشمل أسفل ساحته الكبيرة ، وصهريج دار الشيخ محمد نصيف في حارة اليَسمَن ، وهو يشغل سفلى الدار ممتداً وشاملاً لكل ما تحت مكتبه المطل على الشارع العام ، وهو في شكل عقود كالأقبية المتينة أو المخابى الحديثة القوية البناء .

* * *

والمتاحف ، هل يوجد شيء منها في جدة ؟ ..

إن المتاحف لها أهمية كبيرة في وصل حضارة اليوم بحضارات القرون الغابرة . ويوجد في جدة « متحف » حكومي للعاديات^١ يقوم في دار كبيرة بجوار دار معمل الأبحاث ، وتتبعان وزارة البترول والثروة المعدنية .

كان المتحف قبل إنشاء هذه الوزارة تابعاً لمكتب المعادن ، ويشغّل الطابق المتوسط من الدار .

ويفيدنا « سنت جون فيلبي » بأنه جُلبَ إليه مجموعة لا بأس بها من قِطَعِ الحجارة المنقوشة وبقايا أواني الخزف وقِطَعِ النقود وما أشبه ذلك ، مما جمعه في رحلته إلى شال المملكة السعودية عامة ، ومن خرائب تيماء القديمة ومدائن صالح خاصة . ويقول فيلبي : إنه عرض ذلك كله بالمتحف لمن شاء أن يُجْري عليه دراسة^٢ .

١ أي الآثار القديمة . وقد نقلت الآثار الموجودة بهذا المتحف إلى مدينة الرياض مؤخراً ، ونحن هنا نصف محتوياته كما كانت قبل نقلها .

٢ سنت جون فيلبي : أرض الأنبياء ، مدائن صالح ، ص ٩٥٩ و ١١٣ ، ترجمة عمر الديراوي طبع بيروت ، وهي ترجمة كثيرة التحريف للاسماء العربية حتى ان الترجمة تحتاج إلى ترجمة أخرى صحيحة .

كما حَدَّثَنَا بأن أحمد فخري الذي هو أحد تلاميذ « ك. س. تويتشل » كان المسؤول عن هذا المتحف الذي انشئ استناداً إلى مبادرة من رجل انكليزي من (ويلز) يدعى « جيبس » . ثم عمر هذا المتحف بالكثير من الآثار خاصة تلك التي كان فيلبي قد جمعها في رحلاته السابقة ، ثم أضيفت إليه النقوش والآثار التي وجدها في رحلته الآنف ذكرها والرحلات التي تلتها .. ويقول : « إنه أثاره سَقَرُ (جيبس) بعد أن انتهى تعاقد مع الحكومة السعودية ، وذلك لأن المتحف وما يحتويه — وكان بعضه ذا قيمة كبيرة ونادرة — سيكون عرضة للدمار ^١ ، وكان (فيلبي) يخشى أن أحداً من رجال الحكومة لن يكلف نفسه مشقة زيارة المتحف أو حتى اللقاء نظرة واحدة على محتوياته ، رغم أنه « أي فيلبي » كثيراً ما ذكر أمام المسؤولين أهمية الموجودات فيه ، وكذلك أهمل اقتراحه الذي قدمه فيما بعد ، بأن يشرف الملك هذا المتحف بزيارة سامية ^٢ .

لقد أزمَعَتْ زيارة هذا المتحف ، التابع للشؤون الفنية للثروة المعدنية بجُدَّة ، فذهبتُ إليه في يوم الخميس الموافق ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ - ١٦ أغسطس ١٩٦١ م ، واستَقْبَلَنَا معتوقٌ ^٣ باحْجَرِيّ مدير معمل الكيمياء التابع لوزارة البترول والثروة المعدنية ، وبعد تجوال معه في معمل الأبحاث دَلَفْنَا إلى المتحف المائل بجواره في عمارة مستقلة كبيرة ، فوجدناه مليئاً بالآثار والعاديات العربية . وكلها من جزيرة العرب ، وأغلبها من نواحي المملكة العربية السعودية . فهو يمثّل حضارات جاهلية قديمة خير تمثيل ، كما أن به بعض آثار إسلامية

١ لم يحدث والله الحمد ما توقعه فيلبي فبقي المتحف قائماً معلوماً بذخائره ، إلى أن تم نقله إلى مدينة الرياض وأعيدت إقامته بها ملحفاً بوزارة المعارف في عناية وصيانة حقتين .

٢ أرض الأنبياء ، ص ٨١ .

قديمة ، وآثار وعاديات من بلاد اليمن ، وآثار رومانية في جوانب المملكة العربية السعودية ، لا بد أن العرب القدامى جلبوها أو نحتوها . وقد حصرنا موجودات المتحف فكانت حسب ما يلي :

١ - مبخرة حجرية من آثار سبيل ، وهي مربعة الشكل مرتفعة القامة من حجر الغرانيت ، وقد أتى بها من تعز ، لإبراهيم بن معمر ، أيام كان سفيراً للمملكة في اليمن . وقبض ثمنها من الحكومة .

٢ - تمثال روماني من القصير ، جنوب بلدة الوجه في وادي الحمض ، جاء به فيلبي وقدمه هدية للمتحف .

٣ - كتابة سبئية منقوشة على حجر جيري أبيض ، أتى بها إبراهيم بن معمر ، من تعز باليمن ، وقبض ثمنها من الحكومة .

٤ - جزء من عمود مرمر وجد في أم القريات ، قرب الوجه . قدمه فيلبي للمتحف هدية .

٥ - عديد من مطاحن الذهب العربية باليد ، من صغيرة ومتوسطة وكبيرة ، مصنوعة من حجر البازلت الأسود ، ومن حجر الغرانيت ، وجدت في منجم ظلم وفي المهمل .

٦ - حجر لذبح القرابين داخل معبد ، وجد في قرية (وادي الدواسر) ، وجاء به فيلبي هدية للمتحف ، وهو من حجر رملي أبيض .

٧ - تماثيل صغيرة لأشخاص من حجر مختلف ، ما بين رخام ورمل ، وهي سبئية ، أتى بها إبراهيم بن معمر من تعز وصنعاء .

- ٨ - هاوُونُ حَجَرٍ بازِلْتِ وجد في مهد الذهب .
- ٩ - قطعة من نحاس منقوشٌ عليها كتابة سبئية أتى بها إبراهيم بن معمر من تعز وصنعاء .
- ١٠ - كتابات سبئية على حجر رملي ، أهداها فيليبي للمتحف .
- ١١ - بيضة نعامٍ متحجرة جاء بها فيليبي من « الفَوْر » قرب تبوك . وأهداها للمتحف .
- ١٢ - قطعٌ فخارٌ كثيرة من صغيرة ومتوسطة ، من الجنوب الشرقي للطائف ، أهداها فيليبي للمتحف .
- ١٢ - مكاحِلُ زجاجيةٌ صغيرة قديمة ، لم يبق إلا أعناقها ، وقد أهداها فيليبي للمتحف .
- ١٤ - هاوونات من البازلت وجدت في منطقة ظلم ، جاء بها إلى المتحف موظفو المعادن .
- ١٥ - هاوونٌ كبيرٌ من حجر البازلت قطره (٦٠) سانتياً ، وجد بجدة وعليه كتابةٌ محفورة أو نقش قديمان .
- ١٦ - أوانٍ من حجر الصابون وجدت قرب قصر إزلام أو إسلام ، هدية من فيليبي .
- ١٧ - قطعة حجر سوداء كبيرة من حجر الحديد عليها رسم جميلٌ منقوشٌ بطريقة فنية بارزة .
- ١٨ - قطع كثيرة من فخار نبطيٍّ ، وجدت في قرية تبعد عن تبوك في شالها الغربي بـ (٤٥) كيلومتراً في « أم الدبة » - بفتح الدال المهملّة المشددة بعدها باء مشددة مفتوحة فتاء مربوطة -

- ١٩ - مجموعة إنسان نَبْطِيٍّ ، وجدت في مقابر الأنباط بالشمال - هدية من فيلبي .
- ٢٠ - طَسَسْتُ رخاميَّ جميل صقيل من آثار الثموديين ، قطره (٦٠) سنتيمتراً وعمقه (٢٥) سنتيمتراً ، أهده ولي العهد إذ ذاك ، للمتحف . وجد هذا الطست بقوز الجعافرة^١ قرب جازان .
- ٢١ - تدوين^٢ كتابي^٣ على حجرٍ وُجد في (قُوزِ الجعافرة) قرب جازان . أهده للمتحف ولي العهد إذ ذاك أيضاً .
- ٢٢ - قطعة حجرٍ منقوشٌ عليها كتابة عربية كوفية محفورة حفرًا واضحاً جميلاً ، والخط جميل وكبير .
- ٢٣ - جزء علويّ من عمودٍ ، وجد في « قوز الجعافرة » بقرب جازان هدية من ولي العهد إذ ذاك .
- ٢٤ - قطعٌ زجاجية كثيرة خُضِرٌ وبيض ، وجدت في مدينة خرائب « حَرَّةِ خريدة » ، هدية من فيلبي .
- ٢٥ - قطع فخارية وزجاجية وجدت في « هواره - مدين » بالشمال .. من آثار ثمود ، هدية من فيلبي .
- ٢٦ - قِطْعُ صَدَفٍ وجدت في مَسْكَنَةِ مَدْيَنَ ، من آثار ثمود (هدية من فيلبي) .
- ٢٧ - عمودٌ من حجرٍ رملي أبيض ، فيه زخرفة عربية على شكل معين ، وجدت في « قوز الجعافرة » بقرب جازان . أهديت للمتحف من (ولي العهد ، إذ ذاك) .

١ فوز الجعافرة : تل مرتفع على ساحل البحر بين صهبا وجازان « عن السيد محمد السنوسي » .. ويلاحظ أنه مكتوب في تعريف هذا الأثر بالمحتف اسم : « قوس الجفيرة » وهو تعريب غلط صحته ما ذكرناه . ولعل أصله (قوز الجعافرة) و (القوز) هنا بمعنى التل .

٢٨ - تدوين كتابي على حجرين رمليين من نجران (أهداهما فيلبي ،
وريكان ، للمتحف) .

٢٩ - قِطْعُ فِخَّارٍ وجدت في الأُحدود بنجران من آثار السبئيين ،
(هدية من فيلبي) .

٣٠ - مجموعة قِطْعٍ فخارية وجدت في قرية «الْمَقَوِّ» على بعد
(١٠٠) ميل جنوب وادي الدواسر .

٢١ - تدوين كتابي على حجرين من الرمل الأبيض من آثار السبئيين
وجدوا في قرية «الْمَقَوِّ» على بعد (١٠٠) ميل جنوب وادي
الدواسر ، ويرجع تاريخ السبئيين إلى ما بين عام ٢٠٠ ق.م.
و ١٠٠ ب.م.



من رسوم متحف آثار جدة الذي نقل إلى الرياض

هذا وقد أهدى إلى المتحف حمد محمد العُيَيْدِيّ بعض ما اكتشفه في رحلاته بالملكة وذلك :

- ٣٢ - قطع فخّارية وجدّها قرب قصر السموأل بن عاديا ، بتياء .
- ٣٣ - مجموعة فخّارية وزجاجية وجدّها بميناء المدينة القديم : « الحار » ويعرف حالياً بالبُريّكة (بضم الباء الموحدة بعدها راء مهملة مفتوحة فياء مثناة تحية فكاف فتاء مربوطة) .
- ٣٤ - قطعة من جمجمة إنسان وجدّها مدفونة في سور قصر السموأل ابن عاديا في تياء .

هذه جملة أهم موجودات المتحف ساعة كتابة هذا البحث . وكل التحف موضوعة على مناضد خشبية ومكتوب بجانبها التعريف عنها ، ومن أهداها ، أو جلبها ، ولمن تعود ، ومن أين جُلبت .

هذا وتشتمل الحجارة المنقوشة بالخط العربي ، أسماء متوفين والترحّم عليهم ، وفي بعضها إخبار أو اشعار يحوم حول البريد حيث ورد فيه ما نصه : (منا من البريد وهو على أشرف سنن بريد من الكوفة) وهذا الحجر مكسور كما يستبين من الاطلاع عليه .

متحف آل باعشن بجدة

كما أن مجْدَّة مُتَحَفًا آخَر خاصاً ، وهو أقدم بكثير من المتحف الحكومي الذي أشرنا إليه آنفاً . وكان قد أنشأه الشيخ المعمر محمد صالح بن علي باعشن المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ .

وكان مبدأ تأسيسه لهذا المتحف الخاص بسنة ١٣٢٠ هـ وقد جمع فيه آثاراً وتُحَفًا نادرة من مختلف بلاد العالم : من مصر ، ومن السودان ، ومن إيران ، ومن الهند ، وحتى من الصين . والمتحف والآثار التي جمعها لا تزال مصفوفة ومرتبة في غرفتها المخصصة لها في الدَّوْر الثاني من داره في محلة الشام .

وكانت طريقة تجميع محمد صالح باعشن لهذه التحف أن يوصي بعض أصدقائه الذين اعتادوا أن يجوبوا بعض أنحاء العالم — بإحضارها له ، ويأخذها منهم بضمن مرتفع ، وكان من هؤلاء الأصدقاء محمد العروسي التونسي المدني الذي كانت بلاد الهند منطقة جولاته ورحلاته .

وصديق آخر اسمه محمد باسراجيل المولود في أندونيسيا .

ولم يشر محمد صالح بن علي باعشن ، رحمه الله تعالى ، إلى هذا المتحف ، في مذكراته الخَطَّيَّة التي بدأ في إكمالها سنة ١٣٥٩ هـ ، وانتهى منها في سنة ١٣٦٥ هـ .

* * *

وَأَخْبَرَنَا محمود عارف بأنه يوجد لدى محمد إسماعيل التاجر بِجُدَّة متحف خاص به في داره بمحلة اليمن ، يحتوي على تحف من الخزف قديمة ، ذوات أشكال متنوعة .

* * *

أما الفنون فلا ريب في أن بِجُدَّة منها ألواناً ، من أهمِّها هذه الزخرفة من النقوش التي نرى وجهاً بعض قصور بُجدة مزينة بها ، وإلى جانبها هذه النقوش الفنية التي تحلى بها بعض أبواب المنازل ورواشينها وبعض الجدران .

هذا وقد روى أيوب صبري باشا — كما أسلفناه — أن السيد عمر السقاف حينما بنى قصره المنيّف في الكُنْدَرَة جلب له مزخرفات هندية وصينية خاصة ^١ .

* * *

ومن الفنون الجميلة فنّ التطريز ، وقد كانت النساء في بُجدة يقمن بتطويز يدويّ للملابس والقُرُش بألوان من الخيوط الحريرية والذهبية والفضية وبالترتر وغيره .

وقد دخل فنّ الرسم إلى مدارس بُجدة حكومية وأهلية ، وهو أمرٌ نأمل أن ينتج لنا رسامين فنيين وفنياتٍ كباراً ذوي مواهب ممتازة .

* * *

ومن الفنون الجميلة الحديثة بِجُدَّة « فنّ التصوير الآلي » . وأول دخوله كان في عهد الأتراك . حدّثني الشيخ محمد نصيف بأنه في سنة

١ مرآة الحرمين باللغة التركية لأيوب صبري باشا .

١٣٠٠ هـ ، أَخَذَ رَسْمَهُ وهو ابن ستة أشهر ، المستشرق الهولندي «سنوك هرجرونه» الذي كان يومئذ نزيلَ جُدة قادماً إليها من مصر . وكان ذلك برغبة من الشيخ عمر نصيف جد الشيخ محمد لأبيه . وهذا يدل على أن الرسم الفوتوغرافي كان معروفاً بجُدة في مطلع هذا القرن الهجري ، كما يدل على أنه كان وقتئذ مقصوراً على الأفرنج من نزلاء هذا البلد ، وخاصة دور القناصل بها .

آثار وادي بويب

في وادي بويب ، بقرب جدة ، وإلى الشمال الشرقي منها على بعد نحو ١٥ كيلومتراً ، عثر على نقش ثمودي ، نصه وتفسيره كما يأتي حسب ما ورد في كتاب : « من الساميين إلى العرب »^١ لنسيب وهيبه الخازن :

التفسير باللغة العربية الواضحة الآن	الاصل
يا كاهل (اله) اجعلني كاملاً سلام(ود)	هكهل اثنم ورد
رسول التباب ذهب (فل)	شمل اكه التتب فلل
يا رضى اسمع للملوك الرئيس (ورضى	هارضوئ سمع للملوك هاولت
اسم صنم معروف في عهد الجاهلية الأولى)	
هنا ساكت بن يشعن بات ليله	هسكت بن يشعى بت
محل حب ماوات	محل حب مت

١ ص ١٦١ ، طبع مطبعة الحياة ببيروت ١٩٦٢ م .

حمت جمأت
جمأت أصيب بالحمى^١ .

(وجمأت - على ما أرى - اسم «جمعة» و «حمت» أي أصيب بالحمى ، ولم يدغم كاتب النقش الميمين في بعضهما ، لأن ذلك لم يُعرف في الكتابة بعد . وقد تكون جمعة امرأة كاتب النقش لأنه أنث فعل الماضي : (حمت) .. وهذا خلافاً لما رآه الشيخ نسيب وهيبة الخازن من أن (جمأت) اسم رجل .

١ انظر كتاب من الساميين الى العرب .

عَسِير
مَلَاخِ وَأَشَار

عسير

لعل أقدم مرجع عربيٍّ عُنِيَّ بعسير هو كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني . ولكنّه لم يذكر عسيراً على أنه اسم لمنطقة أو إقليم كما هو موضوع بحثنا .. وإنما أورده على أنه اسم لقبائل عربية متساكنة .

يقول : « ثم يواطن حزيمة من شاميها ، عسير : قبائل من عنزة » . ويحدد لنا مَواطنَ هذه القبائل فإذا بها لا تخرج عن مواطنها الحالية تقريباً فيقول : « فأوطان عسير إلى رأس تية ، وهي عقبة من أشراف تهامة .. وهي أبها ، وبها قبر ذي القرنين فيما يقال .. عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة ^١ .

ويفيدنا فؤاد حمزة بأن « عسيراً » كاسم جغرافي ، هو اصطلاح حديث جداً ، يعود إلى نحو ١٥٠ عاماً خلت فقط . أما هو كاسم لقبيلة أو لحلف قبائل فقديم جداً .. والأصل في الاصطلاح الجغرافي هو إطلاق اسم القبيلة على البلاد التي تسكنها فيقال : بلاد عسير ، ثم أهملت النسبة ، واشتهرت البلاد باسم (عسير) . وقال : إنها كانت في العهد العثماني متصرفية ، وقال : إن قبائل عسير تعود إلى أسلم على خلاف في ذلك .

١ صفة جزيرة العرب ، ص ١١٨ ، طبعة مصر ١٩٥٣ م .

ويعطينا الهمدانيّ مواطن قبائل عسير وقد عد منها العشر التالية
اسماؤها : الدارة ، وأبها ، والحللة ، والفتيحا ، فحمرة ، وطب ،
فأتانة ، والمغوث ، فَجْرُشَة ، فلايداع . ويضيف إلى ذلك قوله :
«أوطان عسير من عز ، وتسمى هذه الأرض طَوْدًا» كما عدد غيرها
من مواطنهم الكثيرة ^١ .

وتقع مواطن عسير على ضفاف أودية منها : الدارة ، والفتيحا ،
واللصبة ، والملحة ، وطب ، وأتانة ، وعبل ، والمغوث ، وجرشة ،
والحدبة ^٢ .

وتدلنا إقامة القوم على ضفاف الأودية الحارية على أنهم كانوا يبتغون
من وراء ذلك تأمين «لقمة العيش» ، إذ على شواطئ هذه الأودية ،
يمكنهم إيجاد مزارع القمح والذرة والشعير والفواكه والبقول والخضراوات
التي تقوم بغذائهم وكسائهم .

وعَسِيرٌ - القبائلُ والموطنُ - هما في سلسلة السّراة التي هي
الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن ، وتشرف على البحر الأحمر
من المغرب وعلى نجد من المشرق . وتحديد هذه المنطقة بالدقة كما يصفها
رحالة مشاهد هو : أنها (تتألف من الجبال والأودية والسهوب الواقعة
بين أعلى سراة الأزدي في الغرب ، وبلاد قحطان في الجنوب ، وبالأحمر
وبالأسمري في الشمال) . وبعبارة أخرى هي البلاد الواقعة بين جبل تمنية
وعقبة القرون ووادي دكان الممتد إلى «الحقو» بالبحر ، من جهة
الجنوب . وبلاد بني شعبة وربيعة باليمن ، ورجال ألمع ووادي حلي
من جهة الغرب ، وعقبة شعار ووادي (تسيّة) والسهب الممتد إلى

١ ص ١١٨ من نفس المصدر .

٢ ص ١١٨ من المصدر السابق .

بلاد بَلْأَحْمَر من الشمال ، وسلسلة الهضاب والسهوب المتصلة ببلاد
شهران ، من الشرق . وإذا قيسَت المسافاتُ بالساعات للمشاة ، كانت
المسافات من (شعار) في الشمال ، إلى (تمنية) في الجنوب ، ثلاثاً
وعشرين ساعة بالمشي السريع .. والمسافةُ من الشرق إلى الغرب ،
تقرب من المسافة التي من الشمال إلى الجنوب وهي بين أبها وبلاد شهران
تبلغ (٣٥) كيلومتراً . وعلى هذا الاعتبار تكون بلاد قبيلة عسير عبارة
عن بقعة من الأراضي الجبلية يبلغ طولها ١٥٠ كيلومتراً وعرضها ٤٠
كيلومتراً على وجه التقريب ^١ .

* * *

ومنابع أودية عسير العشرة هي من عقبات عسير الجبلية .. فلولاً
العقبات العالية ما تكونت الأودية الفيضانية إلى السهول . وتبلغ (٢٤)
عقبة .. وهي ما بين رئيسية وفرعية . واتفق الهمداني وفؤاد حمزة في
تعداد أودية عسير .. لقد عدّاها لنا عشرة أودية . ومنها بعض ما
ورد عن الهمداني اسمه ، ومنها ما هو مختلف عنه ، وهو الأكثر
فيما أورده فؤاد حمزة .

يقول فؤاد حمزة : إن أودية عسير هي : وادي خبيبي ، ووادي
الملاحه ، ووادي أتانة ، ووادي طب (وقد أوردها الهمداني) ،
ووادي جوجان ، ووادي ضلع ، ووادي مربة ، ووادي عتود .
وقال : إن الحقيقة أنهما واديان : أحدهما شرقي والآخر غربي ،
وكلاهما ينبع من عقبة عتود التي كانت مسكن الأسود في شبه جزيرة
العرب ^٢ .

وتبلغ قرى عسير اثنتين وثلاثين قرية بعد المائة .. وهي متصلة

١ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، من ص ٨٨ إلى ٩٠ .

٢ المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

بعضها بحيث يرى المسافر القرية تلو القرية طيلة رحلته في ربوع عسير ..
وقدر عدد سكانها بمليون ونصف المليون ، ولربما كان هذا التقدير
لا يتخلو من مبالغة . والإحصاء الصحيح للسكان تُعنى به الحكومة ،
لما تلمست من مزاياه . وأغلب السكان شافعيو المذهب وتوجد قلة
منهم حنبليون . والمرأة سافرة في القرى والبادي .. عاملةٌ مُجَدَّةٌ ..
ويستعملون في لباسهم جُلُودَ الحُمَلَانِ : (صغار الضأن) المدبوغة
المخروزة ، وفي تهامة عسير تغطي النساء رؤوسهن بالطفشة ، وهي
قبعة من خوص .. ونساء الحاضرة في جبال عسير يستعملن الخمار على
رؤوسهن ، وتلبس الأبقار قبعة خوص مصنوعة من القماش .

والعسيريون يلبسون القمصان المجنبية البيض ، ونساؤهم يلبسن هذه
القمصان حمراً وسوداً فقط . كما يرتدين العباءات الثمينة ويتحلين بالدمالج
والخلاخل ، وبالخواتيم والعقود ، وبالأساور الذهبية والفضية . ومن
الجلد مضفور تستعمله النساء كالحزام .. ومن عجب أن هذه « النسعة »
وبهذا الاسم نفسه يستعملها رجال قبائل حرب وأطفالهم في جنوب المدينة
المنورة بينها وبين رابغ ، كما يستعملها رجال جنوب مكة من بعض
القبائل كقبيلة هذيل ، وهي تستعمل في عسير للنساء فقط بالاسم
نفسه .. وتلبس ربيعة (الفُوط) ويتقلد رجال عسير خناجر طويلة
تسمى الواحدة (جنبية) . وأكبر خناجرهم ما يلبسه رجال أُلَمَع .
ومعظم نساء هذه القبيلة يخرقن آذانهم لتحليتها بالزَّمام . ومن ملابسهم
كذلك « السبته » وهي حزام من جلد منقوش مخروز تتمنطق به النساء
فوق أثوابهن . و « المكفة » قطعة جلد بشكل إكليل تضعها النساء فوق
رؤوسهن ، و « إكليل » من الحسف والأعشاب البرية العطرة كالشيخ
ليمسك الشعَرَّ عن تلاعب الريح به . و « الشِّملة » عباءة من الصوف

١ تاريخ عسير للنعمي ، ص ٦٢ .

قصيرة جداً ، تُطرح على الكتفين ، وهي لباس الأغنياء ^١ .

* * *

أما وقد ذكرنا « الملابس » ، فبقي أن نذكر « المطاعم » . إن طعام العسيرين الرئيسي الوطني هو « الثَبَر » و « السَّمْن » وكلاهما من انتاج بلادهم . واللَّحْمُ مقامه في الأعياد والمواسم والضيافات . والفاكهة والخضراوات وجودهما كعدمهما .. وهناك طعام العَرَبِيَّة أهم الأطعمة وأعمها . ونوع آخر من الخبز يُسَوَّى على النار في « الطابوق » أو في إناء ثم يُصَبَّ عليه السمن والعسل ، أما اللحم السليق فيقطع لرباً ^٢ .

وفي عسير آثار مطمورة ، وآثار ذكرها لنا المؤرخون .. ومنها الكهف الذي يحوي جُثث أربعة أموات قدامى ، أحدهم رجل ضخمة الجثة جداً . ويوجد هذا الكهف المجهولُ الأجدث في غارٍ بالشرحة : جبل شامخ ، يفصل بين تمنية وتهامة ، وفي قمته يقع الغار المسكون ، وقبر ذي القرنين الذي ذكرنا أن الهمداني قد ذكره بأبشها . ومع أن فؤاد حمزة عد هذا من باب التخريف إلا أن عمر رفيع ردَّ عليه وأبدى أن ذا القرنين هذا الذي يقال إن قبره بأبها هو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني اليوناني .. إنه عربي صميم من أهل هذه الدارة ^٣ . ومن رأيي أن انقراض البناء التي أخذ رسمها عمرُ رفيع في كتابه ، هي انقراض لبناء مستجد في عهد الإسلام ولا يرتقي إلى عصر ذي القرنين مطلقاً ، وإنما بُنِيَ في عهد انتشار الاعتقادات الخرافية في عصور

١ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١٢٧ .

٢ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١٢٧ و ١٢٨ .

٣ ص ٤٤ من كتاب في ربوع عسير ، لعمر رفيع .

التأخر والجمود . وفد أقامه بعضهم بَعْدَ ما شاع أن قبر ذي القرنين كان هنالك ، بدليل وجود مسجد بجوار الأنقاض ، وبدليل هدم الضريح من عهد ليس بالبعيد ، وليس من المعقول أن يبقى بناء قبر ذي القرنين القديم على حاله إلى يومنا هذا حتى يُهدَم . فليس في جزيرة العرب بناء قائم على حالته — فيما أعْلَمُ — منذ ذلك العهد مطلقاً سوى ما في مدائن صالح^١ ، ولا بُدَّ أنه توجد آثار مطمورة أو مجهولة في تلك المنطقة الحصبة المعروفة بالازدهار من قديم الأزمان . والتنقيب العلمي الرصين كفيل بإظهار الحقائق الكامنة .

* * *

وبعير ثروة زراعية وحيوانية .. فمما يُزرع بها وبجود ، أنواع الحبوب : كالدخن ، والذرة ، والقمح ، والشعير ، والقطن . والزيتون البري منتشر هنالك ، وهو بحاجة إلى التلقيح ليثمر ، وقد أخذت الجهات المختصة تُعنى بذلك ، ومن مشهور حبوبها حَبَّ الهميس^٢ الذي كان يجلب بكميات وافرة إلى أسواق الطائف ومكة إلى عهد غير بعيد . ومن ثروتها الزراعية غابات العرعر . والعسل كثير بها .. ولا يشتغال أهلها بالزراعة كانت البادية الرَّحْلُ قِلَّةً بينهم .

ومن ثروتها الحيوانية المَعَزُ والأبقار والإبل والحمير ، وقد شاهد عمر رفيع لإبلًا صاعدة في عقبة كوؤود بكل مشقة ، وصاحبها يساعدها بدفعها على السير إلى أعلى . وبعير ، النمرور وأنواع الثعابين ، والطيور المغردة ، وكان بها الأسود في عقبة (عتود) .

* * *

١ ولعل سبب ذلك أن بيوت مدائن صالح مثقورة نقرأ في الجبال وليست بناء بالمعنى المعتاد في البيوت .

٢ أي قمح الهميس ، ويمتاز بصفرة اللون وضخامة الحبات .

وفيهام معادن ، ك معدن التَّسْبِيرِ بِجبل (ضَنْكَانَ) من أعمال القحمة^١ . ويصفه الهمداني بأنه معدن غزير لا بأس بتره . ومعدن جبل (تهلل) الذي يرتفع عن سطح البحر بـ (٢٨٧٥) متراً ، ويقع إلى الشمال من قرية السودة ، وهو معدن حديد . وكان صناع عسير يستخرجونه بِطُرُقِهِم البدائية ، ليصنعوا من حديدته أدواتهم المنزلية والزراعية وغيرها ، ولا تزال آثار المصانع بقرية السودة موجودة لليوم^٢ . ويبعدُ جبلُ تهلل عن أبها ، عشرين كيلومتراً ، إلى الغرب منها ، وفيه ينابيع جارية في الصيف والشتاء . وارتفاعه أحد عشر ألف قدم^٣ .

ولم يُوردِ رشدي ملحس هذا المعدن في كُتَيْبِهِ الموجز : « بحث المعادن » .. لقد كان تأليفه له وطبعه قبل ظهور كتاب « في بلاد عسير » لفؤاد حمزة ، وكتاب « في ربوع عسير » لعمر رفيع بنحو ربع قرن . وهما اللذان قاما برحلتين إلى بلاد عسير وجابا مدنها وقراها وجبالها وكتبا عنها معلومات أوسع ، مبنية على المشاهدات والمسموعات .

وفي عسير مِنَاجِمُ أخرى للحديد والرصاص والمركبات الكبريتية والنحاس . ويوجد الملح الصخري في سفوح عسير الغربية . وفي فَرَسَانَ على سواحله مكانُ النفط ، ومعدن الاسمنت . وفي أطراف جازان مَمَالِجُ صخرية ثمينة . وفي رفيده ، معدن للحديد يستخرجه الأهليون بالفؤوس . وفي الصليف معدن الملح . ويوجد معدن للنحاس قرب سوق الاثنين . وأكثر الجبل هناك يُرى وهو يلعب صفرة ، وترابه

١ تاريخ عسير ، ص ٦١ .

٢ تاريخ عسير في الماضي والحاضر . لهاشم بن سعيد النعمي ، ص ٦١ و ٦٢ ط . مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر .

٣ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١١٣ و ١١٤ .

* * *

هذا وللعسيريين لهجة خاصة بهم ، في نبراتهما وبعض تعبيراتها . وفيهم طمطممانية وكشكشة وينطقون بأَمْ بدلاً من (أَل) ، ولا ينطقون بالـجيم . انهم يدلونها بالياء . ويقولون : « كيف حالُشْ » بدلاً من « كيف حالُكِ » . و « إيشْ بِشْ » بدلاً من « إيشْ بِكِ » ، و « امكتتاب » بدلاً من « الكتتاب » . والمعز في لهجتهم اسمه (زعابة) و (أريدْ) عندهم هي (ميدي) . ومن أناشيدهم البلدية :

يا عسير امهول ما هذي القضية ودنّا نجران نهب له سريه

يريد : يا عسير الهول ما هذي القضية

ويقولون : « صليت في المسيد » أي في المسجد . ويقلبون النون راء : « محمد بر يعقوب » أي « ابن يعقوب » ، « فاطمة ابرة سالم » أي « ابنة سالم » . ويقلبون الظاء والضاء لاماً : (فآت اللّهر) أي « الظّهر » وهي لهجات عربية قديمة .

* * *

ونرى أن تاريخ عسير ينقسم إلى ثلاث صفحات : صفحة مجهولة إلا من أخبار ، بعضها خرافي^٢ إن لم يكن جلها وهو ما كان في عهد الجاهلية . وصفحة معروفة معرفة غير مستوفاة من جميع النواحي ، وهذه الصفحة تتمثل في صدر الإسلام وما بعده .. فقد أسلم جماعة من العسيريين ، ودخلت عسير كلها في حظيرة الإسلام في زمن الرسالة ، وسار بعض رجالاتها في جيوش الفتوحات الإسلامية ،

١ بحث المعادن ، من الصفحة ٧٧ إلى ص ٨٠ .

وأهل عسير معروفون بالشجاعة ، وكان منهم العلماء والأدباء والشعراء .. ونالهم أول الأمر قسط من الاستقرار بعد ذهاب غيبة عصر الجاهلية والقبلية الطائشة ، ثم دخلوا في فوضى النزارية والبنائية ، واستنفدت - أخيراً - طاقاتهم الحروب المتوالية الداخلية والخارجية ، وأكلتهم الفتن ، في عهود الفوضى بدول الإسلام ، بعد انقضاء العصر الذهبي ، وتفشي الجهل فيهم ، وانضمت بلادهم ، إلى الغزاة الفاتحين في شرق وفي غرب .. انضموا تارة إلى الحجاز ، وتارة إلى الأتراك ، وتارة إلى غيرهم ، على ما هو مفصل في كُتُب التاريخ .. وما حظوا بالاستقرار والاطمئنان إلا في عهد الحكومة العربية السعودية . فقد نظمت في عهدها شؤون الإدارة ورتبت ، وأرسلت الهيئات لتأمين مشروعات الإصلاح في ديارهم . وعُبِّدَتْ طرقهم الوعرة فتنفسوا الصعداء ، وأصبحت السيارات تشق عقباتهم الكأداء العالية بعد أن كانت الحمير والجمال تُرهقُ بصعودها وعبورها .

والآن عاصمة المنطقة هي (أبها) المدينة العروس الجميلة . وقد اتسع عمرانها ، وأدخلت إليها وسائل المعرفة والتقدم ، شأن المدن والقرى الأخرى بالمنطقة ... كما أنشئ مطار حديث في مدينة (خميس مشيط) مما سهل المواصلات برّاً وجوّاً إلى ربوع عسير ، بعد أن كانت (شبه مغلقة) بسبب وعورة طرقها ووعورة مسالكها .. مما دعا بعض الباحثين إلى أن يقرن بين اسم (عسير) الذي يطلق عليها ، ومساها من هذه الناحية .

* * *

الآثار

شمال البلاد العربية السعودية

رحلة الشمال

بدء الرحلة

في الساعة الثالثة والربع من يوم الثلاثاء الموافق ٢٥-٥-١٣٨٢ هـ ، بدأت الرحلة ، من المدينة المنورة حتى تيماء .. وكان رائد الرحلة ، هو السيد حبيب محمود أحمد ، وكان الزملاء هم : السيد أديب صقر ، وأسعد خليل ، وأسعد شيرة ، وعبد العزيز خليل ، وحسين كاتب ، ومحمد أبو عيد الحيدري ، وعدنان حبيب وكاتب هذه السطور .

وكان السائقون هم : حمد بن حسن الدوسري ، وناجي حامد .

وكان الطاهي هو نعمة الله البخاري .

اثنا عشر شخصاً كانوا قوام الرحلة الشامية .

وقد قام رائد الرحلة بإعداد ما يلزم لهذه الرحلة وكانت السيارات ثلاثاً : صغيرتين ، وونيتا ، وقد أصْلَحَت الصغيرتان وكُشِفَ عليهما مبدئياً حتى تقرر صلاحتهما للسفر البعيد المدى ، وملئتا بالنفط والماء . والْوَنِيتُ الذي يعتبر بحق (جَمَلِ أحمال الرحلة) قد أصْلَحَ هو الآخر ، وهُيَّءَ له «عَجَلَةٌ» جديدة «وملي» بالنفط في خزاناته الواسعة

الثلاثة التي تسع ما شاء الله أن تسع من النفط .. كما مُلِّيَ خزاناه
الكبيران اللذان يسعان ما يشاء الله أن يسعا — بالماء النмир ، استعداداً
للرحلة الطويلة المدى .. كما أنه قد مُشِحِنَ بأصناف الزاد من أرز وسمن
وخبز ولحم وسكّر وشاي ونُقُلٍ وفواكه وصابون .

ولم يكتف بذلك الونيتُ ، بل حَمَلَ على ظهره جميع أفرشتنا ،
وجميع لوازم رحلتنا من أوانٍ وأباريق وقِرَبٍ وثلاجات وزمزميات .
كانت رحلةً مرتبةً ، مقدرًا فيها كل شيء تقديرًا حسنًا .

وكان الفنيون منا ذوي استعداد ومواهب حساسة لتلافي كل ما يحدث
من خراب هذه السيارات .

وكان الرفاق منسجمين فرحين مغتبطين في قرارات أنفسهم ، بهذه
الرحلة الموفقة ، في أصحابها وفي مكانها ، وفي زمانها ، وفي موضوعها .
فقد كان الوقت ملائمًا مقبولًا .. فالصيف قد انسلخ إهابه ، وولت
وقدّته ، وأدبر سَمُومه ويَحْمُومه ، واليَبَرْدُ لم يقدم بَعْدُ قارسه ،
ولم يركب فارسُه ، ولم ينتشر زمهريره في الآفاق . والمكان الذي نقصده
أثري هام .

وتسجيلاً لمعالم الرحلة .. أخذ أحدنا — أسعد شيرة — آلة تصوير
معه .. لتصوير ما يحلو لنا أو يبدو لنا أن نصوره من معالم الرحلة ،
مما قد نشاهده في خيبر ، أو في تيماء ، أو قبلهما ، أو بينهما ، من
معالم وآثار ومناظر ..

وفي الوقت المحدد كان رَتَلٌ مؤلف من ثلاث سيارات : صغيرتين
وونيت .. مستعداً . وإحدى هذه السيارات الثلاث صغيره من نوع
(الأولدموبيل) وهي بيضاء موشحة باخضرار ، وهذه هي السيارة
«القائدة» .. ووراءها السيارة الصغيرة الأخرى الحمراء المطرزة بالسواد

وهي من نوع الفورد ، ومن ورائها سيارة الونيت الحمراء اللون ، من نوع الفورد أيضاً ..

بدأ هذا الموكب الصغير سيره من المدينة صوب المشرق ، على الخط المسفلت الناحر مبدئياً لمنطقة المطار ، في « الحَفْصَةِ » بشرقِ المدينة . وقبيل المطار أشار رائد الرحلة بأن نوقف سياراتنا كيما تتزود من (محطة رشوان) الماثلة في الخط القائم قبيل المطار .. وقال : إن هذا جَارُنَا ، فما علينا إلا أن نملأ أوعية سياراتنا من نفط محطته .. وكذلك وقفت السيارات الثلاث واحدةً تلو الأخرى في نظام يوحى بالروعة والانسجام ، وعبثت بمادة النفط ، حتى فاضت خزاناتها جميعاً .. وكان هذا الصنيع من باب « الاحتياط » وإلا فإن لدينا في خزانات سيارة الونيت ما يكفي لإيصالنا إلى مشارف الشام ، على ما أعتقد ، بيسر وسهولة .

وبعد أن شربنا الماء ، امتطينا سياراتنا ، وسارت في طليعتها « السيارة القائدةُ الرائدةُ » التي يمتطيها كل من : السيد حبيب وكاتب هذه السطور ، ومحمد عيد الحيدري والسيد عدنان حبيب ، مؤذنة ببدء الرحلة على بركة الله .

وسرعان ما التوى بنا الطريق ، من شرقٍ إلى شمال .. بين جبال حُمْرٍ وُدُكْنٍ ، وبين طَلَعَاتٍ وَنَزَلَاتٍ ، ومرتفعات ومنخفضات ، وبين أودية وسهول .. وكانت سياراتنا تنساب انسياباً حبيباً سريعاً رشيقاً بين هذه التلال والوهاد ، وتمر بنا الأشجار والأعشاب والأنام مرَّ السحاب . وكان الإسفلت جديداً وقوياً متماسكاً ، وكان لا يخلو الطريق المقروش به من ضيق ، وكانت الأودية تتخللها أشجار السَلَمِ وشجيرات الرِّمَثِ ، إلى جسور من مادة الإسمنت شيدت فوق ممرات السيول الجارفة .

وبعد هنيهة رأينا أنفسنا ننعن في السير إمعاناً ، ورأينا الجبال تضيق

علينا الآفاق ، حتى لكأنها تريد أن تمتد أصابعها إلينا أو إلى هذا الخط الرقيق الممتد بينها كالأفعى .. وبعد أن سرنا نحو عشر دقائق أفضى بنا المسير إلى وادٍ فسيح جميل : « وَعَيْرَة » تتناثر فيه شجيرات السَّلم ، ويشقه الطريق من وسطه ، وقد تباعدت عنا بعض الشيء الجبال الدَّكْنُ المتراصة من يمين ومن شمال ، وشاهدنا في هذا الوادي الحميل ، الجمالَة الصُّفْرَ ترعى شجر السَّلم مادة بأعناقها المديدة اليه فكأنها أشجار ترعى أشجاراً .

وشاهدنا تلالاً مرتفعاً جداً ، أماننا ، يعلوه الطريق المسفلت ، مهندسة محكمة .. وكدنا نعتقد أن امتداده عمودي وليس أفقياً من شدة ارتفاعه . وسرعان ما علت عجلته سيارتنا بسهولة فإذا بها تعدو فوق متنه ، ثم إذا بها تهبط منه إلى واد عميق ، بسهولة ويسر .

في الصلصلة ١

وما زالت سيارتنا الثلاث مُهْطِعة بنا في نشوة واضحة ، وفرجة غامرة ، ونظام بديع في السير ، يتخلله حديث متواصل ، ونُكَّتْ وأخبار ، ومذاكرات ومباحثات ، حتى قال القائل لنا : إننا الآن في منطقة الصلصلة .

وبعد هنيهة لاحظت أننا دخلنا في سهل أحمر اللون ، متسع الجوانب وتناعت عنا الجبال قليلاً ، وصغرت أحجامها عن ذي قبل وتكاثرت آجامُ السَّلم والطلح أماننا وحولنا .

١ الصلصلة هذه غير الصلاصل التي بالمعقيق والتي أنشأ فيها عروة بن الزبير بستاناً معروفاً له في سابق الحقب ، في جنوب المدينة المنورة .

وفي الساعة الخامسة والربع تماماً .. كان رتلُ سيارتنا يقف بنا في مَحْطَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ «الصلصلة» .. ودلفنا إلى مقهى كان يقوم على يسار الطريق ، بعد أن تبينا أنه أنظف مقاهي المحطة ، ووقفت عنده السيارات ونزلنا منها ، فإذا صاحب المقهى بمانيّ وكان يستمع إلى مذياع يذيع أخبار اليمن وغيرها وهذا «المقهى» أَرْضِيّ لا أثر فيه للكراسي ، وإنما هنالك في داخله نحسف مفروش مستدير ، فجلسنا عليه ، في شيء من مضض ، فهذه حالة لم نألفها من قبل في المقاهي ، وطلبنا الماء والشاي وشربناهما على عجل .

وهذه الصلصلة لم أجد لها ذكراً في التاريخ .. وإنما هناك (الصلصل) والصلاصل وهي (على ما يبدو مما ذكره صاحب «وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى») من الأودية أو الأماكن التي تقع جنوب المدينة المنورة لا شَمَالَهَا .. كما هو حال «الصلصلة» موضع الحديث .

وعلى ذكر الصلصلة فهي قرية صغيرة ناشئة^١ ولها أمير اسمه علي ابن نهود من قبيلة «العُقْدَة» أهل هذه المنطقة من قديم ، وأخوه هو مطوّع القرية وإمامها ، وقد بدئ في زراعة النخيل والبقول بالصلصلة ، وفيها حدائق ناشئة . وبالصلصلة بضعة مَقَاهٍ ، وبضعة منازل ، بعضها مبنيّ باللّبن النّيّ ، وبعضها بالإسمنت ، وأفضل عماراتها مَبْنَى أميرها .. فهو أبيض ناصع البياض ، واسع الأرجاء ، وقد بني بالإسمنت وهو من دَوْرٍ واحد .

وماء الصلصلة عذب فرات ، قريب من سطح الأرض جليداً . . حتى لكأنه من «الاحساء» . وقيل لنا إنه هاضم للطعام ، وإنه صحيّ ، حسب ما قرره طبيب جاء إلى هذه الناحية قبل مدة من الزمن .

* *

١ تتبع إمارة الصلصلة إمارة المدينة المنورة الآن .

وقد أقبل علينا أمير الصلصلة ، محيياً ، وأقبل معه أخوه الأكبر منه سنّاً ، وهو مطوع القرية ذو اللحية الكبيرة المصبوغة بالحناء ، وذو الوقار والهدوء .. وقد هم الأمير بأن يستضيفنا ، ولكننا اعتذرنا له بشئ الأعذار ، فقبلها بعد لأيٍ .

وستصبح الصلصلة - إن سارت الأمور على هذه الوتيرة - إحدى متنزهات المدينة المفضلة ، لطيب مناخها ورقة هوائها ، وعذوبة ماثها .. ولقربها من المدينة الآن بهذا الخط المسفلت وبالسيارات التي ترتادها بسهولة ويسر .. وقال لنا أميرها فيما قال : إنها كان بينها وبين المدينة قبل مدّ الاسفلت ، خمسة أيام ذهاباً ، ومثلها إياباً ، وربما كان ذلك على أجمال .. أما اليوم فكل ما بينها وبين المدينة هو (١١٠) كيلومتر ، تجتازها السيارة الصغيرة في نحو ساعة ونصف ساعة من الزمان .. وقال لنا أيضاً : إنه فيما قبل العهد السعودي كان البادية يغيرون عليهم في الصلصلة وتحصل مذابح بينهم .

والصلصلة واد فسيح مستطيل ، يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وتتحفّ به حرتان ، من شرقه ومن غربه .. ومثله في هذا ، قرية خبير ، وفي الوسط منه في مكان مرتفع ، تقع قرية الصلصلة الصغيرة الناشئة .. ومثله في كل ذلك قرية الصويدرة الناشئة ، فان وادها تحف به الحرة من غربه ، والقرية في مكان مرتفع .

وبالصلصلة ، كما قيل لنا - (١١٠) آبار ، كلها قريبة الماء من سطح الأرض ، ولا ينضب ماؤها في صيف ولا في شتاء ، مهما يُنَزَح منه .. وبها مضخات ماء زراعية .. وشجر السلم والطلح متناثر فيها بكثرة كسائر أجزاء هذه المنطقة الشمالية حتى مبتدأ منطقة تيماء ... وبالصلصلة ، يوجد إلى جانب بيوت اللبن والاسمنت ، بيوت الشعر يسكنها البادية .

الى خيبر^١

وبعد أن استعدنا نشاطنا في الصلصلة ، امتطينا سيارتنا ، وسارت
«السيارة القائدة الرائدة» أمامهن ، تتبختر على الطريق المسفلت وتدلّفُ
بسرعة فائقة ..

— إلى أين أيها الركب المسرعون ؟

— إلى خيبر !!

وخيبر بلد أثريّ له تاريخه القديم في جاهلية وفي إسلام .. ويقول
«معجم البلدان» : إنها سميت ، بـخيبر بن قانية بن مهلائيل بن لرم
ابن عبيل ، وعبيل أخو عاد بن عوص بن لرم بن سام بن نوح عليه
السلام ، وهو عم الربذة وزرود والشقرة^٢ بنات يثرب ، وكان
خيبر المذكور أول من نزلها .. على قول ياقوت الحموي . وبلدة خيبر
موصوفة بالحمى ، بسبب المستنقعات المنتشرة فيها قال شاعر :

كَأَنَّ بِهِ إِذْ جِئْتَهُ خَيْبَرِيَّةٌ

يَعُودُ عَلَيْهَا وَرَدُّهَا وَمَلَاهَا

ويلاحظ أن الشاعر وصف الحمى بقوله : (خيبرية) من غير أن
يسمّيها لأنها معروفة في أوساط العرب .

وتقول دائرة معارف بطرس البستاني : إنّ حير - ت في الزمان
القديم للعائلة ، ثم صارت لبني غرة بن أسد بن ربيعة ، وهي الآن

١ تتبع إمارة خيبر إمارة حائل ، منذ أسست الحكومة السعودية حتى الآن . وكانت تتبعها من قبل .

راجع قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٦٨ .

٢ الربذة ، وزرود والشقرة أسماء مواضع حول المدينة لها ذكر في تاريخها وقد شاهدت بعضها في
إحدى رحلاتي .

لبعض البادية من عَنَزَةَ ، وأهلها أمشاج من الناس . وهي على ثمانية بُرْدٍ من المدينة ^١ لمن يريد الشام ، وتشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . وأساءُ حصونها : حِصْنُ ناعم ، والقموص حصن أبي الحقيق اليهودي ، وحصن الشق ، وحصن النظاة ، وحصن الوطيع ، وحصن الكتبية ، وحصن السَّالِم . وقد غزاها النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع أو ثمان للهجرة في ١٤٠٠ رجل ، معهم ٢٠٠ فارس ، وافتتحها ، وأقر اليهودَ على قيامهم بالنخيل ، وعاملهم على الشطر من التمر والحَبِّ ، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه ظهرت منهم الفاحشة وعبثوا بالمسلمين ، فأجلاهم عُمُرُ إلى الشام . . وقد فعل ذلك لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » .

وقد كان حصنُ السلامِ آخِرَ حصن فتحه الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوته لخِبر ، وقد خرج منه مرحب اليهودي وهو يقول :
قد عَلِمْتُ خِبرُني مَرَحِبُ أظعن أحياناً وحيناً أضرب
شاكي السلاح بطلُ مُجَرَّبُ إذا الليوث أقبلت تلتهبُ
كان حِمايَ كالحِمْي لا يُقربُ

ويبدو لي أن حصن السلام المعروف بـ حصن مرحب إنما دُعي بهذا الاسم لوجود هذه السلام الحجرية والتي لا تزال به ويصعد اليه منها ويتزل منه بها وهي كثيرة لأن الحصن يقع على قمة الجبل .

وسارت بنا السيارات في هذا الطريق اللاحب المسفلت صوب خِبر ، تبعد عنا ومن ورائنا اثنتان من سياراتنا ، تارة ، وتقربان تارة . تبعدان إذا أغدذنا السير ، وتقربان إذا خففناه .. وقد اجتزنا وهاداً وأنجاداً ،

١ بينها وبين المدينة على خط الأسفلت ١٦٠ كيلومتراً .

وتباعدت عنا الجبال ، وكانت منطقة الطريق منسجمة في طبيعتها مع طبيعة منطقة الصلصلة ، حتى إذا قربنا من وادي الدّوم « شاهدنا تغيراً في معالم الأرض ، فهذه منطقة حِرارٍ محترقة .. إذن لقد دخلنا مشارف خيبر . وخيبر كما نعلم تقع بين حِرارٍ .

في وادي الدوم *

دخلنا وادي الدّوم أو أودية الدوم ، فهي أودية وليست وادياً واحداً .. والدّوم هو نخيل هذه الأودية .. والدّوم شجر من فصيلة النخيل ، يشبه النخيل في الشكل العام ، ويختلف عنه في الثمار ، فثمار الدوم كِبَار ، ونواها أكبر من ثمارها . والثمار عبارة عن لحاءٍ داخليّ تقع بين النواة الكبيرة والقشرة الخارجية .. وهو أبيض مائل إلى الصفرة وهي حمراء دكناء عليها شيء من البريق إذا نضجت .

أما ثمار النخيل فبالعكس من ذلك .. وقال لنا السيد أديب صقر : إن جذوع الدوم لا تكاد تبلى ، ولا يلحقها السوس بأذى ، مهما يطُل عليها الأمد .. وقال السيد حبيب : الآن فهمتُ لماذا أوقَفَ بعضهم شجر الدّوم على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادي الصويدة - وادي الترة - وذلك لتُبْنى سقوفه من جذوع الدوم . فلا يلحقها سوس أو خراب أطول أمد ممكن .

ولوادي الدّوم هذا ، ذكر في التاريخ .

(*) وجدنا كذلك بعض شجر الدوم هذا في الصويدة ، سنة ١٣٥٤ هـ ، وجدناه متعانقاً في كتلتين أو ثلاث قرب مجرى سيل وادي الصويدة صغيراً . وفي سنة ١٣٨٧ هـ وجدناه قد كبر كما هو مشروح في فصل (الصويدة : عود على بدء) من هذا الكتاب .

ولقد رأينا ثمر الدوم متدلياً ككُرات كبيرة ، فقررنا أن نأخذ
معنا شيئاً منه من باب التذكّار لهذه الرحلة في طريق عودتنا .. ولكنه
لم يكن نضج .

في خيبر

ومضينا في طريقنا واكتفتنا الحِرارُ وضيقَت علينا خط سيرنا .
وفي الساعة السادسة والربع ظهر اليوم نفسه ، وصلنا مشارف خيبر ،
وأشرفنا عليها من علٍّ ، وشاهدنا أبنيتها المتداعية المتهالكة . ورأينا
أطلالها القديمة الشبيهة بالأطلال المائلة ، في حرّة المدينة الشرقية ..
وهنا جرت على الألسنة من الأفكار ذكرياتُ جهاد الرسول عليه الصلاة
والسلام ، لِيَهْدِ خيبر ، وفتحها لحصونها المنيعة عنوة وصلحاً .
ودخلنا خيبر ، فإذا منازلها حَجَرِيَّةٌ وطِينِيَّةٌ صغيرة ، وفي مدخل
خيبر الوحيد توجد محطة نفط ، لصاحبها : عبيد القُرَبان ، وهي محطة
لضخ النفط بالآلة الأوتوماتيكية ، على النحو المستعمل في كبريات مدنِ
المملكة ..

وقرية خيبر واطئة جداً عما يحيط بها .. تحيط بها حرتان : شرقية
وغربية ، وفي داخلها جبل عليه الحصن القديم الذي يُدعى « حِصْن
مرحب » وهو مقر الإمارة ، وهو أحد حصون خيبر القديمة .. وهو
مبنى بحجارة منحوتة بدون ملاط ، كسائر أبنية المنطقة الشمالية الأثرية ،
ولعل ذلك من عوامل بقائها إلى اليوم .. فالملاط يتفتت . فتسقط الحجارة
التي كانت متماسكة به ، أما إذا لم يوجد ، فالحجارة باقية على بعضها
طيلة الدهور لا تزول ولا تحول .. ولا تسقط ولا تتحرك عن مواضعها

ما لم يحدث لها أو فيها ارتجاج كبير يؤثر عليها بالذات ...

وبجنوب خيبر جبل أحمر ، وبشمالها كذلك .. ومداخلها من ناحية الجنوب ، تتكون من أراضي طمي واسعة الأرجاء .. وحرثاتها : الشرقية والغربية تذكرانا بجرتي المدينة : الشرقية والغربية .. وجبلاتها الجنوبي والشمالي يذكرانا بجبلي أحد وعسير . ومخرج خيبر من ناحية الشمال واطى كذلك .

وقد أوقفنا سيارتنا على جانب الطريق العام المسفلت الذي يحترق قرية خيبر من طرفها الشرقي في الطريق إلى تياء ، ودخلنا القرية مشياً على الأقدام ، لنشاهد معالمها من كتب ، ولنتفهم واقعها عن مشاهدة وعيان .. وكان أول ما أثار انتباهنا هو ما يدعى بحصن مرحب .. وقد اتجهنا إليه سالكين طريقاً أو زقاقاً كريهاً في منظره ومخبره ، متعرجاً ضيقاً ، تجري ببعض جوانبه أقبية ماء متعفن آسن ، من عين غير غدقة ، لهم ، هناك ، تقع في الناحية الجنوبية الشرقية من البلد ، وقد سددنا أنوفنا ، ونحن نجتاز بعض الأماكن ، مما نلاقه من رائحة المستنقعات ، وضيق الأزقة وغبارها .. وسرنا حتى وصلنا مقبرة الشهداء وكانت مهمة في مرتفع ضئيل من الأرض قبل حصن مرحب ، وتبدو عليها حجارة الشواهد متناثرة غارقة في الطين اليابس وبدون أية عناية ، وليس عليها سور ، إنها معرضة للمرور ، ولكل شيء .. ومما يرحى العناية به تسوير هذه المقبرة الكريمة حفظاً لها من الأذى .. كما صنّع في غيرها من مقابر الشهداء في مكة والمدينة ..

ومن هناك توجهنا إلى المسجد الذي قيل لنا انه مبني على أرض المعركة — المعركة التي جرت بين الرسول عليه السلام ، واليهود في خيبر — وقد دخلناه وأخذنا له رسماً من الداخل .



حصن مرحب بخيبر مأخوذ من ناحية جنوب غربي الحصن ،
(يشير السهم إلى مدخل الحصن)

وهو مسجد مبني بطين ولّبين (بفتح اللام وكسر الباء) مستطيلُ الشكل ، وفيه محراب لا أثر فيه للزخرف ، وهو غير مُبيّض ، وليس له مِثدنة .

وتأملنا قصر مرحب من تحته .. فإذا به مُشيدٌ على جبل عال في وسط خيبر ، وهو مقر الإمارة اليوم كما قدمنا ، وبناء حصن مرحب — أو حصن السّلام — كما هو اسمه التاريخي — بالحجارة المطابقة التي لا أثر فيها للملاط . ويبدو لي من شكله أن البناء الأصليّ هو ما كان أسفل من ناحية الأساس . أما ما فوقه من بناء فهو مستجد ، كما أن اللّبين الذي هو فوق هذه الحجارة هو جديد بطبيعة الحال .. والحصن متآكل يبدو عليه أثر القيدم ، وهو من دَوْرٍ واحد ، ويُشرف على

خير ، كما تشرف قلعة سلّج على المدينة المنورة ، وحِصْنُ السموأل على تيماء . ولحسن الحظ أخذنا رسماً لأمير خير الشيخ عبد الرحمن الحمدان ورجاله وهم هابطون من القصر أو الحصن لصلاة الظهر في المسجد الذي سبق ذكره .

وقد تجولنا في أنحاء خير ، في أزقتها الضيقة الشديدة الضيق ، فهي من الناحية الأخيرة تشبه حالة منطقة القطيف حين زُرْتُها سنة ١٣٧٥ هـ ..

والناس في خير ضامرون واهنو القوى الحسمانية ، ولعل ذلك راجع إلى ما ينتابهم من حُمى المَلاريا : (البرداء) وهم بطبيعة اختلال صحتهم كُسَالَى ، يمشون الهُوَيْقَى ، متثاقلين ، ولا يَبْدُون في الأزقة إلا فرادى .. لعلم يفضلون النوم أو الاسترخاء في منازلهم ، في الفترات التي تعقب أو تسبق نوبات الحمى المعتادة لديهم .. حتى الموظفون الذين يقيمون بطرف خير الجنوبي الأعلى ، في منازل معدة لهم هي خيرٌ بكثير من الأخرى - حتى هؤلاء تبدو عليهم مسحة من عدم انتظام الصحة .. حسب ما يترأى على سحناتهم وحتى النخيل تراه ضامراً هزياً متلاصقاً ، يبدو عليه أثر الضمور والهزال ..

وفي خير مدرسة حكومية ابتدائية لتعليم الصغار كانت منزل أحد المستشرقين ، على ما رواه فيليب في كتابه : (أرض الأنبياء) ، وتتبع المدرسة وزارة المعارف .

وأبواب المنازل في خير لا بدّ من الحديث عنها .. لأنها أشبه بأبواب الخزائن ، وهي تُصنَّعُ محلياً من جذوع النخيل ، بأن يُشَدَّ بعضُ



أحد بيوت خير القديمة

هذه الخدوع إلى بعض ، وقد لا تتجاوز المتر والنصف طولاً ، والمتر عرضاً ، وهي تُقْفَلُ بشكل عجيب ، فلها ضَبَّاتٌ خشبية ، وفوق الضَبَّةِ جبل من سعف مشدود به الباب أفقياً ، وفي وسط هذا الجبل عقدة مربوطة في خشبة عمودية .. عقدة لا نفهمها .. ولا ندرك مغزاها .. ولا أساسها ..

ودلفنا إلى منبع عين خير ، وتقع في مكان بناحيتهما الجنوبية يشبه الفضاء . والمنبع مسور بسور من حجر الدبش الأسود .. غير المنتظم في البناء .. والبناء في جملته وتفصيله متداع ، وهو مربع الشكل أو شبه مربعه .. وترى الناس من حوله يغسلون ملابسهم وأنفسهم وارتقيننا إلى طرف من سور المنبع لنشاهد العين من كثب .. فإذا بالماء يسيل منه واهناً آتياً من ناحية الجبل الذي يقع بالجنوب .. وقد وضع بعض الناس على المنبع (حصيراً) لتصفيته كما

يبدو .. الحصر في حد ذاته بالٍ ومتسخ وقذر ، فيا عجباً من قَدَرٍ
يُصَفِّي قَدَرًا ...

* * *

ومما مررنا به سوقُ خيرٍ القديمة في داخل البلد ، وهي مغلقة
مهجورة الآن .. وعليها أقفال من حديد ، وأقفال من خشب :
(ضَبَّاتٌ) .

* * *

وقُصُور خيرٍ أو دُورها القريبةُ من هذه السوق إلى ناحيتها الغربية
الشالية صغار أشبه بالأوكار .

* * *

وقال لنا مرافقنا الخيريّ : انه توجد سوق جديدة غير هذه ..
وسار معنا ، وسرنا معه حتى بَلَغَ بنا أو بَلَغْنَا به إلى طرف خيرٍ
الجنوبي المرتفع عن وهدتها .. ووصلنا هذا المكان ، والترابُ يعفرنا ،
والغبار يغطينا ، ولم نر شيئاً صحيحاً سَمِيناً في خيرٍ سوى الحمير
والبقر .. فلا بُدَّ أن لهُذين الحيوانين حصانة طَبَعِيَّةً من الحُمى الخيرية
المشهورة .. لا بُدَّ أن لهما وقاية جسمية أو نفسية جسيمة ، تحميها
من سريان سموم بعوض (الأنوفيل) ولسعاته الفتاكة ^١ .

١ الأنوفيل : البعوض الذي يولد لسعه حمى البرداء (الملاريا) ويمتاز بأنه مخطط البدن .. بلونين
أبيض وأسود .

والسوق الحديدية عبارة عن سطرين مضطربين يتكونان من خرائب متناثرة ، وفتحات مسدودة بأبواب جذوع النخل المضّسبة .. ورأينا من كثب ، واحداً من هذه (الدكاكين الحديدية) وبداخله أشباح من الناس يلفهم الظلام الدامس في باطنها لفساً ، فلا يتبين إلا برهيق عيونهم وملابسهم البيض ، وبعض حاجيات متناثرة بغير ضابط في أرض الجحر أو الكهف أو الدكان الحديد ...

ونأمل أن تلقى خير من العناية الصحية ما تستأهله كبلد زراعي خصب ذي مياه ثرة ، فتطمّر المستنقعات وتُنظّف العيون في منابعها وقنواتها ، وتقاوم حمى الملاريا بالوسائل الطبية الحديثة من علاجة ووقائية .. بصفة مستديمة وعميقة وجدية .

ونأمل مع ذلك أن تلقى من العناية الزراعية ما تستحقه في انتاجها وحقوقها ومياهها وأشجارها ونخيلها .

ونأمل أن تنال من وزارة الشؤون الاجتماعية ومن مجلس التخطيط الأعلى^١ الرعاية الكافية لعمالها ومزارعيها ، ولشوارعها وأزقتها ودورها ، تنظيمياً وتخطيطياً ، وتوسعة وتبليطاً ..

نأمل أن تنال خير كل ذلك لتتحول حالها من حسن إلى أحسن ، في كل شيء .. ولتتضخم وتتسع وتصبح مواردها الزراعية الغنية ذات أثر حميد في أنحاء المملكة .. فالماء الذي هو عماد الحياة متوافر فيها بشكل كبير ، والأرض خصبة ، والأمن وارف الظلال والناس إذا صحّوا نشطوا للعمل المجدي ، وعندئذ تجود الأرضون بالخيرات والثمار

١ صار اسم هذا المجلس فيما بعد : الهيئة المركزية العليا للتخطيط .

والإنتاج الحافل .

بعد أن عدنا أدراجنا من جولتنا في خير رأينا على جانبي الطريق المسفلت مقهى فيه أناس جالسون يشربون الشاي والقهوة وقد تجاوزناه في الطريق إلى سيارتنا اللائي كانت بانتظارنا آنذاك .

وكنا قد أوعزنا إلى سيارة (الونيت) التي تقل أرزاقنا وماعنا وأمتعتنا بأن تسبقنا وأن تُتَابِعَ السير قُدُماً حتى تبلغ الساعةُ الثامنةَ ، وعندها تقف ، ورأيناها وهي تحترق طريقها إلى الشمال .. في نشوة وقوة وتصميم ..

في الطريق الى تيماء

وقد بلغت الساعة — ونحن على أبواب سيارتنا — الساعةَ والرُّبْعَ من النهار ، وقد اشتد حميم الشمس وَيَبَسَتْ شِفَاهُ بعضنا من الظمأ .. وكان كاتبُ هذه السطور من هؤلاء الظِّمَاءِ .

وامتطينا السيارات الصغيرة وسارت بنا تنهادى في سيرها الخثيث .. وحوالي الساعة السابعة والنصف تعطل قلب سيارتنا : سيارة القيادة .. فقد انبعث من قلبها دخان ورائحة .. فَجَزَعَ السائق حَمْدَ الدُوسَرِيِّ من هذه الحركة .. وأوقف السيارة على مَهْلِكٍ ، وحينما كشف عليها بدقة وإمعان ، قال لنا : إن قلب مولد الكهرباء قد احترق فَخَالَجَنَّا نوعاً من الاضطراب .. فقد كنا زایلنا خير ، وتركنا

سيارة الماء والطعام والأمتعة ، وهي - حسب الخطة المرسومة لها - لن تقف إلا بعد أن تصل إلى المدى المحدود لها .. كالاقمار الصناعية التي تطلقها دول العصر الكبرى لأغراض سلمية وحربية خفية فلا تتوقف إلا في المدى المحدد لها .. والشمس من فوقنا محرقة ، والجبال من حولنا ملتهبة ، والظمأ مُتَفَشٍّ في بقية الركاب ، ولا ماء لدينا في سيارتنا ولا في هذه التَّنَوُّفَةِ الجرداء .. وكان السائق حكيماً ولبقاً ، فقد فصل البطارية عن المولد ، فصارت البطارية هي التي تتحمل عبء تحريك السيارة وتسييرها وحدها .. بما اختزنته من كهرباء .. وسرنا على بركة الله سيراً حثيثاً إلى الشال على شيء من القلق وشيء من الأمل . وسارت خلفنا السيارة الصغرى الأخرى ومررنا بعمال « شركة المشاريع العامة » القائمين بسفلة هذا الطريق من المدينة حتى تبوك .. مررنا بهم وهم منهمكون في نشاط وحماسة في رش مادة مائعة من الاسفلت على الاسفلت الحاف ، لتشكلا الطبقة التي تغطي وجه الطريق ، وتكسبها النعومة والبريق . ونال عجلات سيارتنا رشاش من هذه المادة التي تشبه القطران في الميوعة والسواد والبريق .. إن هؤلاء العمال أو مهندسهم لم يحسبوا للسيارات الذاهبة والقادمة ، أي حساب ... وهكذا رشوا الطريق المسفلت كله بهذه المادة الخبيثة الطيبة في وقت واحد .. والممران الأرضيان من حول الخط المسفلت ضيقان لا يكفيان لمرور عجلات السيارات كلها .. فلا بد إذن من أن يغوص جانب منها في بعض هذا السائل الذي يلوثها ويلوث ما فوقها أيّ تلويث ..

جرعة ماء

بعد أن اجتزنا منطقة القطران مررنا على مُعَسَّكِرٍ : (كَمْب)

الشركة ، ورأينا الزمزميات معلقة ، بأطراف الخيام ، فتشبهنا أن نطلب منهم جرعة ماء نبل بها الريق ، ولكن سير السيارات كان أعجل من الانتظار أو النزول .. ثم مررنا على مُحَيِّمٍ أمير خيبر ، وقد اختار الأمير أن تكون اقامته في هذه المنطقة الصحية .. وهي منطقة فيحاء جميلة نقية الهواء ذات بطحاء حمراء مغرية .. وَنَصَبَ خيامه بها ، وحفر له فيها بئراً للسقيا ، ونصب أعمدة اللاسلكي فيها .. فهو يقضي بياض نهاره في خيبر يَحْكُمُ فيها بين الناس وَيُصَرِّفُ شُؤُونَ الإمارة ، فإذا انتهى من عمله الرسمي اتجه إلى منطقتة المفضلة يقضي فيها أوقات فراغه وطعامه وشرابه ونومه ولوازمه الخاصة ..

وتابعنَا المسير صوب الشَّمال ، وصرنا ننظر ملياً في ساعاتنا ، فإذا بها قد بلغت الثامنة والرَّبع ، وَقَدَّرْنَا مدى بُعْدِ السيارة الوئيت عنا وَحَمَنَّا أَنها لا تزال تجري إلى الأمام ، كأحد الأقمار الصناعيّة المصنَّوَّةِ إلى هدف معين ، كما قدرنا أننا لن نبلغها حتى تدق الساعة ، التاسعة والنصف على أقل تقدير .. وهذا وقت طويل ، والظمأ يحرق حلقنا ، ويجفف ريقنا ، ولكننا صبرنا وتلثمنا حتى لا يَدْخُلَ الهواءُ الحار إلى أفواهنا وأجوافنا فيزيدنا ظمأً على ظمأ ، فَعَلَّ ذلك أول من فعله ، محمد عيد الحيدري ، وتابعته .. وبعد هنيهة رأينا سيارة من نوع اللّوري ، واقفة على حافة الطريق ، وما إن لمحناها حتى تصايحنا : لنقف هنا ، ولنطلب من سائق هذه السيارة جرعة ماء .. وقد خاب أملنا حينما وقفنا لإزاءها ، فإذا بها معطلة وليس بها أحد ، فتركناها وراعنا ، ثم عارضتنا سيارة كبيرة أخرى قادمة من ناحية تيماء .. فاستوقفناها وطلبنا من سائقها (جُرْعَة ماء) .. وقد

أجاب طلبنا بساحة نفس ، وارتوينا من ماء زمزميته الزلال .. ثم سألناه عما إذا كان قد شاهد في الطريق سيارة ونيت حمراء ؟ فأجابنا بأنها واقفة ومعطلة على مسيرة نحو عشرة كيلومترات منا ، فتأثرنا من جهة وحمدنا الله من جهة أخرى ، إذ قد اقتربنا من سيارة الماء والزاد ، وعقب مسيرة نحو عشر دقائق رأينا سيارة الويت ، واقفة إلى الجانب الأيمن من الطريق ، وسائقها ومن معه منهمكون في البحث عن شيء لا نعلمه.. وبعد أن وصلنا اليهم أدركنا أن (ضبّة) أو (طبّة) السيلندر قد سقطت ، والسيارة تسر ، فنزل جميع ما في (اللدّير) من ماء يُبرّد المكينّة إلى الأرض ، وبذلك اضطر السائق « ناجي حامد » إلى التوقف عن المسير ، وحدث تساؤل منا .. (والحاجة أم الاختراع) و (لكل نازلة فاصلة) .. وقد أجمع رأي الإخوان أخيراً على أن نبث عن عود أو خشبة ، وننحتّه أو ننحتّها ونجعلها على مقياس من محل الضبّة أو الطبّة ، ثم نحشوه به أو بها ، فإذا امتلأ فراغ المحل امتلاءً محكماً فقد حصل المقصود وزال المحذور .

وبعد المداولة في كل هذا وإقراره رأينا أن الوقت قد مضى كثيراً وأكثر مما يلزم .. فالساعة الآن تشير إلى الثامنة والنصف ، ونحن لم نذق طعاماً من الصباح .. وعلى ذلك قررنا النزول في هذا الوادي ذي الأشجار المظلة . برغم ما ينتشر فيه من أشواك حادة مسنونة .. وبالفعل ترجلنا ونزلنا ..

وتحت شجرة طلح شائكة كبيرة بسطنا أفرشتنا ، وكان الطاهي قد أوقد النار تحت القدر الكبيرة ، وبدأ في إعداد وجبة الغداء الدسمة .. وقد تركنا المختصين منا يبحثون عن عود للضبّة ، وسرعان ما رأوا أن يقطعوا عوداً من شجرة طلح في حجم معين قدروه ، وشذبوه تشذيباً محكماً ، ثم وضعوه في محل الضبّة الساقطة فاستوى به كقطعة

من حديد موزونة ، وملأوا (اللدتر) بالماء وجربوا السيارة جيئة
وذهاباً ، فإذا كل شيء على ما يُرام ، وعندما علمنا بهذه النتيجة
السارة دأخَلْنَا الاطمئنان وزال الغم ، وطاب لنا المَقَامُ والطَّعَامُ . فأتينا
بسيارتينا الصغيرتين ، ووضعناهما أمام بعض ، وفتحنا بينهما مكاناً
سويّاً كَنَسْنَاهُ من الشوك ، وفرشناه ، وبسطنا (حنبلاً) كبيراً ،
فوق السيارتين المتقابلتين لنستظل به ، ومن ثم قَدِمَ لنا الغداء ..
فتناولناه بشهية .

وفي أثناء جلوسنا ، عَنَ لِأَحَدِنَا أن يفتح (المِذْيَاع) لتتصل
من طريقه بالعالم في هذه البرية المقفرة ، وقد راعنا أن سمعنا منه فجأة
بأحداث (كُوبَا) المزعجة ، فأرهفنا الأسماع ، وخطر ببالنا أن
شرارة الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت ، وعمّا قريب يلقي العالم أسوأ
مصير ... ونحن في برية هوجاء .. ولكننا لم نضطرب ، ولم نقرر
العودة للمدينة ، قلنا : لِيَكُنْ ما يكون ، فنحن في طريقنا إلى
تيماء ... برغم أن الإنذارات الأمريكية المصممة بالقضاء على صواريخ
المهجوم السوفيتية المنصوبة في قواعد لها بِكُوبَا ، تنذر بخطر عالمي
جسيم وشيك الوقوع بين لحظة وأخرى .. ولا نعلم مدى مفعول هذه
الإنذارات في الجانب المقابل .. والأمر جد - كما يبدو - وليس
بمناورة .. فأمرينا قد أدركت أن أمن نصف الكرة الغربية معرض
لخطر بالغ ، ولا بُدَّ من القضاء على هذا الخطر بأيّ ثمن ... وإذن
فهي نُذُرُ الحرب العامة الثالثة تلوح في الأفق من كتب ... وترقبنا
(رد الفعل) في الجانب السوفيتي ، فعليه ، يتوقف الأمر سلباً أو إيجاباً ..
وبعد الهزيع الأول من الليل أَنَحْنَا رَكَائِبُنَا ، أو ترجلنا عن سيارتنا وفتحنا
المذياع مرة أخرى ، فإذا بروسيا تذيع بياناً رسمياً مطولاً عن الحادث
الكبير الخطير ، وإذا بالبيان يحمل في طياته الانحناء للعاصفة الأمريكية لكي
تمر بسلام ... إنه يدعو ضمناً وأخيراً ، إلى عرض الموضوع على مجلس

الأمن .. وعندئذ أدركنا أن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة الآن قد زال أكثر ضبابه المشؤوم .. كما أدركنا مدى قوة أمريكا ، العالمية والحربية والإرادية ، من هذه الحادثة بالنسبة لخصمها السوفيتي الذي استعرض عضلاته ثم طواها بلباقة .

هذا وفي الساعة الحادية عشرة والنصف حزمنا أمتعتنا ووضعناها في سيارتنا ، واتجهنا بها ، أو اتجهت بنا ، صوب الشمال .. وقد أعجبنا منظرُ الشمس في الصحراء ، وهي تكاد ترتمي بين أحضان قِمَمِ الجبال التي تحيط بهذه الأودية المتعاقبة من قديم .. كمسافر أنهكه السير بياض النهار ، فأوى إلى قرار مكين .. ليأخذ قسطاً من الراحة يستأنف بعده المسير صبيحة اليوم التالي إلى حيث يُريد .

والهدف بعيد مجهول المكان والمدى .. ألا ما أجمل السيارات البيض والحُمْرَ الصغرى ، وهي تتهاذى فوق بساط الطريق الأسود الناعم في خفة ورشاقة كالعرائس !! وما أجملها وهي تصعد في خفة ورشاقة ، الأنجاد ، وتهبط الأودية !! وما أروع ألوان الجبال من حولنا ، من أخضر إلى أبيض إلى أصفر وداكن ، مما ينبؤنا بتشبعها بأنواع المعادن التي تتطلب رجالاً علماء عاملين ، ليفيدوا البلاد من معادنها المستقرة في أجواف هذه الكتَل من الحجارة ..

في السهل الأفيح

وبعد هنيئة من مسيرنا ، وقُبَيْلَ أن تتوارى (ذُكَاءُ) عن الأنظار وتستقر في غيبتها العجيب البعيد ، انفتح أمامنا سهلٌ رمليٌّ

أفصحُ لا نرى له حدوداً ، وتخلفت الجبال والأودية من ورائنا .. حقاً
لقد خرجنا الآن من طبيعة أرضٍ ، إلى طبيعة أرضٍ أخرى ..
فهل يا ترى خرجنا من منطقة خيبر ودخلنا منطقة تياء .. منطقة الفراغ
اللاتنهايي تقريباً في أنظارنا وشعورنا ساعتئذ ؟ .. وقد اندفعت السيارات
في سيرها اندفاعاً ضرب الرقم القياسي في السرعة نحو ذلك الأفق البعيد
البعيد ، الذي يربط كرة الأرض السوداء ، بقبة السماء الزرقاء في الآفاق
البعيدة الجرد .. وقد شعرنا عندها بنوع من القلق يساورنا .. وبجو
من الخوف يحيم فوق رؤوسنا ، وربما كانُ جلُّ سبب ذلك جهلنا بمدى
المسافة التي سنجتازها إلى تياء ، خاصة ونحن الآن في قفر واسع
الأرجاء .. لعلّه طرف من النفود الكبير ..

وبعدُ ، فما أحوج كثيراً من مناطق بلادنا الواسعة كهذه المنطقة إلى
أناس صالحين مصلحين كثيرين يعمرونها ..

* * *

وما زلنا نسير ونسير في اندفاع شبه مجنون وسط هذا السهل الأفصح
الذي يبدو ، كأن لا نهاية له ، وكلما أوغلت غيلاً الظلام في
الالتفاف من حولنا ازداد قلقنا ، وازدادت سياراتنا إمعاناً في الاندفاع
إلى الأمام .. ترتاد ذلك المجهول البعيد المنشود .. كأن لها إحساساً مثل
إحساسنا ، وبها قلقاً مثل قلقنا ، ولها أهدافاً مثل أهدافنا .. وكانت
عَدَدَاتُ سياراتنا تشير إلى : (٨٠ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٤٠ ،
١٥٠) ... وأخيراً أطبق علينا الظلام من كل جانب ، ونحن في وسط
السهل الممتد من كل جانب ، وقد نال منا التعب والاعياء ، وحدث
أن تأخرت عنا بعض سياراتنا في هذه التنوفة القفراء بسبب إمعان
« السيارة القائدة الرائدة » في السير الحثيث .. فاضطررنا لانتظارهن ،

وأزمنعنا أن نوذي صلاة المغرب والعشاء جمعاً وقصرًا ، ولكنّ التعبَ الذي فَتَّ في أعضادنا وحلَّ من قوانا ، حال بيننا وبين ذلك مرغمين . فأجمعنا أمرنا على تأخيرهما إلى فرصة أخرى من الليل .. وأخيراً تسمّرت عيوننا على خط السير الذي اجتزناه .. وبعد نحو ساعة لمَحْنَا بصيص نورٍ يلوحُ في الأفق من بعيد ، وإنه ليبدو ويختفي ، ومن ورائه أقبلت السيارتان وراء بعضهما تزيجران ، وقد حمدنا الله على جمع الشمل في هذه الصحراء الموحشة المجهولة .. وفي وسط هذا الظلام المطبق .

ولما أنيسنا بشيء من الراحة استأنفنا السير نحو ذلك المجهول المنشود .. وسِرْنَا في ظلام شديد السواد تشقه أضواء سياراتنا ، وتتلألأ من فوقه النجومُ التي ترصع كبد السماء وجوانبها ، ولم يكن هناك أثر للقمر .. إنه في دَوْرٍ استجمامه أو محاقه ، فهذه الليلة هي السادسة والعشرون من الشهر .

وبعد أن سرنا نحو ساعتين لمحنا بصيص أنوار من بعيد ، وسمعنا نَأمَةً أناس ، ونباح كلاب ، وثغاء شاء ، فقدَرْنَا أننا قد اقتربنا من المجهول البعيد المنشود : (تيماء) . ولكنَّ صُدْمَنا بالواقع الأليم .. فما ذلك إلا بعض مضارب البادية الذين يقطنون متنقلين في هذه التنوفة الجرداء ..

وفي تمام الساعة الثالثة ليلاً بالتوقيت العربي المحلي ، بدَأنا نبحث عن مكان صالح للبيات بجانب الطريق ، على أن يكون خالياً من الحُحُور التي قد تكون مأوىً للحشرات والآفات .. وطال بحثنا على أضواء السيارات .. وأخيراً وصلنا إلى مكان اتفقنا على صلاحه للمهمة المنشودة .. فحططنا رحالنا ، إن صح هذا التعبير ، وفرشنا بَسْطَنا وأفرشنا وأوقدنا مصابيحنا المتوهجة : (اللوكسات) ورفعناها في مكان

عَلَيَّ ، وأشعل الطاهي النار للطعام ، وللشاي ، وبعد أن تناولنا العشاء
الدسم ، وشربنا أكواب الشاي المنعنع ، أسَلَمْنَا أجفاننا لنوم عميق
حتى الصباح أو قبيل الصباح .. على التعبير الدقيق .

أما كاتب هذه السطور فكان في غاية الرهق والقلق والإعياء ولذلك
اضطر أن يستسلم لنوم غير عميق ولا مريح .

وكانت مهمة المصاييح مزدوجة في هذا المكان .. فيها نستنير في
أداء لوازمننا وقضاء حاجتنا ، وبهانتقي عدوان الحيوان .

وقد نَهَضْتُ من فراشي في ساعة متأخرة من الليل ، وصوبت
بصري إلى السماء .. فإذا هي في مهرجان حافل ومواكب رائعة من
سواطع النجوم في أشكال مسدسة وخمسة ومربعة ومتناثرة .. يا لَهِ !
ما أجمل هذه القبة الزرقاء في هذه الليلة الصحراوية المجلوة السوداء ..

وقد رأيت الثريا في موكبها الخاص تتألاً في المشرق البعيد فكأنها
حلقة مترابطة من كواعب بيض أتراب رواقص ، أو كأنها عنقودٌ
فضيٌّ متألٍّ يتدلّى من السماء كما تتدلّى الثريا البلورية من سقوف أبهاء
القصور الرائعة العظيمة في احتفال سامر راقص ..

وجاء (أبو الحُصَيْنِ) يتحسس في آخر الليل ، وأنا في يقظتي
وتأملاتي وتحوالاتي الفكرية .. إنه جاء يتطلب وجبة عشاء شهية من
الفضلات الملقاة في هذا الجزء من الصحراء الخاوية .. جاء بخطوطه
الخفيفة السريعة متسلحاً بإحساسه المرهف ، وحذره اللماح .. وأضأتُ في وجهه
الكشاف (مصباح الحجارة النفاذ المُركّز الضوء) فما تحرك .. إنه
كان في تلك اللحظة منهمكاً في تناول (أكلة) لذيدة من بقايا الطعام ..
يظهر أن صاحبنا كان في منتهى المسغبة .. فتركته وشأنه .. وماذا
يفعل الثعلب المسكين هنا ؟ .. وليس لدينا دَجَاجٌ ولا دَوَاجن نخشى

عليها من سطوة ذراعيه ، وهو أضعف شأناً وأهون قوة من أن يخطر
بباله أن يهاجم أحداً منا أو يفترسه مهما يستبد به الجوع !

ووضعتُ أذني على سطح الأرض ، وأرهفت سمعي لأية نبأ تأتي
من بعيد .. فالهدوء هنا تام ، والسكون مخيم .. ولا بدّ أن أيّ صوت
مهما يَسْعُدُ أو يَضُوءُ — إذا كان في إحدى نواحيها — سيصلني شيء
منه بهذه الطريقة .. وقد اتصل بسمعي خيط رقيق واهن متقطع من
نباح كلاب وأصوات مضخات ماء .. فأدركتُ أنّ صاحبنا الراعي ،
راكبَ السيارة الكبيرة الذي استبأناه عن مدى قربنا من تياء ، فقال
لنا : إننا منها على مسافة كيلوين — كان صادق الحديث ودقيق المعرفة
والبيان .. وكان قد سبق لغيره من السائقين والراكبين أن زودونا
بمعلومات متناقضة عن مدى بُعْدِ تياء عنا .. قال لنا بعضهم : إنّ بينكم
وبينها نحوَ مائة كيلومتر .. في الوقت الذي يُقَصِّرُ آخر هذه المسافة
على (٦٥) كيلومتراً .. معلوماتٌ مضطربة لا تهدي إلى شيء .. لعل
من أسبابها عدمَ نَصَبِ علامات الكيلوات في هذا الطريق الذي لم
يستتم انشاؤه بعد ، وجهلَ أكثر السائقين والراكبين معهم ، للتقدير الصحيح
لمسافات هذه التنوفة الجرداء الملساء المتشابهة المناظر القاتمة الأعماق ..
الخواوية المخترق .. كما وصف شاعر أعرابيٍّ قديم ما يماثلها من مهامه .

وطلع الفجر الكاذب ثم الصادق ، وكنتُ يقظان مرهف الإحساس
والشعور .. وتوضأنا وصلينا الصبح جماعة في تودة وخشوع . كان
إمامنا السيد أديب صقر ، وقد أذن لصلاة الصبح أذاناً مُرْتَمِياً يُشِيعُ
في النفوس المسرة والخشوع والأمل ، بصوت مشج رقيق .. وذلك
ديدنه في كل صلاة .. وقام بعض الرفاق ، وأرخى بعضهم جفنيه للنوم
اللذيد .. وقام الطاهي ليهيئ لنا وجبة الإفطار المكونة من بَيْضٍ
(مُطْبَجِّنٍ) وفول مُدَمَّسٍ ، وشاي ممزوج بالحليب ، وخبز طري

وشابورة ، وبقسامط إلى « دُقّة » السيد أديب صقر الشهية الدكناء
اللون من كثرة الفلفل الأسود الذي يمتزج بملحها ..

وما كادت الشمس تشرق حتى مُدّت سُفْرة الطعام ، فأكلنا
هنيئاً ، وشربنا مريئاً .. وفي ذلك الوقت أحسنا بدبيب النشاط يسري
في أعضائنا .. كما شَعَرْنَا بدبيب الأمل يسري في قلوبنا .. فلقد اقتربنا
من الهدف المنشود .. وقد أَطْلَقَت النَّكَاتُ ، وارتفعت الضحكات ،
وشاعت الفرحة والبسات على الثغور والوجوه ..

وفي الساعة الواحدة والنصف صباحاً بالتوقيت العربي المحلي للمدينة
المنورة ، نَحَرْنَا بسياراتنا ، الشَّالَ ، وأمامهنّ « السيارةُ القائدةُ »
الرائدةُ .

وكان السهل الأفيح قد تخلف عنا ، مُودِعاً لنا إلى رجعة ،
ومُسْلِماً لنا إلى حزن من الأرض أدكن ، يشبه الحرار . وبدأت إلى
جانبنا الأيمن سلسلة جبال مختلفة الأحجام والأشكال قدرنا أنّ بها الكثير
من آثار الثموديين ، وأيدنا في ذلك الدليلُ فيما بعد وقد رأينا الرعاة
وبعض الأعراب ، فتأكدنا أننا على مقربة من «الهدف المنشود» وأنه
الآن ليس ببعيد عنا كما أراد بعض السائقين أن يدخلوه إلى أفكارنا ، وأن
يملأوا به أدمغتنا فيسدوا باب أملنا .

وحينما ارتقت بنا السيارة ، تلاّ مُنْبَسِطاً شاهدنا أمامنا في وهدة
مستطيلة من الأرض (خَيْفًا) كبيراً ملتفّ النخيل والحدائق .. وكان
ذلك الخيف هو حقيقة الهدف المنشود ، هو « تِماء » بالذات . ومررنا
بسور البلد القديم المتهالك من طول ما مر عليه من سنين وفتن ، وما
سطع عليه من شمس وقمر ، وما نزل عليه من مطر وحرّ وقَرّ ،
وعواصف ، وما حل به من مختلف الكوارث .. وكانت سلسلة الجبال
عن يميننا يشبه بعضها الخيام ، ويشبه بعضها البيوت ، ويشبه بعضها

المربعات ، ويشبه بعضها الأبراج الحربية .. وشاهدنا الشواخص التي طالما شاهدناها في هذا الطريق على التلال والجبال .. وكان نخيل الينا أنها تماثيل منصوبة لآدميين ، فإذا اقتربنا منها تبدت لنا شواخص بدائية ، لعلها نصبت لتبيان معالم الطريق ، وكأن هؤلاء (الشماليين) تأثروا بأسلافهم الأقدمين من ثمود وغيرهم ، في نصب التماثيل البشرية في كل مكان يمرون به أو ينزلون فيه .. بخلاف (الجنوبيين) فليس يهمهم من هذا القبيل شيء ..

في تيماء

ها نحن أولاء الآن لقد بلغنا (الهدف البعيد المنشود) وحققنا الحلم الغالي إننا الآن في قلب واحة تيماء ، الرابضة في وسط صحراء مخوفة فيحاء .. وها هي ذي نخيلها وآطامها المتداعية التي يقول عنها أمير شعراء الجاهلية : امرؤ القيس الكندي في معلقته :

وَتَيْمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِدْعَ نَخْلَةٍ
وَلَا أَطْمَأْ إِلَّا مَشِيداً بِيَجْنَدَلِ

ولقد قطعنا في طريقنا إليها السهل والوعر ، والجبل والوادي ، وأجمات السلم والطلح ومنابت العشب وبعض الفيافي الجرد .

هذه تيماء يا رفاق ! بلد العمالة ، هذه شرطتها .. وهذا لاسلكيها ، وهذه محكمتها ، وهذه مدرستها ، وهذه بيوتها ونخيلها ، وهذا جوها

١ يبدو أن ثمة علاقة خاصة بين الآطام والجهات الشمالية من جزيرة العرب .. من المدينة المنورة وما في شأها .

الباسم الحميل ، وهؤلاء هم أهلها الذين تبدو عليهم أمارات الصحة والنشاط بعد بوئس كارب وفقر مدقع ، مر بهم ، أيام كانت في عزلة عن العالم ، بالموقف الذي وضعها فيه حاكمها الأسبق (عبد الكريم ابن رمان) .. وشتان ما بين حالها في ذلك العهد الماضي ، وحالها في عهدها الحالي . فقد أصبحت في نعيم وتقدم وتطور مشهود .

* * *

ودخلنا البلد بسياراتنا من غير دليل .. إلا أننا ألقينا سؤالا على بعض من شاهدناهم عرضاً في الطريق عن بئر هـدّاج ، وأبـهـجـنا أن شوارع البلد نظيفة على خلاف ما كان أورده عنها عبد الله فيليبي في كتابه (أرض الأنبياء) . ولا بد أنها تغيرت في هذا الظرف .

وشوارع تبـاء ضيقة متعرجة ، ولكنك لا تشعر فيها بتقزز ولا بانكماش ، بل تشعر بغبطة غامرة من هذا الجو الشمالي اللطيف الساحر .

وما زلنا نسير بسياراتنا وئيداً في داخل البلد ، مستطعين ، وقد مررنا بقصر شامخ في وسط المدينة فقررنا أنه (قـصـرُ ابنِ رُمان) الذي له نحو نصف قرن من الزمان .. وهو قصر قـرَوِيّ شامخ ، شـيـد باللـبـنِ النـيـئِ ومن طينة أرض تبـاء القوية التي تشبه الاسمنت في قوتها .. حسب ما بدا لنا حين زرنا عاصمة (نبونايدس) البابلي .. وشاهدنا طلل أحد قصورها فإذا به متماسك برغم مضي عشرات القرون عليه هنا . وقد أمسكتُ بين أصبعي ببعض هذا المِلاط الذي يربط بين حجارة القصر المصقولة ، فإذا به من طينة البلد ، وبعض حجارة البلد أصفر اللون ، وبعضها أدكن قاتم .

والأمر الذي جعلنا نقرر أن القصر هو قصر ابن رمان ، يتمثل في هذه الثغرات التي تحيط بجداره الخارجي من كل ناحية .. وهي معدة

لإطلاق الرصاص على المهاجمين له من الخارج ، وبجانبى القصر (دَكَات) جلوس رجال الأمير ومن يقصدونه من عامة الناس وخاصتهم وقد اضطرت سيارتنا إلى أن تقف على مسافة نائية من بئر هَدَاج ... فالتَّسَوَّاتُ المائية المفتوحة التي تعترض الطريق عاقبتها عن المضي إلى قرب البئر .. وإن كنا لاحظنا أن بجانب البئر رأساً (وَنِيَتاً) واقفاً لأحد أهل تيماء ..

ومشينا على أقدامنا إلى بئر هداج ذات السمعة المدوية في عالم آبار هذه المملكة الغزيرة القدمة .. وقد وجدها فيلبي قبل اثني عشر عاماً ، وهي حفرة مستديرة الشكل دون انتظام وجدرانها مبنية بحجارة مصقولة وقال : إنها تحتاج إلى إصلاح .. أما نحن فشاهدناها على غير ما وصف فيلبي .. إنها الآن مربعة الشكل وقد أَصْلَحَتْ .

ويقول فيلبي : إن عمقها ست قاعات تبدأ من سُفْلِ البئر ، وإنها كانت مورداً لكثير من قوافل الجمال وقطعان الماشية التي تقصدها للورود ، كما أن الواحات المجاورة ترتوي منها ، ويقول : إنها تستطيع أن تسقي (٩٩) جملاً دفعة واحدة في فصل الصيف القاطظ . وقد علم فيلبي أن عدد الجمال التي ترد هداجاً في الدفعة الواحدة أيام زار تيماء هو (٧٧) جملاً .. كما أن مثل هذا العدد من الجمال ضروري لنزح الماء من البئر .

وتمنى فيلبي أن توجد مضخة ماء واحدة لإراحة الحيوانات من ذلك العبث الثقيل . وقد حصل ما تمناه فعلاً ، فإن على هداج اليوم عدة مضخات تنزح الماء الوفير منها نزحاً ، ليل نهار . وقد ارتاحت الجمال دفعة واحدة من عناء رفع الماء منها إلى سطح الأرض .

وبئر هداج عذبة الماء جداً ، وإن كان يعكر هذه العذوبة ما بها من جرثومة (البلهارسيا) على حَدِّثْنَا به عبد الله الشنيفي أمير تيماء



المؤلف : على بئر هداج بتياء ومعه جعلي الاعرابي

وغيره .. وقد أفادنا بأن الحكومة بدأت في مقاومة هذه الحرثومة بإلقاء المطهرات على البئر .. ويبدو أن الأمر يتطلب إصلاحاً جذرياً في نفس بناء البئر التي نمت فيها الأعشاب ، واستطالت حتى كادت تبلغ حافتها .. كما يتطلب تنظيفها وطلاءها بالإسمنت ومعاودة تطهيرها بصورة مستديمة حتى تزول منها الجراثيم إلى غير رجعة .. وذلك وقاية لصحة سكان هذه المنطقة والمارين بها ، الذين يكثر اعتمادهم على ماء هذه البئر الثرة ، العذبة ، الزلال وهذا ما قررت الحكومة القيام به .

ومضخات بئر هداج ست ، واحدة أو اثنتان منها معطلة ، وهي لا تقف ليل نهار ... وهذا مما يؤكد غزارة ماء هذه البئر ، ومطابقة واقعها لشهرتها .. وحديثي فهد العبد العزيز الطلق التياوي أن هذه المضخات قد أمرت الحكومة بوضعها على هذه البئر وتشغيلها .. وبئر

هداج تسقي الآن حدائق الواحة المنتشرة ذات اليمين وذات الشمال ، وقد لاحظنا أن قنوات مياهها يعلو بعضها بعضاً بنظام ، حتى يأخذ كل نصيبه المقرر له من الماء .

وقد عدّ فيلبي (٢٧) قناة ، في تيماء ، صالحة للعمل ، ووصف القنوات بالضيق ، وبأنها مصنوعة من الحجارة غير المصقولة ، وقال : إن المياه مقسمة إلى ٣٠ سهماً . وعد أشجار النخيل في واحة تيماء التي كان يملكها «رُمان» في الأصل (٨٠٠) نخلة ، وقدر سكان تيماء بألف نسمة ، ونعتقد أنهما الآن أكثر ، وتمنى أن يعاد حفر بئر «الوجاج^١» لتعود تيماء غنية بالماء كما كانت قبل ٢٥٠٠ سنة .

وكانت تيماء قد تقلبت في خضم السياسة والحروب ، خلال الدهور الغابرة . كانت في الزمن القديم عاصمة صيفية للملك البابلي «نبونايدس» (٥٥٦-٥٣٩ ق.م .) وقد جعل منها قاعدة لِحَمَلَاتِهِ على العَرَبِ حسب ما قاله كارل بروكلمان في كتابه : «تاريخ الشعوب الإسلامية» .. ثم كانت منزلاً لليهود الذين أجلاهم ضغط الفتوح البابلية والآشورية عن فلسطين ، فقد خربت هذه الديار ، فاضطروا للهجرة منها ، فنزلت قبائل منهم تيماء .. و (تيماء) بالفتح والمد — كما في «معجم البلدان» لياقوت الحموي — بلد في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق .. وكانت تيماء — كما في دائرة المعارف لبطرس البستاني — حصناً أعمر من تبوك وحاضرة طَيِّ ، وإلى الشمال الشرقي منها الثعلبية^٢ ، وإلى الجنوب الشرقي : فيد ..

* * *

وفي منطقة تيماء آثار ثمودية وافرة رآها فيلبي ونقل الكثير منها إلى

١ ص ١١٦ ؛ وقد تكون صيغة «الوجاج» هذه تحريفاً من المترجم للكتاب: عمر الديراوي .. وأصلها إذن «هداج» .. كما يفهم من سياق الكلام عن بئر هداج .

متحفُ جُدَّة ، كما رآها غيره ممن سبقه إلى هذه المنطقة من المستشرقين ، وهي إمّا نقوش من خط الثموديين ، قوم صالح ، وإمّا هياكل ومعابد ، وإمّا أسماء المسافرين الثموديين ^١ ، وإمّا صُورُ أناس وخيل وجمال وحيوان ، وإمّا قلاع وحصون وقنوات وصخور ، وقد شاهدنا بعض هذه الآثار في رحلتنا إلى تيماء ورسمنا بعضها .

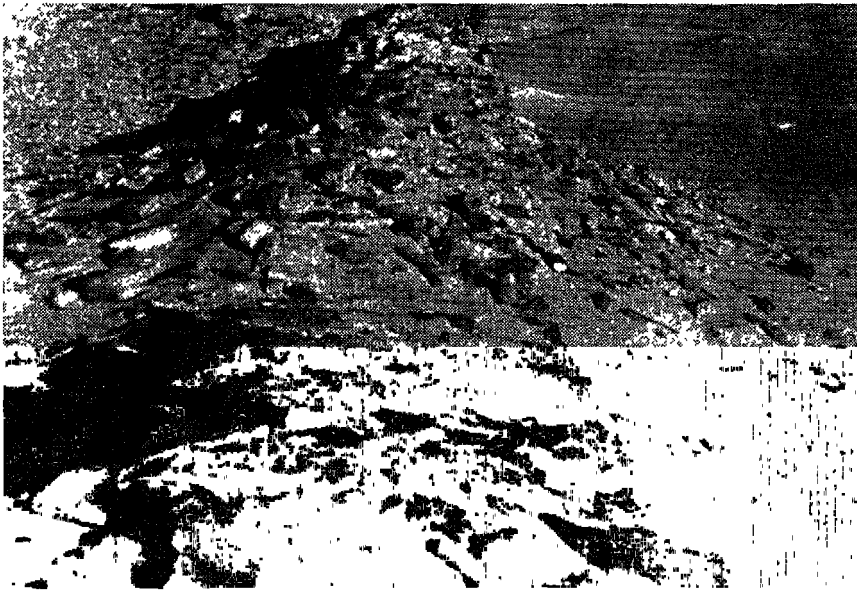
وعلى قِمةِ برج المراقبة عشرات من الأسماء الثمودية حفرها أصحابها هناك في قديم الزمان لِيَسْدُلُوا على مرورهم بالمنطقة .

وبتيماء في طرفها الغربي حصن السمؤال ، وهو يهوديُّ أصله من خيبر ، على ما في دائرة المعارف لبطرس البستاني ، حسب ما سبق أن أوردناه في الحديث عن خيبر ، وأصل صيغة (السمؤال) : صموئيل .

وفي الجبل الأبلق الفرد يقول السمؤال من قصيدة له :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُهُ مَنْ نُجَيْرُهُ
مَنْبِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَبَابِهِ
إِلَى النَّجْمِ فَرَعٌ لَا يُتَالُ طَوِيلُ
هُوَ الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ الَّذِي شَاعَ ذِكْرُهُ
يَعَزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

١ وردت هذه الأسماء الأعلام في نقوش تيماء وجوارها : ناضر ، نمر ، سالم ، غفيف ، حنا ، طايح ، مرة ، كميعة أو : كاملة ، ناتان ، طريف ، رفيق ؛ راجع كتاب : « من الساميين إلى العرب » لنسيب وهيبة الخازن ، طبع بيروت ١٩٦٢ م ، « وهذه الأسماء يستفاد من دراستها وتأملها ارتباط عرب الجاهلية القريبة من الإسلام ، بعرب الجاهلية القدماء كشمود وغيرهم » .



يشاهد فوق ، طَلَلُ قَصْرِ السَّمَوَالِ فِي تِيَاءَ ، وَيَبْلُغُ عَرْضُ جِدَارِهِ
حَوَالِي مَتْرَيْنِ وَنَصْفِ الْمِتْرِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَمْتَارِ

وهذا من مبالغات الشعراء .. إِنْ صَحَّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لِلَسَّمَوَالِ ،
وَقَدْ لَا يَكُونُ صَحِيحًا ، فَإِنَّا قَدْ شَاهَدْنَا « أَبْلَقَهُ الْفَرْدَ » هَذَا مِنْ
كُتُبٍ .. فَإِذَا هُوَ جَبَلٌ أَسْوَدٌ صَغِيرٌ ، لَا يُرْهَقُ الصُّعُودُ إِلَيْهِ أَيُّ إِنْسَانٍ ، كَمَا
أَنَّ الْحَصْنَ الَّذِي يعلوه أَسْوَدٌ ، أَوْ إِنْ بَقَايَاهُ هِيَ السُّودُ الْآنَ ، وَقَدْ
يَكُونُ فِيمَا مَضَى أَبْيَضٌ أَبْلَقٌ وَذَهَبُ بَيَاضِهِ مَعَ الْأَيَّامِ أَوْ بِحَوَادِثٍ ، إِلَّا أَنَّ
الْجَبَلَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ كَمَا وَصَفَهُ : لَهُ فَرْعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلٌ .. وَمِنْ

مبالغات شعراء العرب المماثلة قول عمرو بن كلثوم التغلبي :

مَلَأْنَا الْبُيُوتَ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا
وَنَحْنُ الْبَحْرُ نَمْلُؤُهُ سَفِينًا

ويقول فيلبي : إن قصر الأبلق أو قصر السمؤال ، الذي هو قلعة يوجد في الناحية الغربية من النقطة التي تقوم فيها المدينة الرئيسية ، وعلى مقربة من طريق السيارات المؤدية إلى المدينة ، وتحدث (بأن السمؤال لاقي قصاصه العادل في هذا المكان بسبب موالاته لأعداء العرب ، مقابل ضمان هؤلاء الاعداء ما يملكه من أسلحة وأشياء أخرى ، إذا ما حاول الهرب من ذلك القصر) (ص ١١٢ من كتاب أرض الأنبياء ، تعريب عمر الديراوي) .

وقد انعكس الموضوع على فيلبي أو المترجم ، فالقصة الأسطورية العربية تقول : إن السمؤال كان متحصناً بقصره الأبلق .. حينما وافاه خصوم امرئ القيس الكندي الذي كان أودع لديه دروعاً وسلاحاً له ، فأرادوا من السمؤال أن يعطيهم إياها فامتنع فهددوه وسلم منهم السمؤال في حصنه المنيع ، ومن ثم هددوه بقتل ابن له كان خارج القصر ، فما بالى .. فنفذوا تهديدهم ، وسلمت الدروع ، ومن ثم ضرب به المثل في الوفاء ...

وزرنا قصر « الرضم » ، وهو من القصور الأثرية التي لم تتداع في تيماء .. به نقوش عربية قديمة وثمودية ورسوم جبال وفي وسطه بئر أثرية محفورة في الصخر الاصم ، وهي الآن مطمورة .. وقال لنا الدليل : إنها كانت ثرة بالماء .. ولم يذكر عبد الله فيلبي هذا القصر فيما ذكر ، وهو الآن ملك لعبد الله القين .

ولذا كان فيلبي وجد بين خرائب تيماء القديمة ، الكثير من الأشياء الأثرية ، ومن ذلك قطع الحجارة المنقوشة وبقايا أواني الخزف فإني قد وجدت من ذلك شيئاً أيضاً .

وقد اكتشف فيلبي في هضاب « غنيم » التي يبلغ ارتفاع قمة جبلها ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، الأوتان الثمودية الكثيرة ، ومن

بينها صَتَمٌ (سلم) الذي هو على صخرة ناعمة يبلغ ارتفاعها ٢٠ قدماً في عدة صور منحوتة تمثل رأس ذلك الصنم . وكان رأسه ييضاوي الشكل لا ذِقْن له ، وجبهته واسعة مستقيمة يبرز من طرفيها قرنان فوق الأذنين الواسعتين .

من تاريخ تيماء

يذكر فؤاد حمزة في « قَلْبِ جزيرة العرب » : أنّ واحة تيماء على حافة النفود الكبير الغربيّة وأنها من الواحات الواسعة الخصبّة التربة ، وأن تيماء ، وخيبر ، تقعان في المنطقة المرتفعة الممتدة من شمال مدين إلى حدود اليمن .. ويقطن السَّعَادَاتُ من قبيلة الصَّلْبَةِ ، وعددهم (٩٠) بيتاً ، قُرْبَ تيماء .. وأهلُ تيماء الأوائل من العالقة ، وكان معاوية رضي الله عنه وَجْهَ سرية إلى جهات تيماء لاحتلالها ، بعد قضية التحكيم ، وقد أنشأت سليح التي كانت تعرف باسم الضجاعة في الشام ، ومنها كَلْبٌ — دولةٌ مستقلة في دومة الجندل حتى تبوك وتيماء . . والضجاعة كما في المعاجم : بطن من قضاة ينتسب إلى ضجعم بن سعد ابن عمرو الملقب بسليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكانوا عُمَلَاءَ لِلرُّومِ ، فلما نزلت غَسَّانُ من مأرب إلى الشام ، كان الضجاعة يأخذون من كل رجل ديناراً ، فأتى العامل رجلاً اسمه جذع الغساني وطالبه بدينار ، فاستمهله ، ثم قتله .. فثارت الحرب بين غَسَّانَ والضجاعة .

وفي العهد الحديث كانت تيماء تابعة لإمارة حائل منذ عهد آل الرشيد واستمر ذلك حتى العهد السعودي ، وقد تتابع على إمارتها أمراءُ

رَشِيدِيَّونَ حَتَّى اسْتَقْلَ بِهَا رُمَانُ بْنُ حَظِيمٍ ، وَتَسْلُسِلُ حَكْمَهَا ، فِي
أَبْنَائِهِ ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ رِمَانٍ ، وَقَدْ زَارَهَا « غُورْمَانِي »
سَنَةَ ١٨٦٤ م مُؤَفِّدًا مِنْ قَبِيلِ الْحَاكِمِ التُّرْكِيِّ ، لِيَشْتَرِيَ لَهُ مِنْهَا عَدَدًا
مِنَ الْخَيْلِ فَوَجَدَهَا مُسْتَقْلَةً تَحْتَ لَمْرَةٍ رِمَانِ الْمَذْكُورِ ، وَقَدْ ظَلَّ حَكْمَهَا
فِي نَسْلِهِ إِلَى مَا قَبْلَ قَدُومِ فِيلِبِّي إِلَيْهَا ، بِقَلِيلٍ ، قَبْلَ نَحْوِ اثْنَيْ عَشَرَ
عَامًا ، مِنْ تَأْلِيفِهِ لِكِتَابِ « أَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ » .

وَوَادِي تِيَاءٍ مَغْلَقٌ مِنْ نَاحِيَّتَيْهِ : الْغَرْبِيَّةُ وَالشَّالِيَّةُ بِسُلْسِلَتَيْنِ مِنْ
الصَّخُورِ الْوَاطِئَةِ ، وَتَقَعُ بَسَاتِينُ النُّخَيْلِ عَلَى طُولِ الْطَرَفِ الْخَنُوبِيِّ مِنْ
تِلْكَ الصَّخُورِ ، وَحَقُولُ الْحَبُوبِ وَبُيُوتُ السَّكَنِ الْحَدِيثَةُ الَّتِي أُنْشِئَتْ
حَوْلَ الْوَاحَاتِ ، فِي حِينٍ تَقَعُ خَرَائِبُ تِيَاءِ الْقَدِيمَةِ بَيْنَ الْحُدَاوِلِ
وَالصَّخُورِ ، وَمَا زَالَ قَائِمًا قِسْمٌ مِنَ السُّورِ الدَّائِرِيِّ الَّذِي بُنِيَ حَوْلَ
تِيَاءٍ .

وَفِي تِيَاءٍ أَوْدِيَّةٍ تَعْتَمِدُ فِي مِيَاهِهَا عَلَى مَا يَرِدُ مِنْهَا .. وَمِنْ هَذِهِ
الْأَوْدِيَّةِ وَادِي « الْحَمْلِ » بِشَرْقِيَّ تِيَاءٍ ، وَوَادِي « حَسِينِيَّة » وَوَادِي
« خَوَيْلِد » ، وَوَادِي « صَيْفِيَّة » الَّذِي يَأْتِي مِنْ سُلْسَلَةِ هَضَابِ جَبَلِ
« غُنَيْمٍ » الْعَالِيَةِ ، وَيَمُرُّ بِالْخَرَائِبِ الْأَثَرِيَّةِ وَيَدُورُ حَوْلَهَا .

وَيَذْكُرُ فِيلِبِّي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَبَ خِيَامَ مُعَسَّكِرٍ
فِي الْأَرْضِ الصَّخْرِيَّةِ الَّتِي تَعْرِفُ بِاسْمِ « الْمَحْجَةِ » بِتِيَاءٍ . وَيَقُولُ : إِنَّ هَذَا
الْإِسْمَ أَقْدَمُ مِنْ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ .. عَرَفَ ذَلِكَ مِنَ النُّقُوشِ الْأَثَرِيَّةِ الَّتِي عَثَرَ
عَلَيْهَا فِي الْمُنَاطِقَةِ .

وَكَانَتْ تِيَاءُ تَابِعَةً الْحِجَازِ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ
ضَمَّهَا هِيَ وَخَيْبَرَ السُّلْطَانُ عَبْدُ الْعَزِيزِ آلُ سَعُودٍ إِلَى أَمْلَاكِهِ فِي يُولْيُو
سَنَةِ ١٩٢٢ م .

هَذَا وَقَدْ جَاءَ إِلَيْنَا شَابَانٌ مِنْ أَسْرَةِ الطَّلَقِ ، إِحْدَى الْأُسْرِ الثَّلَاثِ

المعروفة في تيماء ، والثانية هي آلُ سَلَامَة ، والثالثة آلُ رُمّان .. وهما أخوان اسماهما فَهْدٌ وعبدُ اللطيف العبدُ العزيز الطلق .. وأريانا بُسْتَانًا لهما آثرنا أن نَقِيلَ به ، لأنه كان جميلاً وفيّان وتبدل ثمار الليمون الكبيرة من شجرة ليمون باسقة في وسطه ، فرأينا أن ننزل تحتها بظلها الوارف .. والأخوان موظفان في الحكومة ، وأحدهما وهو عبد اللطيف موظف في دائرة الجوازات والجنسية ، بتيماء .. وقد أنسنا بلقائهما ، فهما بشوشان وديعان ، وكانا يفضيان لنا بما لدهما من معلومات عن بلدهما في لُطْفٍ وغبطة . وقد رَافَقْنَا فهدٌ في تجوالنا بخرائب العاصمة القديمة ، ودلّنا على أشياء مهمة كثيرة .

وقد سرنى مرآى طلاب مدرسة تيماء الصغار في الصباح ، وهم ذاهبون إلى مدرستهم الابتدائية ، حاملين مَحَافِظَهُم المدرسية ، ومرتدين ملابسهم البيض النظيفة ، وعلاماتُ الصحة والانشراح تلوحُ على وجوههم ..

وبعد أن ارتحنا هنيهة في حديقة آل الطلق ، قال لنا السيد حبيب : ألا ترون أن نزور الأمير عبد الله الشنفيّ أمير تيماء ؟ .. فارتحنا للفكرة وارتدينا مشالحنَا وذهبنا لقصر الإمارة الذي يقوم على مقربة من مقيلنا .. وسألْنَا فهداً الطلق عن جلوس الأمير .. فافادنا بأنه جالس .. وذهبنا اليه وسلمنا عليه فحيانا ببشاشة ساحرة ، وجرت أحاديث معه عن تيماء وماضيها وحاضرها من النواحي السياسية والثقافية والعمرانية والاجتماعية والزراعية ، وقد فهمنا أن بها مدرسة ابتدائية تحوي ٣٠٠ طالب ، ومدرسة ليلية لتعليم الكبار فيها نحو ٨٠ طالباً .. كما أَرَانَا فهدُ الطلق المسجد الذي هو في قصر الإمارة والذي اغتيل فيه عبدُ الكريم ابنُ رمان آخرُ أمراء آلِ رُمّان ، وأَرَانَا محل اغتياله بالذات .

واستأذنا من الأمير في أن نتجول في آثار تيماء .. وقد دعانا إلى أن

نتغدىّ عنده فوافقنا ، وامتنطينا سيارتنا ومعنا الدليل فهدد الطلق وذهبنا إلى غروب المدينة ووقفنا على السور الدائريّ الخاص الذي يحيط بخرائب تيماء الأثرية ، ووقفنا على السور الدائريّ العامّ الذي يحيط بتيماء في عمائرها الحالية وخرائبها القديمة المتداعية ، وقصدنا أحد القصور الأثرية المتداعية التي بقي منها جدار ضخم متآكل ، لعله برج أو كتف جدار فوقفنا تحته وكان فوق ربوة عالية وأخذنا لنا رسماً ونحن وقوف تحته في الظل .

وتحت هذا القصر في داخل السور الدائريّ الخاص بشُرّ منجوبة في صخر صلد ، وهي مربعة الفتحة ، واسعة ، وقد طُمِرتُ قديماً ، وقام أحد أهل تيماء بمحاولة حفرها وإعادة جريان المياه فيها . وفي حفائرها وجدتُ كوزاً خزفياً أو زهرية تكاد تكون متكاملة ولَوْحاً رقيقاً من معدن نحاس أصفر صدئ لا أدري حتى الآن ماهيته إذ لم أجُلُ الصدى عنه بعد^١ .

وأرانا الدليل قصراً متداعياً يقوم على جبل صغير غربيّ موقعنا بمسافة ليست بعيدة عنه .. وقال لنا : إنه قصر السموأل وجبله .. فاكشفنا بمشاهدته عن كتب .. إذ لا شيء فيه مُهِمّاً على ما روى لنا الدليل ..

وقد تأملتُ بالمنظار الذي أحضره معه عدنان حبيب - وهو منظر المائيّ - في السهل الناعم الذي يحيط به السور الدائريّ الخاص والذي وقفنا تحت أحد أبراجه أو أكتافه .. فبدأ لي أن هذا السهل كان مزارعاً وحدثتُ مدينة «نبونايّس» البابليّ .. فلما تداعت مدينته أو

١ هذه القطعة أرسلتها بواسطة شركة الزيت العربية - الأميركية إلى أميركا للكشف عليها وايضاح تاريخها علمياً .. فورد جواب المستر كارل برنت من الظهران بما ملخصه : انه لدى الكشف على القطعة ظهر انها كانت لمحرثات قديم صنع باليد من مادة النحاس الأصفر ، ويرجع تاريخها إلى ما بين عام ٢٠٠ و ٤٠٠ م .

عاصمته الصيفية هذه ، وانتقل الناس إلى المدينة الحالية بشمالها الشرقي ، جفت المياه ، وصوحت الحداثق بحكم الإهمال ، واهتم السكان باستصلاح أرض تيماء الحالية وزراعتها — عرضتُ هذا الرأي على الدليل التياوي ، فأبده وقال لي : إنه توجدُ أطلالُ سَوَاقٍ وقنواتٍ قديمةٍ جداً في هذا السهل بذاته مما يدل على صحة ما ذكّرتُ ..

وفي طريق عودتنا إلى المدينة عند الظهر وبعدما خرجنا من الرمل الناعم كانت السيارة تسير على مَهْلٍ فإذا بها بجانب حُفْرَةٍ عميقة انفتحت حديثاً .. فَتَنَزَّلْنَا وتأمَّلْنَاها ، فإذا هي نَقْفٌ واسعٌ مسقف بالحجارة المصقولة المطابقة . وكان النفق آتياً من مدينة الخرائب ، ومن ناحية حِصْنِ السموأل بالذات متجهاً إلى الناحية الشرقية التي هي خلاء . فقلنا : لعله أحد الأنفَاقِ التي كان ذوو الأمر والنهي القدامى يستعملونها في قصورهم احتياطاً للحوادث المفاجئة من حصار أو هياج أو شغب أو فتن ، لينجوا من طريقها بدون أن يستطيع أحد أن يتعقبهم أو يتعرف على طريق نجاتهم .

وعدنا إلى منزلنا مترقبين قدوم رسول الأمير .. وبعد هنيهة جاء ودعانا فليينا الدعوة .. واستقبلنا الأمير الهاديُّ البشوش الذي قضى في خدمة الدولة ٣٠ عاماً ، بعضها أميراً على رِمَاحٍ ، وبعضها أميراً على الدوادمي ، حيث نُقِلَ بأمر الملك المرحوم عبد العزيز آل سعود إلى إمارة تيماء هذه منذ اثنتي عشرة سنة ، ولا يزال بها إلى عام رحلتنا إلى تيماء .. عام ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م .

وأحضرتُ مائدة الطعام ، وكانت جَفَنَةً معدنية^١ فضية اللون ،

١ تقديم الطعام في مثل هذه الجففات من تقاليد العرب القديمة منذ جاهليتهم . قال حسان بن ثابت في الجاهلية :

لنا الجففات الغر يلمن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
وكان ذلك إلى اليوم رمز الكرم لديهم .

ضخمة عالية ، تحمل كبشين سمينين مطهوين على كومة كالأكمة من
الآرز المطهو على الطريقة العربية ، وتحت الحفنة مُدَّت السفرة وَصُفَّتْ
فوقها صحون الصَّبْغ : « الإدام » من البامية والملوخية والباذنجان الأسود
والبطاخص والخبز والفواكه وَزَهْوِ تِماء الضخم الحلو الجميل . وكان
الأمير قد دعا قاضي البلد الشيخ محمداً الخُكَلَف .

وبعد شربنا للشاي ذهبنا مع الأمير بالسيارات إلى دار القاضي ،
فتناولنا بها الفواكه والشاي ، وهي دار رحبة .. وكنا زرنا القاضي هذا
ضحى ، في طريقنا إلى الخرائب الأثرية وهو يقضي بين الناس في
المحكمة ، فرحَّب بنا وأبدى رغبته في تكرارنا الزيارة له في داره ،
وكانت منا الاستجابة له في المساء .

وفي تِماء محطة نفط بدائية ، ودكاكين أدوات السيارات خفيفةُ
البضائع ، ودكاكين غير منظمة للحاجيات . وأغاب بيوتها من طينة
البلد القوية . وقد بدئ في إنشاء بيوت فيها بالإسمنت المسلح على الطراز
الحديث . ولعل أول ما أنشي في ذلك هذا المركز الحكومي القائم على
الطريق المسفلت إلى تبوك .

وقد شاهدنا في قصر الإمارة حجرين كبيرين مستطيلين منقوشين نقشاً
عربياً قديماً .. قال فيلبي إنه لم يستطع تَبْسِئَ محتوياتهما .. ولكنني
قرأت الكثير مما فيهما فإذا هو عبارة عن كلمة التوحيد وكلمات تسيحية
وتذكارية ولعلمهما مما كُتِبَ في القرن الهجري الثالث .

هذا وقد أعرب لي الشاب عبد اللطيف العبد العزيز الطلق الموظف
بالجوازات والجنسية بتِماء عن مطالب أهل هذا البلد من الحكومة وهي
ثلاث : مدرسة إعدادية يدخلها المتخرجون من المدرسة الابتدائية ،
وببلدية تنظم وتنظف البلد ، ووحدة زراعية تُنهِضُ وتُنْعِشُ زراعتها

فهائنذا أضْعُ هذه المطالب الثلاثة الضرورية لرفع مستوى تيماء بين يدي الجهات المختصة وهي جديرة بالاستجابة إن شاء الله .

الحجر^١ أو مدائن صالح

الحِجْرُ في القرآن المجيد :

يقول المراغي في تفسيره للآيات الكريمة التي خطب بها ثمود ، قوم صالح ، عليه السلام : « واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادَ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْسَحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا » - يقول : أي تَذَكَّرُوا نِعَمَ اللَّهِ عليكم ، وإحسانه اليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد ، في الحضارة وال عمران والقوة والبأس ، وأنزلكم في منازلهم تتخذون من سهولها قصوراً زاهية ودوراً عالية ، بما ألهمكم من حلق في الصناعة (الطوب المحرق) وتستعملون الشجص^٢ ، وتُجِيدون هندسة البناء ودقة النجارة ، وتنتحون من الجبال بيوتاً ، إذ علمكم صناعة النحت وآتاكم القوة والشجَلَدَ .. رُوي أنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء ، لما في البيوت المنحوتة من القوة ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف . ويسكنون في السهول بقية الفصول ، للزراعة والعمل^٣ .

١ في تفسير الألوسي أن اسم مدينة الحجر هذه ، هو « قرح » . وفي شرح قصيدة نشوان الحميري « ان مدينة الحجر كانت تسمى في عهد ثمود : « مدينة قرح » ، ص ٣١ ، و ص ٣٥ ، طبع المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٧ هـ .

٢ تفسير المراغي ، ص ١٩٩ ، ج ٨ ، طبع مصر .

وتؤيد الدلائل التاريخية والأثرية ما ورد في الذكر الحكيم من أن
ثموداً خلقت عادةً في الحضارة والقوة .

وتتمثل مظاهر حضارة (عاد) أسلاف (ثمود) ، في قوله تعالى :
« أَتَسْنُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ » .. فإنَّ ثموداً عليه السلام لما فرغ من دعاء
قومه (عاد) إلى الإيمان ، أتبعه بإنكار بعض ما هم عليه .. أنكر
عليهم بناء القصور المشيدة لمجرد التفاخر والدلالة على الغنى في كل
مكان مرتفع ، وأنكر عليهم بناء الحصون الضخمة كأنهم خالدون في
الدنيا .. ثم وصل العظة بما يوجب قبولها بأن ذكرهم بنعم الله التي
غمرتهم .. ذكرهم بها أولاً جملة ، ثم مفصلة ، ليكون ذلك أوقع في
نفوسهم : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ
بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .

وهذا المشهد نفسه قد تمثل في (ثمود) مع نبيهم صالح ، عليه
السلام ، فقد شادوا القصور في السهول ، ونحتوا من الجبال بيوتاً في
الأعالي ، كأنما هم خالدون ، وقد أنكر عليهم صالح ذلك ، ثم وصل
العظة بما يستدعي قبولها بأن ذكرهم نعمة الله عليهم . إذ جعلهم خلفاء
عاد وبوأهم الأرض بعدهم .

وجدير بالذكر أن هذه الحضارة الزاهرة الشاخنة وصل صولجانها
لثمود بعد هزيمتها لعاد فقد دحِرت عاد ، نتيجة عتوها .. لقد صرعاها
بغْيُها — ولكل باغ مصرع — وكانت دولتها تتخذ جنوب المملكة
العربية السعودية ، مستقراً لها ، ولم يَطِبْ القرار لثمود في تلك الربوع ،
إذ لم تر فيها البقعة الملائمة لأحلامها ، فهاجرت إلى ناحية الشمال ..
وألقت بها عصا الترحال في وادي القرى الواقع في منطقة الجبال ،
ذي التربة الخصب والآبار المترعة والجبال المشرقة .. وهناك أنشأت ثمود

حضارتها الخاصة بها ، فبنت في سهول الأرض ، القصور العالية ، ونحتت جبال الحجر بيوتاً ، فضاءت بهذا الصنيع عاداً في الجنوب وتفوقت عليها ، وبُنَاة الأهرام في مصر .. وقد يكون مما ألحاهم إلى نحت البيوت من الجبال الحجرية ضيق رَقعة دولتهم أو رغبتهم في حصرها في مكان معين يحافظون عليه بسهولة من غارات الأعراب المجاورين وغير المجاورين الذين من دأبهم الطمع في المال المجمع الوفير ..

وقد رأينا عبيد بن شربة الحرهمي يفسر لمعاوية بن أبي سفيان ، الآية الكريمة : (قَتَلَكَ بَيْتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) - وقد نزلت في ثمود وديارهم - يفسرها بقوله : (ساقطة خربة)^١ والسقوط والخراب هما المظهران اللذان يجللها حتى اليوم .

على أن سياق الآية يدل على أنها نزلت - بقصد الاعتبار - تعبيراً عن حال واقعة ومُشَاهَدَة في عصر الرسول (محمد) صلى الله عليه وسلم .. وهذا التأويل يُسَاعِد مباشرة على الدلالة بأن المقصود بصيغة (الْبُيُوتِ) هنا ، هو هذه المنحوتات الحجرية الماثلة للعيان في زمنه عليه السلام ، وحتى زمننا الحاضر بعد نحو أربعة عشر قرناً من الزمان .

والمراغي يسر في تفسيره على هذا الرأي فيقول : إن ثمود ، إمعاناً منها في الأخذ بأسباب العظمة والحضارة بنت لنفسها مدينتين في الحجر لتكون إحداهما المنحوتة في الجبال (مشق) أميناً لها ، تنزله رِدْءاً لها وأماناً في موسم الشتاء وفيضانات الأمطار وقصف العواصف ، ولتكون الأخرى ذات القصور الشامخة الواسعة في السهول (مصطفاً) لها يتلاءم مع جو الصيف وجنني الثمار وجمْع المحصولات والعمل .

١ التيجان في ملوك حير ، طبعة حيدر آباد دكن بالهند سنة ١٣٤٧ هـ .

الحِجْرُ في اللغة :

وَلَيَنْرَبِطَ الْمَاضِي السَّحِيقُ بِحَاضِرِ الْحِجْرِ عَامَةً ، وَخَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ
ببُيُوتِهِ الْجِبَلِيَّةِ ، نَعُودُ إِلَى مَنْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ .. لِنُحْكِلَ وَلِنُقَارَنَ ،
كَيْ نَصِلَ إِلَى النَّتِيجَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُنْشُودَةِ فِي هَذَا الْمَجَالِ .. فَنَقُولُ : إِنْ
صَيَغَةُ (الْبَيْتِ) هِيَ مِنَ الصَّيْغِ الْمَشْرُوكَةِ ، ذَوَاتِ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ
الْمُقَارَبَةِ الْمُتَشَاكِلَةِ الْوَفِيرَةِ . وَجَمَعَهُ : بُيُوتٌ وَأَبْيَاتٌ ، وَجَمَعَ الْجَمْعَ
مِنْهُ : أَبَايْتُ وَبُيُوتَاتُ وَأَبْيَاتَاتُ .. فَالْبَيْتُ يُطْلَقُ عَلَى الْمَنْزِلِ الْمَكُونِ
مِنَ الشَّعْرِ (بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَالْعَيْنِ) وَالْمَكُونِ مِنَ الْمَدَرِ وَالْحَجَرِ وَالصَّفْحِ
وَالْقِشْرِ وَالزَّجَاجِ وَالْحَدِيدِ الْخ ... كَمَا تُطْلَقُ صَيَغَةُ (الْبَيْتِ) عَلَى مَعْنَى
الشَّرِيفِ ، وَمَعْنَى التَّزْوِيجِ ، وَمَعْنَى الْقَصْرِ ، وَمَعْنَى عِيَالِ الرَّجُلِ ،
وَعَلَى الْكَعْبَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَعَلَى الْقَبْرِ ، وَعَلَى فُرْشِ الْبَيْتِ ، وَعَلَى الْبَيْتِ مِنْ
الْقَصِيدَةِ — وَهُوَ مَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ صَاحِبُ (الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ) وَصَفَ
(بَيْتَ الشَّاعِرِ)^١ ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرِكَ مِنْ هَذَا إِمْكَانَ تَأْوِيلِ وَصْفِهِ
تَعَالَى لِمَنْحُوتَاتِ ثَمُودَ فِي الْحِجْرِ ، بِأَنَّهَا (بَيْوتٌ) لِكُونِهَا (مَسَاكِنُ)
لَأُولَئِكَ الْقَوْمِ ، يَعِيشُ فِيهَا أَحْيَاؤُهُمْ .. وَيُؤَكِّدُ لَنَا ذَلِكَ رِوَايَةُ رَحَالَةِ
عَرَبِيٍّ مُشَاهِدٍ ، شَاهِدَ آثَارِ الْحِجْرِ وَتَأْمَلُهَا مِنْ كُتُبٍ قَبْلَ ارْتِحَالِ
الْمُسْتَشْرِقِينَ إِلَيْهَا بِمَا يَقَارِبُ أَلْفَ عَامٍ .. أَلَا وَهُوَ الْإِصْطِخْرِيُّ الَّذِي صَرَحَ
لَنَا بِقَوْلِهِ : « وَرَأَيْتُهَا — أَيُّ بَيْوتِ الْحِجْرِ الْمَنْحُوتَةِ فِيهِ — بُيُوتًا مِثْلَ
بَيْوتِنَا فِي أَضْعَافِ جِبَالٍ ، وَتَسْمَى تِلْكَ الْجِبَالُ الْأَثَالِبَ . وَيَتَرَاءَى لِي ،
أَنَا كَاتِبُ هَذِهِ السُّطُورِ — أَنَّ صَيَغَةَ « الْأَثَالِبِ » ، خَطَأٌ مُطْبَعِي صَحَحَتْهُ
(الْأَثَالِثُ) — وَهِيَ جِبَالٌ إِذَا رَأَاهَا الرَّائِي مِنْ بُعْدٍ ، ظَنَّهَا مُتَصِلَةً ،
فَإِذَا تَوَسَّطَهَا رَأَى كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْهَا مُنْفَرَدَةً بِنَفْسِهَا ، يَطُوفُ بِكُلِّ قِطْعَةٍ
فِيهَا الطَّائِفُ .. وَحَوَالِيهَا الرَّمْلُ ، لَا تَكَادُ تُرْتَقَى .. كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْهَا

١ الْقَامُوسُ الْمُحِيطُ ، ج ١ ، طَبْعَةُ مَصْطَفَى الْبَابِي الْحَلَبِيِّ بِمِصْرَ سَنَةِ ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

قائمة بنفسها لا يصعبها أحد إلا بمشقة شديدة .. وبها بثر ثمود التي قال الله تعالى فيها وفي الناقة : « لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٌ »^١ .

كما يمكن من الجهة الأخرى أن تُحْمَلَ لَفْظَةُ (بيوت) الواردة في القرآن ، على أن تلك المنحوتات هي (قبور) للقوم ... لأنّ « البيت » في اللغة العربية التي نزل بها القرآن المجيد يطلق أيضاً على (القبر) كما يطلق على مسكن الأحياء ..

وهذا الرأي لم يأخذ به ما اطلعنا عليه من التفسير- وكتب التاريخ والجغرافية العربية الإسلامية القديمة .. وإنما مصدره الأول والأخير هو جماعة المستشرقين ، ومن سار على دربهم من مؤلفي العرب بعدهم ، في العصر الحديث .. وقد اعتنق هذا المذهب بعض من كتبوا في الصحف المحلية عن (رحلة نادي البحر الأحمر بجدة) إلى مدائن صالح ، وتحدث به إليّ ، بعضهم ، جازماً بأن المنحوتات ليست إلا قبوراً لقوم صالح .. ولا يمكن أن تكون منازلهم ، لضيقها الشديد ، ولأنها عبارة عن كهوف ومتاور ، ولوجود عظام مَوْتَى بها ... وقلت له : إن ضيق البيوت لا يدل دائماً على عدم صلاح البيوت للسكنى .. وها نحن أولاً نرى في البلاد المكتظة بالسكان اليوم كيف أن أشخاصاً عديدين يسكنون غرفة واحدة .. لكلٍ منهم ما هو على قدر نومه وجسمه منها ، وإذا ثبت علمياً أنها قبور من قراءة النقوش التي عليها .. فالحقّ أحقّ أن يتّبع ... وهذا رهن باكتشاف جميعها ..

ولأن أصل هذه النظرية وارد ووافد من المستشرقين ، كما أوردناه

١ المسالك والممالك : ص ٢٤ ، طبعة مصر .

آنفاً فأرى أن علينا أن نأخذ دائماً معلومات المستشرقين بحذر ، خاصة فيما يتصل بديننا ولغتنا وآثارنا وبلادنا .. وذلك من جهتين لا من جهة واحدة .. وأولاهما : أن افهامهم بعض الأحيان مُلْتَوِيَةً تغلب عليها طبيعة بيئاتهم فتشد وتند عن الصواب الواضح بحكم طبيعتها إلى خطأ فاضح ... وثانيتها : الغرض الدفين طَبَعِيّاً وتقليدياً بن جوانح الكثيرين منهم . وواجبٌ علينا اليوم - وقد نهضنا من إغفاءتنا الطويلة - أن لا نتكل على مجهوداتهم العلمية وحدها .. بل نسعى بأنفسنا لكشف كنوز حضارتنا علمياً وعملياً وفكرياً وقولياً وأثرياً وخبرياً .

جاء في كتاب فؤاد حمزة قوله : « وقد زار كثير من المستشرقين بلاد ثمود هذه ووصفوا ما شاهدوه فيها من الآثار والمنازل المنقورة في الجبال الصخرية .. ووضعَ الرحالة (دوتي) رسماً تقريبياً يعين به المواقع الأثرية في مدائن صالح ، ووصف المغاور المحفورة في الصخور بأنها «رمُوس» ، ونقل صور بعضها ونشرها في كتابه ، منها : قصر البنت والبرج ومربط الحصان وبيت الشيخ .. وعاین المستشرق (موزيل) أماكن أخرى تُنسَبُ إلى ثمود في جهات الغوافة ، بين تبوك والبحر »^١ .

وهذا «جرجي زيدان» يخالف في أن أطلال الحِجْر ونُقُوشه ، هي «ثمودية» . إنه يقول ما نصه : «وأما الثابت من قراءة الآثار (فهو) أن مدائن صالح : (الحِجْر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين سكان «بطرا» الآتي ذكرهم ، بدليل ما على أطلال هذه المدن من الكتابة النبطية» . ثم يعطف على ذلك بقوله : «والأطلال المشار إليها زارها غير واحد من المستشرقين ، كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب ودرسوا بقاياها ، وهي منقوشة في الصخر ، أهمها نقوش

١ قلب جزيرة العرب ، ص ٢١٣ ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .

تعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج ، وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية فإذا أكثرها أو كلها تبركات منقوشة على القبور) ... ثم نقل نقش القبر الذي « بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكلبيسة ابنتها »^١ ، ويؤيده في ذلك جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » .

وبالرأي نفسه يقول صاحبُ كتاب (الجزيرة العربية) فيقول : « وفي مدائن صالح وأطرافها تقوم مقابر أثرية قديمة ولا بد أنها ستكون موضع اهتمام علماء الآثار الدقيق ، ففي منطقة مدائن صالح توجد مقادير (مقابر) كثيرة منحوتة في الصخر ، حُلِّيَتْ واجهتها بالرسوم . وكثيراً ما نرى رسوم التَّسْرِ على واجهتها ، فوق المدخل أحياناً ، وعلى جانبيه أحياناً أخرى .. كما نرى فوق داخل المقابر ، البقايا المهشمة لروؤس إنسانية ، على كل من جانبيها رسم حية . وما من شك في أن بعض هذه المقابر ما زال مدفوناً تحت الرمل ، والمنطقة كلها في انتظار من يقوم بالبحث فيها »^٢ ..

الحِجْرُ في كتب البلدانيات :

في (صفة جزيرة العرب) ما نصه : « فَرَّاجِعاً ، إلى وادي القرى ، إلى الحِجْرِ ، موضعِ ثمود ، والناقة مرحلة ، وفيه آثار عظيمة »^٣ .

ومحل الشاهد هو قوله : « وفيه آثار عظيمة » .

١ العرب قبل الإسلام ، ص ٧٨ ، طبع مصر .
٢ ص ١٣١ ، ج ١ ، طبعة دار الطليعة في بيروت .
٣ ص ١٣١ ، طبعة مصر .

وفي كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) : « الْحِجْرُ ، ديار ثمود
بوادي القرى ، بين المدينة والشام ^١ . »

وفي (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودي ما لا يخرج عما
سبق ذكره ^٢ .

وفي (جغرافية شبه جزيرة العرب) لعمر رضا كحالة : « الحجر
قرية صغيرة قليلة السكان وهي من وادي القرى على يوم بين جبالها .
وبها كانت ديار ثمود الذين قال الله فيهم : « وَتَسْمُدَ الَّذِينَ جَاءُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ » .. ونقل ما قاله الإصطخري عن مشاهدته لها : (بيوتاً
مثل بيوتنا) .

وقال البشاري : إن الحجر ناحية صغيرة وحصينة .

ويحدثنا فؤاد حمزة بقوله : « ورد في الكتب العربية أن ثمود كانت
تقيم في الجهات الجنوبية من المملكة بين عسير واليمن وحضرموت ثم
انتقلت بدواعٍ غير معلومة بعد حروبها مع عاد ، وافنائها إياهم - من
بلادها الأصلية في الجنوب ، إلى شمال الحجاز في وادي القرى ،
وأنشأت في العلا مدائن صالح والحِجْرَ ، منشآت ، بقيت لنا آثارها
حتى الآن » ^٣ . أما من ناحية سكانها الحاليين فإن فؤاد حمزة يفيدنا
بأن « إمارة العلا ، مركزها بلدة العلا ، على خط السكة الحجازية
الحديدية أيضاً ، ويتبعها من العربان هتم وولد علي وبعض حرب » ^٤ .

١ ص ٩١ ، طبعة بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

٢ ص ١١٨٤ ، ج ٤ ، طبعة مصر ، نشر محمد النمنكاني بالمدينة .

٣ ص ٢١٢ من كتاب « قلب جزيرة العرب » . وربما كانت كلمة « إفنائها » في الأصل
« اجلائها » .

٤ المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

ويحدد لنا صاحب كتاب « الجزيرة العربية » موقع مدائن صالح بأنها « تقع للشمال الشرقي من العُلا ، وعلى بُعد ثلاثين كيلومتراً منها . وكانت محطة من محطات الخط الحديدي الحجازي ، على بعد ٩٥٥ كيلومتراً من دمشق .. وترتفع عن سطح البحر ٧٨١ متراً .. وهي في البلاد المعروفة في العصور السابقة باسم « الحَجْر » (بالكسر ثم السكون) من وادي القرى ، بطريق الحج الشامي إلى مكة »^١ .

كما يعطينا فكرة عن تاريخ الحَجْر القديم إذ يقول : « والمشهور أن قبيلة ثمود الوارد ذكرها في القرآن الكريم مع النبي صالح ، كان مُقَامُهَا في (الحجر) وكانت عشائرها تمتد غرباً إلى البحر الأحمر ، وشرقاً إلى جبلي أجلى وسَلَمَى ، وذكرت في جملة الشعوب التي تغلب عليها سرجون الثاني الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد . وآخر ذكر عثرنا عليه للثموديين هو التحاق خيالة منهم بجيش البيزنطيين في القرن الخامس للميلاد . ومنذ القرن الخامس حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، كان يملك (الحَجْر) وجميع المنطقة المجاورة ، اللّٰحِصَانِيُّونَ ، فكانت مدينتهم الرئيسية تعرف باسم (هجرا) .. وعلى رأي بعضهم إن مدائن صالح اليوم هي مدينة الحَجْر القديمة »^٢ . وقد أورد هذا الرأي أيضاً جواد علي ودَعَمَهُ ، في كتابه : (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

١ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام : لمصطفى مراد الدباغ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، طبع بيروت .

٢ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام : لمصطفى مراد الدباغ ، ص ١٣١ ، ج ١ .. على أن تحديده لامتداد عشائر ثمود غرباً إلى البحر الأحمر نعطف عليه قولنا : وجنوباً عن البحر الأحمر أيضاً . فقد اكتشف في وادي بويب شرق جدة نقوش لهم .. وتحديده امتدادهم إلى جبلي اجا وسلمى شرقاً تبدو صحته ، بما دلت آثارهم بالصويدة في طريق القصيم على حلولهم بها .

الحِجْرُ في البحوث الاقتصادية الحديثة :

في عام ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٣ م أوفدت الحكومة العربية السعودية بعثة أمريكية زراعية جابت كثيراً من بقاع المملكة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، ووصلت إلى مدائن صالح وكتبت عنها نبذة طيبة في تقريرها العام الذي قدمته إلى الحكومة وطُبِعَ التقرير باللغتين : العربية والإنكليزية .. وجاء فيه : « على الرغم من أن الخرائب الفسيحة الموجودة بمدائن صالح تُبَيِّنُ بجلء أن عدداً من السكان أكبر نسبياً في الأزمان الغابرة يزرع هذه المنطقة بإيروائها من الآبار ، فإنه لا توجد هناك في الوقت الحاضر غير مغروسات تَسْمُرُ قليلة .. وهذه المغروسات تُرَوَّى من بئر ، سطح الماء فيها على عمق ١٣ متراً من سطح الأرض ، وقد اتصل بنا ان سحب الماء بواسطة جملين لم يخفض مستوى رفع الماء عنها .. ويعتقد مالك البئر أن في استطاعتها أن تتحمل بسهولة سحب الماء منها بأربع قِرب أو أكثر . وتوجد في هذه المنطقة عدة مئاث من الأفدنة جيدة التربة . أما الماء الذي يمكن الحصول عليه فلا يمكن تقدير كميته إلا باجراء تجارب فيه بالمضخات »^١ .

ومعلوم أن هذا التقرير كُتِبَ عن مدائن صالح قبل عشرين عاماً . ولا بدّ أن حالتها الزراعية قد تحسنت كثيراً أو قليلاً عن ذي قبل ..

الحِجْرُ في الشعر الجاهلي :

ورد اسم (الحجر) في قصيدة الشاعر الجاهلي الحجازي (العجلاني)

١ ص ١٥٧ ، طبع القاهرة .

التي استسقى بها المطر لجميع مَواطنِ بلاده الدانية والقاصية ، وقد سردها فيها .. من شملها إلى جنوبها ، ومن غربها إلى شرقها . وقد دعا الله تعالى في مطلع قصيدته 'دُعَاءاً حارّاً' أن يُروِيَ ظمأ بلاده بالغيث شاملاً كاملاً . وقبيل اختتام قصيدته بَثَّ لنا ذكرياته. الممتعة عن سني الأمطار الغزار التي سبق أن نعم بها الحجاز ، وهذه المناسبة سُمي أيضاً الديار التي هطلت عليها تلك الغيوث ، وعَدَّ لنا منها (الحِجْر) قال :

رُويَتْ مِنْ بَعَاعِيهَا الْعَيْصُ فَالَرَّ
 سَ سَيُولَا ، فَالْمَرْوَةُ الْبَيْضَاءُ
 وَأَرَبَّتْ^١ تَنْصَبُّ فِي (الحِجْرِ) وَالْو
 دَّ كَمَا صَبَّ فِي الْحِيَاضِ الدِّلَاءُ

جبال الحِجْر :

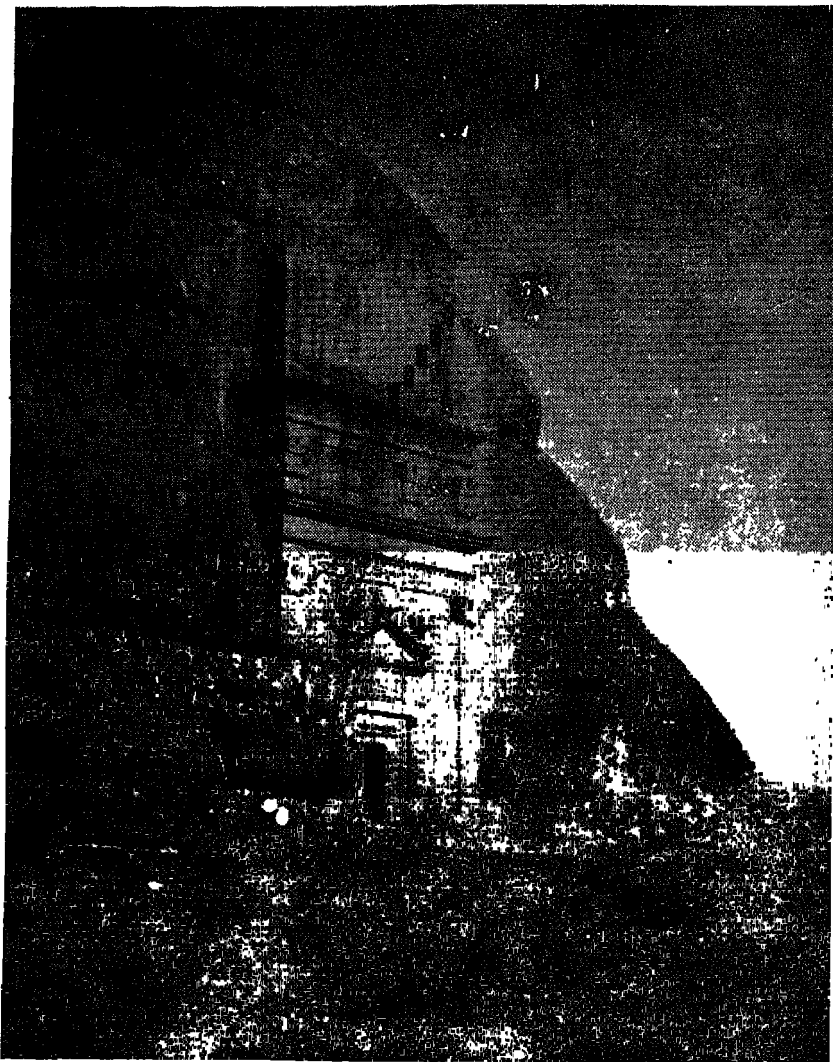
وإن تعجب فعجب من التصحيف الذي يعتري أعلام الأمانة في المراجع العربية ، فيضيع حقائقها ويجعلها مضطربة لا يَقْرَأُ لها قرار .. فقد ورد في كتاب (جغرافية شبه جزيرة العرب) لعمر رضا كحالة المطبوع في دمشق الشام أن اسم هذه الجبال هو (الأشالب) بشين معجمة بعد الهمزة .

وورد في كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفداء صاحب حماة (طبعة باريس ١٨٤٠ م) ما نصه : « وَتُسَمَّى تِلْكَ الْجِبَالُ الْأَثَالِبُ »^٢ بشاء

١ أربت : بمعنى أقامت ومكثت ، والضمير يرجع إلى الأمطار الغزيرة . وهذا (الحجر) هو مدائن صالح بدليل ذكره العيص قرب وادي القرى : صفة جزيرة العرب ، ص ١٣١ ، طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٥ م .

٢ ص ٨٩ ، ج ١ .

مثلثة بعدها ألف فلام فباء تحتية موحدة .
وجاء في (معجم البلدان) لياقوت الحمويّ (طبعة بيروت) أنها



بعض البيوت الأثرية في مدائن صالح

(الأثاث) ^١ بثائين مثلثتين .

ويبدو لي أن ما جاء في معجم ياقوت هو الصواب ، حسب ما كنتُ
أشرتُ إليه فيما سبق .

وهكذا تضيع معالم الحقيقة في الأسماء غالباً .. من جراء تحريف
الطابعين وقد سبقهم إلى ذلك الناسخون .. ولا يزال الاثنان كذلك .

الخط الثمودي :

يصف الدكتور جواد علي^٢ ، الكتابات الثمودية بأنها قصيرة وبمجرد
أسماء في كثير من الأحوال دَوِّنَتْ للذكرى ، فتراها على هذا النحو :
« لوهب بن رقد » أو « لشهري بن رقد » أو « لغصن بن اسله » . وهي
تفيدنا من ناحية الإحاطة بأسماء الجاهليين ، ولكنها لا تفيدنا من ناحية
قواعد اللغة . فنصوص^٣ كهذه ليس في وسع أحد استخراج قواعد
مُفَصَّلَة منها . ولهذا كانت مَعَارِفُنَا بنحو هذه اللهجة وصرفها ضيقة^٤
محدودة^٥ . ويقول جواد علي : إن الخط الثمودي كالخط المسند ،
والخط اللحياني ، خالٍ من الشكل ومن التشديد ومن الإشباع وعلامات
الحركات ^٢ و ^٣ .

وهذا الذي يقوله الدكتور جواد علي هو حقيقة واقعة . فإن
الخط العربي الذي نكتبه الآن كان في أيام نَشَأَتِهِ في الجاهلية القريبة
من الإسلام ، وفي عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خالياً
من النقط والشكل والتشديد وبعض علامات المد .. وقد زيدت فيه هذه

١ ص ٨٩ ، ج ١ .

٢ ص ٨٩ ، ج ١ .

٣ ص ٨٩ ، ج ١ .

الاشياء في العصر الإسلامي حينما أصبح خطأ علمياً واسع المدى .
وأما ما يقوله من جهلنا بقواعد لغة ثمود فالذي يبدو لي أن هذا من آثار
أوهام المستشرقين وتوهمياتهم الداخلة على علماء العرب وإلا فالثمودية
هي العربية نفسها وقواعدها هي قواعدها بدليل أن أسماءها هي أسماؤها،
على انه لا بد من وجود اختلافات في اللهجة بين العريتين كما نراه حتى
اليوم ، من وجود بعض الاختلافات في لهجة أهل اليمن وحضرموت
من جهة ، ولهجة الحجاز ونجد من جهة ، خاصة وان الثموديين هم في
الأصل يمانون ، نرحوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها كما يفعل الجنوبيون
إلى اليوم .

ويميل جواد عليّ إلى أن أصل الخط الثمودي هو المسند اليمني .
فيقول : « وقد مر القلم الثمودي في أدوار ، تحرر فيها شيئاً فشيئاً من
أشكال حروف المسند ، فكان كلما مرّ دورٌ ، خرجت بعض حروفه
بمميزات وبعلامات فارقة ، ولكنها مع ذلك لم تتمكن من أن تباعد بين
المسند وحروف القلم الثمودي بوجه عام ، بُعداً كبيراً . والقارئ
إذا ما أبصر الكلمتين فسرعان ما يدرك وجه الشبه ووحدّة الأصل
بين القاميين ، فيحكم بأن القلم الثمودي من ذلك القلم العربي القديم ^١ .

وهذا الذي يقوله جواد عليّ ، يدعم لنا بطريقة حديثة أن أصل ديار
ثمود تقع في جنوب المملكة ، وأنها كانت تُعاش وتُساكن عاداً ،
وأن حرباً بينهما طاحنة نشبت ، هزمت فيها عادٌ ، ثمودٌ ، واستولت
عاد على زمام الزعامة في الجنوب عنوة ، ومن ثم اضطرت ثمود إلى
الهجرة إلى الشمال من أرض المملكة حيث اختارت لإقامة دولتها الصناعية
والزراعية الحديثة ، منطقة مدائن صالح ، ونالها غضبُ الرب لما استهانت

١ المصدر السابق .

بأوامره وطغت وبغت على نبيه صالح عليه السلام .. فأصبحت ديارها خالية تنعي من بناها إلى يوم الناس هذا . فوحدة الخطين : الثمودي والمسند تدل على أن مَنَشَأَهُمَا واحد وهو الجنوب . ومن يُدْرِينَا فقد تكون القبيلتان عاد وثمود ابنتي عَمٍّ ، تنافستا على الزعامة كما هو دأبُ قبائل العرب المتساكنة في جاهلية وفي إسلام ، فدأبى تنافسهما إلى اقتتالهما ، وإلى دحر إحداهما الأخرى ، فاستبدت القبيلة الغالبة بمقدرات المغلوبة واستولت على زمام الأمر والزعامة بدلها فاضطرت المدحورة إلى أن تهاجر إلى بلد بعيد عن الغالبة القاهرة لها .

ونذكر من هذا القبيل فيما قبل التاريخ حَوَادِثَ طسم وجديس ، وفيما قبيل الإسلام حُرُوبَ بُعَاثَ بين الأوس والخزرج ، وحُرُوبَ داحس والغبراء .. الخ ... ثم حروب بني حرب اليانين مع الربيعة التي اضطرت (حرباً) إلى الحلاء عن صعدة في سنة ١٣١ هـ إلى الحجاز واستقرارهم فيه حتى اليوم ^١ .

وتدلنا البحوث وما عثر عليه من خطوط ثمودية في أنحاء الجزيرة ، على أن هذه القبيلة العربية أو الدولة العربية (ثمود) قد انتشرت في أنحاء كثيرة من بلاد العرب في الحجاز ونجد واليمن ، غير الحِجَازِ ومدائن صالح ... وحقيقة أحوالها وانتشارها إنما تُسْتَكْشَفُ بإجراء التنقيبات الأثرية العلمية في مظان وجودها مُسْتَمَدّاً ذلك من كتب التاريخ ، ومن الأثریات المعثور عليها نفسها .. فالآثار تدل على بعضها .

أسماء الاشخاص الثموديين :

وأسماء الأشخاص الثموديين لا تخرج غالباً عن الأسماء العربية المألوفة

١ الإكليل للهمداني ، ج ١ ، ص ٣٠٧ و ص ٣١٧ ، طبعة مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

في الجاهلية القريبة من صدر الإسلام ، والمعروفة المستعملة في كثير من الأحيان في الإسلام : صبحه ، ظهره ، وحاضره . ومن تلك الأسماء الثمودية التي وصلت إلينا : (أوس) و (سعد) و (عقير) و (أسعد) و (إياس) و (قيس بن أئيل) و (بارح) - و (مالك) .. وغيرها ... وهي أسماء لا يزال كثير منها مستعملاً ، وكذلك : (أحمد) و (صهيب) و (مهلهل) و (هلال) و (كعب) و (حزم) و (يعلى) و (علي) و (جلال) و (أمية) .

ونرى أن بقاء استعمال هذه الأسماء إلى الآن يدلنا على أن عربية الثموديين لا تبعد كثيراً عن عربية الجاهلية القريبة من الإسلام كما يحاول المستشرقون أن يصوروه ويدعموه إن لم تكن هي بذاتها .

كما يدلنا تتبعها من مظانها على أن ذلك تم لها حينما تحررت في آخر الأمر من «تَبَعِيَّةٍ» لَهْجَةِ اليمن . فلا نرى فيها (ذو) ولا (أم) بل (ال) .. لقد عدلت لهجة ثمود بحكم المجاورة والامتزاج - إلى لهجة حجازية نجدية ثمودية ، ثم اندمجت الاندماج الأكبر في العربية القرشية وغيرها منذ فجر الإسلام .. وذابت مع مثيلاتها من اللهجات إلى حدٍّ ما ، في بوتقة هذا التراث القيم الزاخر بالقوة واللمعان .

أسماء الآلهة الثمودية :

وعدد لنا جواد علي ، أسماء الآلهة لدى ثمود .. (رضا) و (صلم) و (ود) و (جدهد) و (شمس) و (عزيز) و (نرجد) و (مناة) و (نهي) و (ايل) و (اللات) و (عترسم) و (عترسمين) و (كاهل) و (ملك) و (مالك) وبعض هذه الأسماء تتفق مع أسماء الله جل وعلا وصفاته

في العربية الإسلامية .. فالله ملك ومالك وعزيز^١ .. بيد أنهم كانوا قد أشركوا به تعالى غيره من الأوثان وسموها بهذه الأسماء .. وذلك شأن الجاهلية المتخبطة في أودية الجهالة والضلالة ...

الشهور الثمودية :

إن وجود التاريخ عند قوم أو أمة يدل على أنها ذات مدنية .. وقد أورد لنا التاريخ العربي أسماء الشهور الثمودية .. ومن كان ذا مدنية زاهرة باهرة مثلهم فلا بد أن يكون له تاريخ يستعمله في أعماله الخاصة والعامة ومعاملاته وأعمال ديانته وحكمه وإدارته ..

وهذه هي أسماء شهورهم الاثني عشر :

موجب ، وموجر ، ومورد ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهوبل ، وموها ، وذيمر ، ودابر ، وحقل ، ومسيل .

وموجب هو المحرم ، وموجر هو صفر . ويبدأ تاريخهم السنوي في تقويمهم بذيمر الذي هو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم^٢ .

وأنا حينما أتأمل صيغ هذه الشهور أجد فيها رسيس لغة عربية صافية يمت أقلها إلى اليمن ، مما يدل على أن أسماء الشهور بقيت في الأقل على ما كانت عليه ، أيام كينونة ثمود في الجنوب ، وأغلبها شمالية

١ لعل معنى « كاهل » في الثمودية هو : « المعتمد عليه » ، ولذلك وصفوا الآله به .. وفي العربية الجاهلية القريية من الإسلام ما يدل على هذا المعنى لهذه الصيغة . فقد ورد في تاج العروس شرح القاموس : « ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : هل في أهلك من كاهل ؟ » أي من تعتمده للقيام بشأن عيالك الصغار من يلزمك عوله .

٢ المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٥ .

السِّمَات .. فموجب ، من كلمة (أوجب) ، و (موجر) من (أوجر) و (مورد) من صيغة (أورد) و (ملزم) من (ألزم) و (مصدر) من (أصدر) . أما (هوبر) و (هوبل) و (موها) و (حيقل) فهي على ما يبدو لي لم تُعَدَّل ولم تُصَقَّلْ بَعْدُ .. لقد بقيت على طابعها الجنوبي القديم الذي طبعت عليه ، أيام استيطان الثموديين الجنوب و (ذيمر) كذلك جنوبية الطابع على ما يظهر لي .. فإن علامة (ذي) موجودة فيها وهي جنوبية . و (دابر) من أدبر ضد (أقبل) و (مسيل) من (سال) أو (أسال) .

حضارة ثمود :

هذا ولعدم استكشاف حضارة ثمود إلى اليوم ، فإن العالم لا يعلم عنها سوى نُتْفٍ .. وأهم ما لدينا عنها ما ورد في «الذكر الحكيم» الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .. وقد كان لجهود الرحالين المسلمين القُدَامَى ، ومن جاء بعدهم من المستشرقين المغامرين أثرٌ في استكشاف مفردات وبعض تراتيب من حياتهم وطقوسهم ، ولكنها لا تتناول صميم تاريخ وجودهم كدولة لا في ابتداء ولا في انتهاء ، ولا تتناول النُظُم الدينية والسياسية والقضائية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والزراعية السائدة لديهم ، إذ لم تجر تنقيبات علمية واسعة النطاق في بلادهم بَعْدُ ، ولم يبحث العلماء عن الدفائن المطمورة في باطن أرضهم طبق ما اتبَّع في حفائر الفراعنة في مصر والأشوريين في العراق وغيرهم من بواحد الأمم . وعسى أن تقوم المديرية العامة للآثار التابعة لوزارة المعارف وجامعة الرياض وجامعة الملك عبد العزيز الاهلية بمجدة بالشيء الكثير من هذا القبيل ، فتَسُدَّ هذه الثغرة الكبيرة ، وتُطْلِعَ العالم على حضارة ضخمة سالفة مجهولة الحقائق من حضارات العرب في شَآل المملكة العربية السعودية وشرقها وجنوبها وغربها إن شاء الله .

بيوت مدائن صالح

عقب قيام (نادي البحر الأحمر) في جُدة برحلته إلى مدائن صالح في أواسط عام ١٣٨٤ هـ - الموافق لآخر عام ١٩٦٤ م - عاد أعضاء النادي إلى جُدة ، وتحدّث بعضهم عن نتائج الرحلة وما شاهدوه هناك من الآثار الخالدة . وكتب بعضهم ، في بعض الصحف المحلية آراءهم المبينة على المشاهدة والمطالعة ، فذكر أن منحوتات مدائن صالح لم تكن منازل للأحياء السكّان ، وإنما كانت مساكنَ لأمواتهم : أي مقابرَ ومدافن وأضرحة^١ .

واستند في إثبات هذه النظرية على ضيق البيوت المنحوتة ، وعلى ما أورده بعض المستشرقين الرحالين الذين شاهدوها فيما قبل^٢ ، وكتبوا عنها ما كتبوه إذ ذاك .

وعقب ذلك كتبتُ «افتتاحية» في مجلة (المنهل) لعددتها الصادر في شهر رمضان عام ١٣٨٤ هـ - يناير عام ١٩٦٥ م ، تحت عنوان : (الحجر أو مدائن صالح)^٣ .. وقد رأيت من باب توسعة معلومات القراء عن هذا التراث الكبير ، أن أضَمِّن مقالي هذا ، نظريات مؤرخي الإسلام ورحّاليه وعلمائه عن هذه البيوت المنحوتة .. كما رأيتُ أن يشتمل على مُلَخَّص لآراء الرحالين الغربيين أيضاً ، جمعاً بين العلم القديم والعلم الحديث ، وعرضاً للنظريات جمعاء في هذا الميدان .

كان مؤرخو الإسلام ورحالوه وعلماءه يرون أن البيوت التي نُقِرَتْ في جبل أو جبالِ مدائن صالح هي بيوت كانت معمورة بأحياء الثموديين الذين نحتوها .. وبذلك فسروا قوله تعالى : « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

١ هي الفصل الذي سبق هذا الفصل مباشرة في هذا الكتاب مع بعض تعديل .

خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا» .. وبذلك فسّروا الآية الكريمة الأخرى :
«وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي
الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ
بَيْوتًا» .. فخاواها أي فراغها منهم بعد هلاكهم دليل صارخ على
سكنائهم فيها في حياتهم .

بل إن الرحالة المؤرخ الإسلامي الإصطخري ، صرح بأن بيوت
مدائن صالح هي مثل بيوتنا وذلك عقب مشاهدته لها ..

أما الرحالون والمستشرقون الغربيون فرأيهم كان خلاف ما ذكر ..
لأنهم يرون أنها كانت مقابر للأموات- ، ولم تكن مساكن للأحياء ...
وقد أخذ برأيهم مَنْ جاء بعدهم من مؤرخي العرب وكتابهم ، معرضين
عما أجمع عليه علماء ومؤرخو أسلافهم .

وكما قلتُ آنفاً : إن بعض أعضاء النادي البحري الذين شاهدوا
البيوت من كتب وعادوا مقتنعين بأنها مقابر وأضرحة لا بيوت سكن ،
يستندون في إثبات رأيهم هذا على الضيق الموجود في تلك
البيوت ، ثم بما أورده الرحالون الغربيون في كتب رحلاتهم ،
ومقالاتهم .

وكنْتُ قد ناقشتهم في هذا الرأي ، من ناحية الضيق ، ومن ناحية
رأي من سبق هؤلاء الرحالين الغربيين من مؤرخي العرب وعلمائهم
الذين هم أعرف بديارهم وبتأثيرها وأسلافهم وأخبارها ، وألصق بهما
وأقرب رُحماً ، وقلتُ لهم فيما قلتُ : إن ضيق المنزل لا يقتضي بطبيعته
أن لا يكون منزل أحياء . ففي المدن المكتظة بالسكان وغير المكتظة ،
اليوم ، نرى مثل هذا الضيق . وفي المدينة المنورة ، في بناياتها القديمة
التي لا يزال بعضها قائماً في حيّ «الأغوات» مثلاً ، وفي «زقاق
الحمزاوي» شيء من ضيق الغرف يتبرم به الساكن . وفي أنقاض مدينة

الفسطاط بمصر ، ما يثبت هذه النظرية ، فإن الانقراض الباقية تدل على ضيق شديد في العُرف . والمسألة إذن مسألة اقتصاد ، وفن ، وذوق ، ومقتضى حال وعصر ، ولنا خير مثال في بعض شقق العمارات السكنية اليوم بالعالم الحديث .

وقد كنتُ ، زيادة في تنوير الموضوع من جميع جوانبه ، قد أبديتُ لمحدثي أنني إنما أحدثته بما قرأته . والافتناع بحقيقة كونها بيوتَ أحياء أو أموات هو رهن بقراءة جميع العبارات التي دُوِّنتُ فيها وعنها ، ثم بحفر الحفائر في السهل المجاور لها .. وذلك لأنَّ (البيت) في اللغة العربية يشملُ بَيْتَ الحيِّ والمَيْتِ معاً ، ولأنَّ جورجي زيدان ينصُّ على أنَّ العبارات المنقوشة لم تُقْرَأْ كُلُّهَا في المدائن ، حسب النص الذي في كتابه .. ذلك ما كان إذ ذاك .. ثم أراد الله أن يقع في يدي كتابُ (آثار الأردن) تأليف (لانكستر هاردنج) مدير دائرة الآثار الأردنية لمدة عشرين عاماً ، إلى عام ١٩٥٦ م . ولانكستر هاردنج هو أحد خبراء الآثار العالميين ، فقد عمل في الأحافير أولاً مع (السير فلندرز بيري) سنة ١٩٢٦ م ، وظل يعمل حتى سنة ١٩٣٢ م ، في منطقة غزة من فلسطين . ثم عمل مدة أربع سنوات مساعداً لمدير بعثة (ول كم) للتنقيب عن الآثار في الشرق الأدنى . وقد عملت هذه البعثةُ في (تل الدوير) حتى عام ١٩٣٦ م وفي العام نفسه عينَ مفتشاً للآثار في إمارة شرقي الأردن (المملكة الأردنية الهاشمية) الآن ، وعندما استقلت الأردن عام ١٩٤٦ م ، وأصبحت تُعرف باسم المملكة الأردنية الهاشمية أُبدِلَ اسمُ وظيفته (هاردنج) فأصبح (مُدِيرَ الآثار) . وفي عام ١٩٤٨ م ، بعد نكبة

١ الشقة في اللغة العربية (بضم الشين) ومن معانيها القطعة المشقوقة من أي شيء كان .. ويصح على هذا تسمية جانب من البيت والعمارة السكنية باسم الشقة على ما عليه عرف الناس اليوم .

فلسطين ، أضيفت آثار الضفّة الغربية إلى المنطقة التي تشملها مسؤوليات (هاردنج) .. ومن جملة ما : خرائب (قمران) ، والكهوف التي اكتشفت فيها (مخطوطات البحر الميت) . ولا يزال هاردنج يعيش في لبنان قريباً من منطقة تجاربه وإدارته فيما سبق . وقد أخذنا هذه المعلومات عنه — من الكتاب الذي ألفه هو نفسه والذي ترجمه إلى اللغة العربية سليمان موسى ، ونشرته اللّجنة الأردنيّة للتعريب والترجمة والنشر ، وتولّت إخراجته مجلة (رسالة المعلم) بالأردن وهو كتاب (آثار الأردن) . وقد طالعت الكتاب من أوله إلى آخره ، فإذا هو دسم مشحون بالمعلومات القيمة التي تُسمّى معرفتها العالم الأثري العربي ، ولا سيما إذا كان من أهل هذه البلاد . لأنه يستنشق من خلالها روائح التاريخ العريق للجزيرة في شأها المتصل ، طبّعيّاً ، بغربها وشرقها وجنوبها قديماً وحديثاً ، بما يلّمسه في ثنايا فصول الكتاب عن آثار شرق المملكة الأردنيّة الهاشميّة من وجودٍ مماثلٍ لما في شأ المملكة العربيّة السعوديّة من آثار وأعمال وحياة ومجتمع عريق .

وقد ألفت في الكتاب ما أكّد لي صحّة ما ذهب اليه قدامى مؤرخي الإسلام وعلماء العرب من أن بيوت مدائن صالح هي بيوت سكّان لأحياء الثموديين الشماليين ، خلفاء العاديين : الجنوبيين الذين هم (عاد) وجيران النبطيين الذين يقطنون بشأهم أيضاً .

ولقد تحدث المستر (هاردنج) مرتين في كتابه المذكور عن بعض البيوت المنحوتة في (النبطية) بـجبال الأردن ومدائنه . وكانت أولى المرتين في الصفحة (١٠٧) أثناء حديثه عن (خربة التنور) النبطية ، ووصف لنا (التل العالي) الذي يوجد على قمته هيكل نبطي يدعى اليوم باسم (خربة التنور) . وصخور هذه المنطقة من النوع الجيري ، الذي يشبه صخور مدائن صالح تماماً .

أما قوله : « وينساب تحت الخربة جداولُ الماء على مدار السنة وترصع جنباته أشجار الدفلى » فهو تماماً كما ينساب الماء في جداول تحت صخور مدائن صالح في ذلك السهل المملوء اليوم ، بأشجار النخيل ، والذي لا ندري بماذا كان يمتلئ ، أيام عُمّارِهِ الثموديين ، من الأشجار . . وإن كنا نرجح أنه النخيل ذاته مضافاً إليه مزارع القمح والفواكه والأزهار وغيرها مما يطعمون ويستنشقون ويعصرون . ويقول : « ويعود الهيكل — هيكل خربة التنور — إلى القرنين الأول ق.م . ، والأول ب.م . » . وكذلك تعود مباني مدائن صالح إلى وقت لا يبعد كثيراً عن ذلك التاريخ . فإِنَّ جُرجي زيدان في كتابه (العرب قبل الإسلام) يقول : « إن مدائن صالح (الحِجْر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين سكان (بطرا) بدليل ما في أطلال هذه المدن من الكتابة النبطية »^١ .

ويقول هاردنج — وهو محل الشاهد — : « تنبسط أمامه ساحة خارجية مبلطة يقوم في زاويتها الشمالية الشرقية مذبح كبير ، وإلى الشمال والجنوب عدد من الحجرات الصغيرة يُعْتَقَدُ بأنها كانت منازل لكهنة الهيكل » .

وإذن فالحجرات الصغيرة التي بمدائن صالح لا يستحيل أن تكون منازل لثمود . فقد كانت الحجرات الصغيرة قرب البتراء منازل لكهنة الهيكل . إنَّ ضيق المساحة يجمع بين هذه الكهوف المنحوتة والمدائن و (سلع) . ثم يفيدنا (هاردنج) بأنه يقوم على الجانبين عدد من الأضرحة يُمَيِّزُ أكثرها بعلامة (خطوة الغراب) : شعار الأنباط التقليدي . ولكن يجب أن لا يسود الاعتقاد بأن كل كهف نُقِرَ في

١ العرب قبل الإسلام ، ص ٧٨ ، طبعة مصر . ودرى جرجي زيدان يقول : « بطرا » وإنما هي « البتراء » بالثناء .

الصخر هو ضريح ، فكثير من هذه الكهوف كان يستعمل مساكن ومسكن . حتى إن بعضها يتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق . » ص ١٢٨ .

وهذا النص من هذا العالم الأثري المعاصر الواقف على آثار الانباط وقوف الدارس الفاحص لها من كتب زهاء ربع قرن ، هو دليل واضح كفيل بهدم النظرية القائلة : (إن بيوت مدائن صالح مقابر) .. استناداً إلى ضيق مساحتها ، كما أن فيه إشارةً بتماثلها من حيث البناء الطبقيّ مع مساكن مدائن صالح . فبعضُ كهوف سَلْع أو البتراء على طابقين ، وبعضها على ثلاثة ، كما هو الشأن في كهوف مدائن صالح على ما بَلَّغْنَا^١ .

وأياً ما كان نوع صخور جبال البتراء ولونها ، فلا بد أنها هَشَّةٌ من النوع القابل للتكليف والنحت كما هو الشأن في صخور مدائن صالح . فكلها في شمال الجزيرة متجاورة ، والمنطقة تكاد تكون واحدة إن لم تكن واحدة فعلاً . وقد شاهدنا جبال تباء وما قبلها من الجبال في الشمال فإذا هي كلها من هذا النوع الخيريّ الهش ، وكذلك نلاحظ هنا أن الانباط قد بسطوا سلطانهم على مدائن صالح قبيل تاريخ الميلاد كما رواه جرجي زيدان في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ، كما نلاحظ تشابه النحتين ، في وضع شعار الانباط التقليدي على منحوتات كهوفهم في (سَلْع) ، تماماً ، كما وضع الثموديون والانباط مِنْ بَعْدِهِمْ ، الشعارات على منحوتات كهوف مدائن صالح . وكما تسرب الوهم العلمي إلى أن منحوتات مدائن صالح ، مقابرٌ كذلك تطرق الوهم

١ قد لا يكون من باب التخمين الأجوف أن وراء الأمكنة الظاهرة للعيان المنقورة في الصخور بمدائن صالح أماكن أخرى لم تستكشف بعد ، والأحافير العلمية كفيلاً باظهار الحقائق المجهولة اليوم .

إلى كهوف سلع . وقد رفع غطاءَ هذا الوهم عنا (هاردنج) وأوضح لنا أن كهوف سلع ، هي مساكن لقومٍ أحياء ، وما الذي يمنع أن تكون كهوف مدائن صالح كذلك ؟ ..

و (البتراء) في اللغة اليونانية بمعنى (سلع) في لغة الأنباط ، وكلتاها بمعنى (الصخرة) أو الشق في الصخرة ، في اللغة العربية . وهو اسم ينطبق على المسمى تماماً . وهي من هذه الناحية شبيهة بمدائن صالح . وهكذا نتوصل من هذا النص الأثري الذي عثرنا عليه أخيراً — لحبير أثريٍّ معاصر — إلى دَعْمِ النظرية الإسلامية القائلة إن بيوت مدائن صالح هي مساكن أحيائهم .

وأضيفُ إلى ذلك ، من عندي — من باب التوفيق بين النظريتين : الإسلامية العربية ، والغربية — أن هذه الكهوف بمدائن صالح ، ربما تكون قد عادت بعد أمدٍ وبالتدريج ، إلى مساكن أمواتهم ، الذين كانوا يقطنون فيها وهم أحياء ، ومِنْ ثَمَّ نُفِشَتْ عليها العبارات والشعارات الباقية إلى اليوم التي تدل على أنها مقابر لهم . وهذه نظرية أعتقد أن فيها كثيراً من التوفيق العلمي بين الرأيين القديم والحديث في هذه المسألة إن شاء الله .

موطن شعيب عليه السلام

شعيب في القرآن المجيد :

كلمة « شُعَيْب » : تصغير واضح لكلمة « شَعْب » بفتح الشين أو كسرهما ، أو أشْعَب . وَلِشَعْبٍ - مفتوحة الشين - معانٍ نورد بعضها فيما بعد . وَلِشَعْبٍ - مكسورة الشين - معانٍ أخرى سيأتي بعضها في محله .

ومشتقات مادة : « شعب » كثيرة . وقد دونت في « معاجم » اللغة ومنها « الشَّعْبُ » بمكة معروف - وسمى العرب « شعبة » : المغيرة ابن شعبة ، و (أشعب) . وفي اليمن قبيلة اسمها من هذه الصيغة . ولشعيب قصة رائعة من قصص بسالة الأنبياء المرسلين في تبليغ رسالات ربهم . وكانت قصته ، مع قومه « مَدْيَن » . وفي هذه القصة التي كررها القرآن ليتمكن الاعتبار بها في نفوس المشركين من العرب وغيرهم ورد اسم « شعيب » عشر مرات : في سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء .. وينبغي أن نلاحظ أن هذه السور كلها « مكّية النزول » .. وفي كل مرة يذكر اسمه مجرداً عن ذكر أي شيء من نسبه اللهم إلا أنه كان أحاً مدين . و « مَدْيَن » تعني في أكثر الآي القرآنية : القبيلة التي بعث الله شعيباً إليها .. وهناك آية بسورة « التوبة » يبدو من سياقها أنها تعني بمدين : المدينة التي كانت تقيم فيها قبيلة مدين - من باب المجاز المرسل - إذ في هذا ، إطلاق اسم الحال على المحل . ومثلها اسم « يثرب » الذي كان عكماً على المدينة المنورة قبل الإسلام . و « مَدْيَن » في رأي بعض علماء الآثار . وقد ورد اسم « مدين » عشر مرات في القرآن ، تماماً ، كما ورد اسم « شعيب » فيه عشر مرات . وينص القرآن على حمل شعيب لرسالة ربه إلى قومه .. فأمن به فريق فنجوا ، وكذب به قوم فأهلكوا بعذاب

من الله جل وعز .

والآي القرانية الكريمة التي تحدثت عن قصة شعيب وقومه هي خمس وثلاثون آية .. منها تسع آيات في سورة « الأعراف » وقد بُدِئت بقوله تعالى :

«وَالَّذِينَ مَدَّيْنًا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ آلِهٍ غَيْرُهُ» ..

واثنتا عشرة آية في سورة (هود) وقد بُدِئت بقوله تعالى أيضاً :

«وَالَّذِينَ مَدَّيْنًا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ آلِهٍ غَيْرُهُ» ..

وأربع عشرة آية في سورة « الشعراء » وقد افتتحت بقوله تعالى :
« كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ
أَلَا تَتَّقُونَ » ؟ ..

مَدَّيْنٌ فِي الْقُرْآن :

في ست سور كريمة ورد اسم مدين .. هي سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة التوبة ، وسورة طه ، وسورة الحج ، وسورة الشعراء . وكلمة : « مدين » في كل هذه السور — ما عدا سورة التوبة — تعني — على ما نرى — قبيلة مدين .. بدليل قوله تعالى : « وَالَّذِينَ مَدَّيْنًا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » أي : وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً .

أما مدين « في سورة التوبة » فيبدو من سياقها ، كما أسلفنا ، أنها تعني (مدينة قبيلة مدين) ونص الآية : « أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ » الآية (٧٠) .

ومن رأيي أن مؤلف كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» جواد علي ، لم يحسن التأمل في هذه الآية الكريمة حينما قال : «إنه ورد اسمهم - أي قبيلة مدين - في سورة التوبة^١ . ففيما يبدو جلياً إن المراد بمدين في هذه الآية بالذات هو «المدينة» أو الماء . على ما ذكره ابن الجوزي في تفسيره ، لا «القبيلة» . وبدليل إضافة صيغة (أصحاب) إلى (مدين) فيها . وكلمة (أصحاب) هذه إذا أُضيفت إلى اسم فهي غيره^٢ .. فإذا كان ، مكاناً ، كانت إضافتها إلى ذلك المكان ، وإذا كان اسماً أو علماً على شخص كمؤسسى كانت تؤدي معنى الانتساب إليه وهي غير المضاف إليه على كل حال .. (ومدين) القبيلة ليست علماً على شخص في عهد رسالة شعيب ، فتعين أن تكون وهي بعد كلمة (أصحاب) اسماً للمدينة أو الماء ، ولا يصح أن نؤها بمعنى القبيلة .. إذن لاختل المعنى .. وصار هكذا : (أصحاب القبيلة) وأصحاب القبيلة شيء آخر غير القبيلة .. وليس هذا هو المراد طبعاً ... وإنما المراد - والله أعلم - بالأصحاب ، هم قبيلة مدين ذاتها . ونسبة (أصحاب) الذين يُعنى بهم القبيلة إلى (مدين) يجعل (مدين) لا محالة اسماً للمدينة التي هم أصحابها أي أهلها وسكانها ، أو اسماً لماثمهم . قال تعالى في مثل هذا المعنى : «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ» .. «كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ» .. «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» .. «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» .. «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ» .. «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّقِينَةِ» «وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ» .

١ ص ٣١٦ ، المجلد الأول .

٢ هذا التحليل من عند مؤلف هذا الكتاب .

شعيب .. ومدين .. في تفاسير القرآن :

في تفسير « ابن كثير » أن (قوم شعيب وشعيباً هم من سلالة « مدين » بن ابراهيم ، وان مدين تطلق على القبيلة والمدينة ، وانها بقرب معان^١ من طريق الحجاز ، وقال عن (أصحاب الأيكة) في قوله تعالى عن رحلة موسى : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ » : قال : لانهم هم أصحاب الأيكة والأيكة - لغة - الغيضة .

وفي تفسير « البغوي » أن (شعيباً كان أخاهم في النسب لا في الدين) وساق نسبه هكذا : « شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم وأم ميكائيل بنت لوط » .

ومن رأي الدكتور جواد علي في كتابه : « تاريخ العرب قبل الإسلام » أن هذه النسبة أخذها العرب المسلمون عن غيرهم .

وفي تفسير « المراغي » عكس رأي « البغوي » ، فهو يقول : إن شعيباً ليس من مدين في النسب . وهذا الرأي ربما كان يوصلنا إلى التواءم في بعض النقط مع رأي « الهمداني » في « الإكليل » الذي يجعل شعيباً يمانى الأصل .

شعيب ومدين .. في مراجع اللغة :

إذا رجعنا « شعيباً » إلى « الشَّعْبِ » - بفتح الشين - فهو عربي فصيح وأصيل . وكذلك الأمر إذا أعدناه إلى « الشَّعْبِ » مكسور الشين . أو إلى « أشعب » . ومن معاني الشَّعْبِ - بفتح الشين - :

١ الحقيقة أنها بقرب العقبة . ومعان بعيدة عنها .

أبو القبائل ، أو ما تشعب من القبائل قديماً ، والأمة المتكاملة حديثاً :
ومن معاني الشَّعْبِ - بالفتح - أيضاً : الإصلاح والتفريق ^١ . ومن
معاني الشَّعْبِ - بكسر الشين - الطريقُ في الجبل .

ومعلوم أن «الشَّعْبَةَ» و «الشَّعْيبَةَ» موضعان معروفان في هذه
البلاد . وشعَيْب عليه السلام وقومه ومدينتهم (مَدِينُ) أو ماؤهم
من أهل هذه البلاد . كما سيأتي بيانه .

ويقول صاحب «القاموس المحيط» : إن «شُعَيْباً ، من الأنبياء» ^٢ .
ويقول «تاج العروس» في شرحه لما ذكره صاحب القاموس هنا :
إن شعيباً اسم عربيٌّ يمكن أن يكون تصغيرُ أشعب كما قالوا في تصغير
«أسود» : سُوَيْدٌ . وهو تصغيرُ الترخيم .

ويقول صاحب «لسان العرب» : إن مدين اسم أعجميٍّ ، وإن
اشتقاقه من العربية فالياء زائدة .. ومَدِينُ : اسم قرية «شعيب» ^٣ .
وفي القاموس : (مَدِينُ قرية شعيب) .

وفي «معجم متن اللغة» ان (مدين قرية شعيب ^٤) .

شعيب ومدين .. في المراجع التاريخية :

في تاريخ (الطبري) : أن شعيباً بُعِثَ بعد النبيّ أيوب ، من
أحفاد إبراهيم عليه السلام . وساق نسبه هكذا : «شعيب بن صيفون

١ لسان العرب ، ص ٤٩٨ ، المجلد ١ ، طبعة بيروت .

٢ ص ٩٢ ، المجلد الأول ، مطبعة مصطفى الحلبي .

٣ لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٤٠٣ .

٤ ص ٢٦٤ ، مجلد ٥ ، وهذا المعجم هو تأليف أحمد رضا .

ابن عنقاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم . وأشار الطبري إلى الاختلاف الواقع في عمود نسب شعيب . ونعطف على ذلك القول بأنه اختلاف شديد وبارز السمات ، جداً .. مما يدلنا على عدم الدقة في ضبط سلسلة هذا النسب .. فبعض المؤرخين يعيد نسبه إلى العرب ، ويسمي آباءه بأسماء عربية كالطبري والهمداني والزركلي .. وبعضهم يوصل هذا النسب إلى غير العرب ويسمي آباءه بأسماء عبرانية : يثرون ، ميكائيل .. والظاهرة الحلية في هذا كله هي عدم استقرار المؤرخين على حقيقة نسب شعيب إلى جذم واضح حتى من يسمون آباءه منهم بأسماء عربية هم شديدو الاختلاف في هذه الأسماء .. فهل شعيب النبي العربي غير شعيب : (يثرون) ؟

أما قول (الطبري) : إنه كان ضرير البصر أو ضعيفه على رواية ، استناداً إلى قوله تعالى عنه على لسان قومه : « وَإِنَّا لَنَرَاكَ فَيِّنَا ضَعِيفًا »^١ .. فنحن لا نرى هذا الرأي ، ونرى أن « ضعف شعيب » الذي يلزمه به قومه هو « ضَعْفُ حالة اجتماعية وقبليّة لا ضعفُ بَصَرٍ . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وقد جاء فيه في آية أخرى : « وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » .

ومعنى هذا أنهم يرونه مستضعفاً فيهم بالنسبة لقوتهم الاجتماعية ، ولنفوذهم .

ويقول الهمداني صاحب « الإكليل » : إن شعيباً النبيّ ينتمي إلى أرومة اليمن .. فهو من قوم صاحب الإكليل نفسه . وعزا الهمداني إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه أبياتاً ، نسب فيها شعيباً إلى بني قحطان

١ تاريخ الطبري ، ص ٢٢٨ ، المجلد الأول ، مطبعة الاستقامة بمصر ، سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م .

باليمن هي :

فنحن بنو قحطان والملك والعلا
ومنا نبي الله هود الأخابر
وإدريس ما إن كان في الناس مثله
ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر
وصالح والمرحوم يونس بعدما
آلات به حوت بأخلب زاخر
«شعيب» والياس وذو الكفل كلهم
يَمَانُونَ^١ قد فازوا بطيب السرائر

ونلاحظ على هذه الأبيات أموراً ، منها أن أسلوبها ليس قوياً .
ووردت فيها كلمة «المرحوم» والمفهوم أنها «مولدة» فإن كان هذا
الشعر ، شعر حسان بن ثابت حقاً ، فهو نص على أصالة الكلمة ،
وصحة التعبير بها .. وليست هذه الأبيات في ديوان حسان المطبوع
والموجود لدينا . ولا نتهم الهمداني بالتقول على حسان ، ولكن السهو
والانتحال موجودان في الرواة من قديم الزمان ... فقد تكون الأبيات
رُويَتْ عن حسان للمؤلف ، وهي منحولة ، ولم يحص الهمداني نصها
ولم يفحص روايتها لأنها وافقت مبدأً له .. والإنسان بشراً يخطئ ويصيب
على كل حال .

والهمداني ينسب «شعيباً» هكذا : «شعيب بن مهديم بن ذي مهديم
ابن المقدم بن حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن يسد بن زرعة ،
وهو حمير الأصغر» .

١ اعتاد الكتاب حديثاً أن يكتبوا جمع «يماني» هكذا : «يمانئون» بالياء .. والفصيح في هذا
حذف الياء الأخيرة فيقال : «يمانون» . يمانين . الكتاب لسيبويه .

ويضيف الهمداني (لسانُ اليمَن) إلى ما ذكر أن بخت نصر كان أخذ بثأر نبيِّ الله شعيب من العرب في غزوه لبلادهم .. ولا ندري أيُّ ثأر يقصد ؟ فهل قتل العرب شعيباً في مدين أو في مكان آخر من ديارهم ؟ ومن هو هذا النبي الذي قتله العرب ؟ وهل لبختنصر صلة ما بشعيب النبي ؟ أو بقومه ؟ ..

والوارد في القرآن المجيد أن شعيباً سلم مع من آمن به من هلاك يوم الظلّة وهلك الكافرون به وحدهم .. والمذكور في التاريخ انه توفي ودُفِنَ في قرية الخيارة أو خربة شعيب أو مغاير شعيب .

ويعود الهمداني فيؤكّد لنا في الجزء الثاني من كتابه : (الأكليل) نسبة شعيب إلى اليمَن فقبيلته عنده : (الأوزاع) . وسلسل شجرة نسبه هنا — نازلاً — من أعلى حتى أبيه ، بعدما سلسلها فما تقدم ، منه — صاعداً — إلى الجد الأعلى قال : « قال أبو نصر : وأولد المقدم بن حضور ، ذا مهدم بن المقدم . غره وخولان بن المقدم .. فولد نخولان النسيء والكبار والأجراد . وأولد ذو مهدم بن المقدم : مهدم بن ذي مهدم فأولد مهدم بن ذي مهدم : شعيباً النبي صلى الله عليه وسلم ابن مهدم بن ذي مهدم . ومسجده اليوم في رأس جبل حدة » .

ونظرية الهمداني هذه أو روايته تتفق من وجه مع رواية من يقول : إن شعيباً لم يكن من أحفاد إبراهيم ، لأنه بمقتضاها — قحطاني ، أي من العرب العاربة لا المستعربة التي جدّها إبراهيم عليه السلام .. على أن أولئك الذين يرون هذا الرأي يختلف معهم الهمداني في نقطة حساسة .. ذلك أنهم يرفعون نسب شعيب العربي من جهة أمّه إلى ابنة لوط .. ولهذا الجدة للأم صلة قرابة مع إبراهيم عليه السلام . وهذا إضافة إلى نسبته العمومية إلى إبراهيم فهو إذن عنده : ابن إبراهيم من أبويه : الأب والأم .

وإذا أخذنا بوجهة نظر الهمداني ، وهو رجل حصيف ، وإن كنا نأخذ عليه في مؤلفه «العنصرية» البارزة التي منحتهُ أو منسح لأجلها لقب (لسان اليمن) .. فإنه بإمكاننا أن نجعل شعبياً أضحاً مدين ، من مهاجرة اليمن .. أي من مهاجري الجنوب إلى الشمال من بلاد العرب .. وقد كان المدينيون أيام هجرتهم ، ذوي قلة وضعف مادّي أشار إليهما القرآن ، حيث كثّرهم الله وأغناهم ، فبغوا في الأرض فساداً ، وكفروا بالله وبأنعمه عليهم .. فألذّهم رسولهم وأخوهم شعيب بوخم مغبة كفرهم وفسادهم فلم يرتدعوا . فأنزل الله عليهم صاعقة من ظلمة أخذتهم بها رجفة ، فدمرتهم تدميراً .. وبقي المؤمنون منهم بمنجاة من هذا العذاب العظيم ، وعلى رأسهم النبي المرسل إليهم شعيب صلى الله عليه وسلم . وقص الله علينا قصتهم للاعتبار والادكار .

و (يمانيةٌ شعيب ومديني) لا يناقضها ما جاء في كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » من أن التوراة لم تبين مناطق إقامتهم ، حيث غيروها مراراً^١ ، ومما يلفت نظر المؤرخ إلى أن المدينيين كان عدم الاستقرار يلزمهم ، ثم لما استقروا واستثمروا خيرات البلاد طغوا وبغوا ، فكان عليهم ما كان ...

ونخير الدين الزركلي في (الأعلام) رأيي في نسب (شعيب) وفي أصله فهو عنده عربي صميم ، من نسل إبراهيم عليه السلام .. ومعنى ذلك أنه من العرب المستعربة . ويتفق في رفع نسبه إلى إبراهيم مع رأي ابن كثير والبغوي وابن الجوزي في تفاسيرهم ، ومع الطبري في تاريخه ، ويختلف جيداً ، مع الهمداني ، الذي يرى أن شعيباً قحطاني^٢ .

يقول خير الدين الزركلي : « إن شعيباً كان بعد هود وصالح وقبل

١ وربما لم تتعرض لهم التوراة أصلاً ، فما كل شيء تعرضت له .

أيام موسى » . وكونه بعد هود وصالح قد دلت عليه نصوص هذه الآيات القرآنية الكريمة : « وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » (سورة هود) .. وأما أنه كان قبل أيام موسى فلا يتفق مع تفاسير أغلب المفسرين ولا مع أقوال المؤرخين ، وإن كان قال به بعضهم .

هذا وقد وردت في (الأعلام) شجرة نسب جديدة لشعيب غير ما سبق وروده .. فهو (شعيب بن نوفل بن رعبيل بن مر بن عنقاء) . أسماء عربية صريحة .. ولكنها بمنأى عن أسماء آباء شعيب التي ساقها الهمداني في (الإكليل) .

وتتلامس آراء (كلاسر) و (خير الدين الزركلي) و (الهمداني) في أن مدين قبيلة عربية ... ويختلفون في منشئها ، أو هكذا يبدو . فعند كلاسر ، هم (دوحة من الهكسوس) أو قبيلة من قبائل المعينيين . والمعينيون يمانون . وعند الهمداني أن شعيباً يمانياً أوزاعي . وعلى هذا يمكن أن نقول تبعاً لهذه النظرية : إن (مدين) يمانية إذا ثبت أنها قبيلة شعيب .. وهو ثابت بنص القرآن .. وعند الزركلي أن شعيباً عربي بدون تفصيل .. وهذا يحتمل أن يكون يمانياً وغير يمانى .. وقد يرجح كونه يمانياً هنا ما نعلمه من استمرار هجرة اليانين خاصة والجنوبيين عامة من العرب ، على وجه العموم ، إلى شمال الجزيرة خلال القرون حتى عصرنا الحاضر .. بأسباب ودواعٍ شتى ، ليس هذا محل الخوض فيها ...

وهناك (نقش لسرجون العراقي) يذكر فيه أسماء القبائل العربية ، بتخوم الشام التي غزاها فنال نصراً حاسماً عليها ، ومنها قبيلة تنزل

منطقة مدين على ما خمنه الباحثون^١ .

هذا وقد زاد عبد الوهاب النجار شقّة الخلاف سعة في أصل شعيب وموطنه إذ أورد في آخر الفصل الذي عقده له من كتابه : « قصص الأنبياء » قوله : « وبقيت مسألة وهي أن حضر موت بها قبر يقول أهل البلاد إنه : قبر شعيب عليه الصلاة والسلام ، وهو يقع في شبام ، يبعد عنها ساعتين بعد أن يمر السائر اليه بوادي ابن علي ، ويخلص السائر إلى سهل بعد الوادي ، وليس بجانبه عمران . ولا يُقصدُ ذلك القبر إلا للزيارة . وشبام تقع في غربيّ مدينة سيّوون) . ويعطف النجار على هذه الرواية بقوله : (ولاني أشك في أن القبر لنبي الله شعيب)^٢ .

ويرى ابن خلدون أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم عليهما السلام وزوج ابنة مدين بن إبراهيم فكان منهما أهل مدين الأمة المعروفة^٣ وولد مدين عيفا وعيفين الخ ... من زوجته قنطور ابنة لوط^٤ وقد غاب بنو عيصو بني مدين على بلادهم إلى أيلة^٥ .

وهكذا نجد شخصية (شعيب) عليه السلام ، وشخصية قبيلته (مدين) يكتنفهما اضطراب روايات المؤرخين في حقيقةتهما وأصلهما ونسبهما وموطنهما الأول .. فشعيب عند أكثر المفسرين ينتمي إلى قبيلة مدين ابن إبراهيم عليهما السلام . وعند بعض المؤرخين ينتمي إلى اليمن ، وعند الحضارمة حضرميّ المدفن . ومدين عند بعضهم ، وهو (يوسفوس)

١ تاريخ الجنس العربي : لمحمد عزت دروزة ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ ، المطبعة العصرية ببيروت .

٢ قصص الأنبياء ، ص ١٣٠٢ ، مطبعة مصر .

٣ تاريخ ابن خلدون ، المجلد الثاني ، ص ٦٨ ، طبعة بيروت .

٤ نفس المصدر ، ص ٧٠ .

٥ نفس المصدر ، ص ٧٩ .

إنما استقروا في منطقتهم المعروفة بعد ضعفهم ، وهم عند « كلاسر »
دوحة من الهكسوس أو قبيلة من قبائل المعينيين (الجنوبيين) . ولم يختلف
أحد من المفسرين والمؤرخين في أن موطن قبيلة مدين هو بشمال المملكة
وفي داخل حدودها الحالية بالذات .

هل موطن شعيب في المملكة العربية السعودية ؟

ذكر ابن هشام في سيرته ، مدينة (مدين) في معرض حديثه عن
غزوة زيد بن حارثة لجذام في حسمى^١ .

وكرر جواد علي ما أورده الهمداني والسمهودي من أن مدينة مدين
كانت في صدر الإسلام من مناطق جذام ، وأنها كانت أكبر من
تبوك ، وأن بها البشر التي استقى منها موسى ، وأنه كان بمدينة مدين
في عصر كثير عزة الشاعر ، جماعة من الرهبان يتعبدون وييكون
من حذر العقاب^٢ .

ويروي جواد علي ، عن المؤرخ يوسفوس أن « موسى ذهب إلى
مدينة (MADIANA) . ومعنى هذا أن مدينة كانت موجودة
في القرن الأول للميلاد ، تعرف باسم مدين » . وهذه الرواية تنقض
ما جاء في كتاب (الأعلام) للزركلي من أن شعيباً كان قبل موسى عليها
السلام حسب ما نقلناه آنفاً .

ولنا ملاحظة منصبة على تعليق المؤلف على قول يوسفوس : « بأن
مدينة مدين كانت موجودة في القرن الأول للميلاد » . وتعلقنا على

١ حسمى : موقع في تلك الجهة معروف الآن .

٢ تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣١٧ و ٣١٨ ، المجلد الأول .

تعليقه هو : أن هذا ربما كان سهواً من جواد علي - فلا يمكن أن يكون موسى عليه السلام قد زار هذه المدينة في القرن الأول للميلاد . للبدون الشاسع بين زمن موسى وزمن عيسى عليهما السلام كما هو معروف في التاريخ ، فمعلوم أن موسى كان قبل ميلاد عيسى بقرون وبالتالي لا يدل ما ذكره يوسفوس على بقاء مدينة مدين إلى القرن الأول للميلاد .

ويقول ابن خلدون عن مدين القبييلة التي تنتسب إلى مدين بن إبراهيم : (فكان منهم - من أولاد مدين - أمة كبيرة ذات بطون وشعوب ، وكانوا من أكبر قبائل الشام وأكثرهم عدداً . وكانت مواطنهم تجاور أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي الحجاز ، قريباً من بحيرة قوم لوط . وكان لهم تَغَلَّبٌ بتلك الأرض فعتوا وبغوا وعبدوا الآلهة ، وكانوا يقطعون السبيل ، ويبخسون المكيال ، وبعث الله فيهم شعيباً ، نبياً ، منهم . وهو ابن نويل بن رعويل بن عيا - عيفا - ابن مدين .. قال المسعودي : مدين هؤلاء من ولد المحضر بن جندل ابن يعصب بن مدين ، وإن شعيباً أخوهم في النسب ، وكانوا ملوكاً عدة يسمون بكلمات أجد إلى آخرها . وفيه نظر . وقال ابن حبيب : في كتاب البدع : هو شعيب (بن نويب) بن أحزم بن مدين . وقال السهيلي : شعيب بن عيفا ويقال ابن صيفون . وشعيب هذا هو شعيب موسى الذي هاجر إليه من مصر أيام القبط ، واستأجر موسى على إنكاح ابنته إياه على أن يخدمه ثمانين سنين ، وقال الصيعمري : الذي استأجر موسى وزوجته هو بثر بن رعويل . ووقع في التوراة أن اسمه ييثر ، وأن رعويل أباه أو عمه هو الذي تولى عقد النكاح . وكان لمدين هؤلاء مع بني إسرائيل حروب بالشام ، ثم تغلب عليهم بنو إسرائيل وانقرضوا جميعاً^١ .

١ تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول ، ص ٨٠ و ٨١ ، طبعة بيروت ١٩٥٦ م .

وعرّفَ ياقوت الحمويّ في «معجم البلدان» - مدّينَ - هكذا :
(مدين - بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت آخره
نون - قال أبو زيد : على بحر القلزم ، محاذية لتبوك ، على نحو من
ست مراحل . وهي أكبر من تبوك . وبها البئر التي استقى منها موسى
عليه السلام لسائمة شعيب . قال : رأيت هذه البئر مغطاة ، قد بُنيَ
عليها بيت ، وماء أهلها من عين تجري . ومدين : اسم القبيلة ^١ .

هذا ولا نعلم شيئاً عن المكان الذي ولد به «شعيب» .. هل هو في
أرض مدين أو في أرض اليمن ، كما يفهم من فحوى رواية الهمدانيّ ،
أو في حضرموت كما يشم من رواية عبد الوهاب النجار .. أما عن وفاته
فقال بعضهم - وهو ياقوت الحموي - إن قبره كان في «خيار» :
قرية قرب طبرية ، من جهة عكا ، قرب حطين ^٢ .. وقد أورد
جواد علي في كتابه : (تاريخ العرب قبل الإسلام) إشارة إلى هذا الرأي ..
وهذا ربما يؤول إلى أنه توفي بتلك القرية التي دفن بها .

كما أفادنا جواد علي ، بأن «بول» يرى أن المدفن المذكور لشعيب
هو «خربة مدين» .. ولا نستبعد أن يكون مكان دفنه بقرية (خيار)
التي اعتراها الخراب فيما بعد ، فدُعِيَتْ (خربة مدين) .. أو عرفت
بهذا الوصف المنطبق على حالتها بعد خرابها ...

ونقتبس مما ذكره جواد علي عن «يوسفوس» من أن المدينيين إنما
استقروا بعد ضعفهم في المنطقة الموجود بها مدينتهم (MADIANE)
أي في القرون الأخيرة قبل الميلاد نقتبس من ذلك اعتباراً ما ، لهذه
النظرية التي قد تكون مبنية على أساس هجرة المدينيين من اليمن في عهد

١ المجلد الرابع ، ص ٤٥١ ، طبعة طهران .

٢ معجم البلدان ، المجلد ٢ ، ص ٥٠٣ ، طبعة طهران .

ليس بعيداً عن عهد شعيب بعد انقراض أسلافهم اللحيانيين ، حيث نرى لشعيب سائمة ترعاها بَنَاتُهُ على عادة القبائل العربية الرَّحَّل إلى اليوم .. فوجود الماشية والرَّعاء .. كما نص عليه القرآن ، في (مدين) دليل قويٌّ على أنهم كانوا أعراباً أو ما زالوا شبه أعراب .. واسم (شعيب) واسم (مدين) كلاهما يدلان على عروبة المُسَمَّى بهما .. إذ إنَّ شعيباً من الشَّعْب بفتح الشين أو الشَّعْب أو أشْعَب ، وكلها عربيّ فصيح ، كما قدَّمناه .

ومدين من (مدن) بمعنى أقام .. في اللغة العربية الفصحى . ولعل بناءهم لمدينة (مدين) كان بعد فترة بداوتهم الأولى ، وبعد سَامِهِم من عيشة البداوة ، وركونهم إلى رفاهة الحضارة ، ثم بقيت بَوَاقٍ منهم على حالة بداوتها .. وهم الذين استقى موسى من بثرهم لماشية شعيب .. أو أن شعيباً ومن كانوا يستقون من قومه مع بَنَاتِهِ ، من بثر مدين كانوا حَضَرًا احتفظوا ببعض مظاهر حياتهم البدوية العريقة لهم لوجود ماشية لهم ، ورُعاة يرعونها وهم منهم . كما شاهدنا مثله في كثير من قرى الريف العربية التي لا تزال ظلال البداوة تنعكس على طبائع سكانها حتى في عصرنا الحاضر ، الذي هو امتداد طَبْعِيٍّ للعصور الخوالي^١ .

١ يستأنس لذلك بما ورد في كتاب « أسماء جبال تهامة وسكانها » لعرام بن الأصمغ السلمي من أن جهينة كان قسم منها بادية في نواحي جبل « رضوى وعزور » حالما يسكن القسم الثاني منهم في المدر بينيع . وكذلك الأمر في مزينة ، فمنهم قسم متبد في جبل ورقان وجبال القدس ونهبان ، وقسم منهم في الفرع ، ص ٥ إلى ص ٧ ، طبعة القاهرة . وكذلك يستأنس لما ذكرناه بما جاء في كتاب « الشعر عند البدو » لشفيق عبد الجبار الكحالي من أنه : « ما زالت قبائل بدوية في عهدنا الحاضر على هذه الشاكلة ، بعضها من أهل الوبر كقبائل الضفير والعجان وعنزة . وبعضها من أهل المدر : العقيدات والعزة والعبيد .. كما يوجد من القبائل قبيلة واحدة ، قسم منها في المدر كقبائل شمر ، وقسم من أهل الوبر .. سكنة الصحراء » ، ص ١٩ ، طبعة بغداد . =

ومما يدلنا على أنهم جنوبيون من اليمن ، أهلاً وجِذماً ، ممارستهم للتجارة ، وبراعتهم فيها ، تماماً كبراعة القبائل اليمنية وذوي الحضارات اليمنية القديمة في فن التجارة .

وقد وصف محمد بن عبد الله الحسيني المدني المعروف بكبريت في كتابه : (رحلة الشتاء والصيف) ، مَدْيَنَ وَحَفَائِرَ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَام ، وَصَفَ مَشَاهِدَهُ وَتَارِيخَهُ . قال : (ثم قمنا منه حتى أتينا على مغاير شعيب عليه السلام ، وهي حفائر حلوة تحكي النيل فيما قيل ، في وادٍ فيه نخل وأثل ومقل ، بين جبال متضايقة كثيرة المخاوف ، وفيه دار ، دارسة ، وأبنية متهدمة ، ورسوم ، يقال إنها (مدين) .

ثم نقل عن صاحب «تقويم البلدان» قوله : « مدين » على شاطئ بحر القلزم ، وهي خراب ، وأما البشر التي استقى منها موسى عليه السلام ، فقد بُنِيَ على أفئيتها بيت من صخر ، فيه كهف يسمى كهف شعيب عليه السلام ، وكانت تأوي إليها غنمه ، وحولها قبور منقورة في الصخر ، فيها عظام بالية كأمثال عظام الإبل ، ولا أثر لذلك الآن غير تلك الساقية التي بيد بني عطية ، وحُفِرَ الماء العذب . وفيها يقول ابن أبي حجلة :

ولما وردنا ماء مدين بكرة ..

وجدت عليه الناس يسقون بالقرب

فأطرب حادي الراقصات مسامعي

كما أطرب التشبيب من أعين القصب^١

= وفي كتابنا هذا : « بين الآثار والتاريخ » قد ذكرت في « فصل الصويدة » أن من قبيلة العجمان من قاموا بتعمير بليدة الصويدة حديثاً واستوطنوا فيها وذلك بعد الخمسينات من هذا القرن الهجري .

١ ص ١٨ و ١٩ ، طبعة المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق .

ومحمد بن عبد الله « كبريت » هذا هو من أهل القرن الحادي عشر الهجري (١٠١٢ - ١٠٧٠ هـ) .

وفي التعريف بالطريق المسلولك من القاهرة إلى مكة يحدد لنا محمد كبريت ، تحديداً دقيقاً المسافة التي بين العقبة على ساحل البحر الأحمر (بحر القلزم) ، وبئر مدين التي بها « مغاير شعيب » ويعرفنا بأنها مرحلتان . يقول : « ثم يرحل (أي الحاج) إلى أيلة في خمس مراحل . وبها العقبة العظمى ، فينزل منها حجز بحر القلزم ، ويمشي على حجزه حتى يقطع من الجانب الشمالي إلى الجانب الجنوبي ، ويقم به أربعة أيام وبه سوق عظيم ، ثم يرحل إلى بئر مدين ، وبه مغاير شعيب عليه السلام ، وعلى مائها سقى موسى عليه السلام غَنَمَ بَنَاتِ شعيب »^١ .

وقد حدد لنا محمد صادق في كتاب رحلته الرسمية البرية حيث كان أميناً لصرة المحمل المصري - حدد لنا في رحلته : « مشعل الحج » - موقع (محطة مغاير شعيب) فقال ما ملخصه : إن ركب المحمل ارتحل من العقبة في يوم الاثنين ٦ ذي القعدة ١٢٩٧ هـ - ٢٧ سبتمبر ١٨٨٠ م في حجته البرية .. وفي يوم الجمعة ١٠ منه وبعد خمس وعشرين دقيقة من الساعة الأولى من النهار - ويبدو أنه يعني بذلك التوقيت العربي الغروبي - وصل أي ركبُ المحمل إلى محطة مغاير شعيب^٢ .

وعلى هذا فيبدو أن مغاير شعيب تبعد بثلاث مراحل بسير المحمل الذي كان يرافقه أركان حرب الأميرالاي محمد صادق بك عن العقبة.

وقد زادنا المؤلف علماً بصفة أرض هذه المغاير فقال في رحلته :

١ نفس المصدر والطبعة ، ص ٦٧ .

٢ كتاب مشعل المحمل ، ص ١٠ و ص ١٤ ، مطبعة وادي النيل ١٩٢٨ هـ والنسخة توجد بمكتبة السيد عبيد مدني بالمدينة المنورة .

(وهو - أي مغاير شعيب - محل بين تلال يحدق به نخيل وعبل به حشائش ولا مساكن مبنية إلا زربيات^١ من جريد لسكنى العربان . ويتوصل إلى البحر من وادي مدين ، ولا يباع بهذه المحطة شيء سوى حشيش البهائم .. وبلغت الحرارة عند الزوال - أي في منطقة مغاير شعيب - ٣١ درجة^٢) .

وقد رسم لنا محمد صادق في كتابه ، خريطة سير المحمل برّاً من القاهرة إلى مكة وإلى المدينة فالقاهرة ، وبها بيان البلدان والمحطات والمحلات الشهيرة بالطريق ، ومن هذه الأماكن (مغاير شعيب) . وقد جعلها في منتصف الطريق بين قلعة العقبة وقلعة المليبيح .

ولإذا قارنا رحلة محمد صادق إلى الحج برحلة سلفه محمد كبريت المدني^٣ فإننا نخرج بالنتائج التالية :

أولاً - إن محمد كبريت بدأ رحلته البرية مع الركب المصري من المدينة المنورة في ١٧ المحرم سنة ١٠٣٩ هـ قاصداً الديار المصرية .

ثانياً - إن محمد صادق بدأ رحلته البرية مع المحمل المصري من القاهرة صوب مكة ، في يوم ٢٢ شوال ١٢٩٧ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٨٨٠ م .

ثالثاً : واذن فشقة الزمن بين الرحلتين هي : (٢٥٨) عاماً قمرياً .
وحدد عبد الوهاب النجار في كتابه : (قصص الأنبياء) أرض مدين بأنها (بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية ، وشمال

١ اعتقد أن هنا خطأ مطبعياً .. حيث قدمت الباء الموحدة على الياء المشناة التحتية ، والصواب العكس أي زربيات - بدليل سياق الكلام .. فالزربيات هي الحظائر .. أما الزربيات فهي المفارش .. ومنه قوله تعالى « وزرابي مبثوثة » .

٢ نفس المصدر ، ص ١٤ .

الحجاز وجنوب فلسطين ، تنسب إلى مدين) . (وتقول التوراة : « مديان » بن ابراهيم عليه السلام سميت القبيلة باسمه ، وكانوا شاوية ، وفي الطبري عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثمانى ليال ، وكانت مدين هي البلاد التي وقع اختيار موسى على قصدها والنزول بها ، ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن ابراهيم ، وإسحق بن ابراهيم الذي من ذريته موسى ^١ .

ومن قوله : (شاوية) يُفهم أنهم كانوا رعاة غنم .. وعبد الوهاب النجار ، في هذا يؤكد وجود صلة قرابة قبيلة مدين بإبراهيم جد موسى ، وهذا هو رأي الطبري وابن كثير والبغوي وابن الجوزي من كبار المفسرين .

ويقول (جورجي زيدان) عن أصل سكان مدين ما نصه : (ويظهر أن الشاسو — أي العرب الذين نزحوا من بلاد العرب إلى مصر — كانوا قبل نزولهم ، بادية مصر ، يقيمون في أرض مديان وراء جزيرة سيناء . لأن لفظ الشاسو يطلق أيضاً على تلك الأرض ، وهي قديمة التاريخ جاء ذكرها في آثار بابل سنة (٣٧٥٠) قبل الميلاد ^٢ .

وقبائل (مدين) حسب تحديد (موسل « كانت تقطن جنوب وادي العربية ، وإلى جنوب شرقي العقبة وتقع مدينتهم (مَدِينُ) — بفتح الميم وسكون الدال المهملة بعدها ياء مثناة تحتية فنون — في بادية الـ (SARACENS) إلى شرق البحر الأحمر . ويعطف جواد علي ، على ذلك بأن هذا المكان ينطبق تماماً على موضع أرض مدين المعروفة في الكتب العربية ^٣ .

١ ص ١٩٨ ، طبعة مصر .

٢ العرب قبل الإسلام ، ص ٦٩ .

٣ نفس المصدر ، ص ٣١٥ و ٣١٦ ، المجلد الأول .

هذا وقد ألقى الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري محاضرة في جامعة الرياض عن (اللحيانيين) وأشار فيها إلى أن مواطن اللحيانيين كانت في منطقة مدين نفسها .. وقال عن (خربة مدين) : (إنها كانت عاصمتهم . ولعلمهم - أي اللحيانيين ، كانوا نزلوا هذه الجهات وأثّلوا فيها حضارتهم قبل المدينيين ، قوم شعيب . على أن اللحيانيين هم أيضاً جنوبيون .. فهم إذن على كل حال نازحون من جنوب شبه الجزيرة العربية ، إلى هذه المواضع من شهاها) . وبهذا الرأي يأخذ الهمداني على ما نقله عنه صاحب (تاج العروس) فهو يرى أن اللحيانيين من بقايا جرهم ، دخلت في هذيل^١ . وبنو لحيان الذين يتحدث عنهم كانوا يقيمون ببطن غران واد بين أمج وعسفان شمال مكة المكرمة^٢ ولعلمهم من بقايا بني لحيان القدماء انتقلوا إلى هذا المكان .

وأرض مدين المعروفة في الكتب العربية ، تحاذي تبوك إلى ناحية البحر على نحو ست مراحل منها .

وهكذا يتأكد لدينا أن موطن شعيب وقبيلته كان في هذه المملكة العربية السعودية ، وفي الشمال منها بالذات ، قرب شاطئ البحر الأحمر ، وربما كانوا يستفيدون من البحر بعض غذائهم من أسماكهم ، وبعض تجارتهم من السفن التي تمر عبره ، وتمر عليهم حاملة ما لذو طاب . كما يستفيدون من البَرِّ ، زراعته ورعي مواشيهم فيه فهم « بَرِّيَّون بحريون » في آن واحد .

ومما نلاحظه هنا أن مدينة (مَدِين) وما حولها ، هي من الأماكن

١ تاج العروس ، ص ٣٢٤ ، م ١٠ ، طبع مطابع دار صادر بيروت ١٣٨٦ - ١٩٦٦ م .

٢ مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لمحمد بن عبد الوهاب ، ص ٢٩٢ ، المطبعة السلفية بمصر .

الأثرية الهامة في بلادنا . فلو أن وزارة المعارف المتوط بها تنظيم مهمة الآثار ابتعثت بعثة أثرية إلى هذه المدينة وهذه المواضع ، ونقبت عن آثارها فلربما عرفنا من ذلك الكثير من العلم والآثار المهمة وربما استفدنا من ذلك بعض أو جُلّ ما يخفى علينا من التاريخ القديم .

وبالمناسبة فإن الدكتور جواد علي ، مع سعة اطلاعه وكثرة نقوله ، ومصادره ، لم يشر إلى رواية الهمداني عن أصل موطن شعيب عليه السلام ، ونسبه اليمني ، على حد رأي الهمداني . ونعتقد أن هذا يعود إلى عدم اطلاع جواد علي ، على الجزء الذي فيه هذا البحث من كتاب (الإكليل) - وهو الجزء الثاني - لأنه طبع مؤخراً .. وبعد طبع كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) لجواد علي ، بمدة من الزمن .. ولربما أنه لو اطلع عليه وعلى سابقه في الطبع (الجزء الأول منه) لعدّل عن إمعانه في نقد روايات مؤرخي العرب عن تاريخ بلادهم وأصولهم ، ولخفّف من غلوائه في الاعتماد الكلّي على نظريات المستشرقين النابعة من بحوثهم الأثرية وفهمهم الذي قد يلتوي بالنسبة لآثار العرب وتاريخهم القديم .

هل الشيخ الكبير هو شعيب ؟

وردت في القرآن الحكيم قصة التقاء موسى في نزوحه عن مصر إلى مدين بشيخٍ كبيرٍ بشّرهُ آخر الأمر بالنجاة من القوم الظالمين .. وقبيل أن يزوجه إحدى بناته ، لما شاهد فيه من الأمانة والقوة .

وملخص هذه القصة التي تبدأ من الآية ١٤ إلى الآية ٢٩ من سورة القصص هو : أن موسى عليه السلام ناصر أحد أتباعه على أحد أعدائه من القبط ، فقتل موسى ، هذا العدو القبطي ، بضربة من يده ..

واتفق أن رآه ذلك الصاحب الذي استنصر موسى بالأمس ، فاستنصره مرة أخرى على قبضي آخر يُعاركه ، فأراد موسى أن يبطشَ بعدوهما هذا ، فانزعج صاحبه ، وتوهمَ أن موسى يريد أن يقضي عليه ، ففضحه وقال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ولما علم القبط بما فعل موسى بأحدهم ائتمروا على قتله ، فخرج من أرضهم إلى مدين . وعندما وصلها وجد أناساً يسقون على بئر ، سائمة لهم ، وشاهد امرأتين تذودان غنمهما عن البئر ، فسألهما لماذا ؟ فأجابته بأنهما تؤخران عادةً سقْيَ غنمهما حتى يُصْدِرَ الرعاةُ مواشيهن عن البئر بعد ارتوائها ، وأبوهما شيخ كبير . فترقَّ موسى لحالهما ، فسقى لهما غنمهما ، ثم رجع إلى شجرة هناك ، فجلس في ظلها ودعا الله بأن يفرج عنه ، ثم ما لبث أن جاءته إحدى بنات (الشيخ الكبير) بعدما عُدنَ من بيت أبيهن ، وقالت له : إن أبي يدعوك ليعزيك أجراً سقيت لنا ، فلما جاءه وقصَّ عليه قصة خروجه من مصر وأسبابها بَشَّرَهُ بالنجاة من طُغَاتِهَا . وهنا تدخلت في الحديث إحدى البَنَاتِ المُعْجَبَاتِ بأمانة موسى وقُوَّتِهِ ، وقالت لأبيها : يا أبت استأجره فهو ذو قوة وهو أمين . فوافق كلامُها هَوًى في نفس أبيها (الشيخ الكبير) ، فعرض عليه أن يزوجه إحدى بناته — ولعلها المتكلمةُ — على أن يكون مهرها تأجيرهُ لديه من ثماني سنوات إلى عشر ، وبَشَّرَهُ بأنه سيجده — إن صاهره — رجلاً صالحاً . فوافق موسى على الزواج من ابنته ، وعلى الصداق ، ولكنه جعل الخيار لنفسه في أي الأجلين من مدة الإيجار يقضي ، فذلك يعود إليه .. وقضى موسى الأجل ، وانتهى عقد الإيجار بينهما ، فذهب موسى بأهله حتى بلغ إلى مكان بقرب الطور ، فأنس من جانب الطور ناراً فأمر أهله : (زوجته) بالمشك انتظارك لإيابه إليها ، ليأتي لها ، بخبر أو بقبس من النار لعلهم يستدفئون بها من البرد القارس .. مما يدلنا على أن رحيله عن صهره

بعد انتهاء أجل إيجاره كان في فصل الشتاء الشديد القرم .

هذا ملخص القصة القرآنية عن (موسى) عليه السلام وصيهـره (الشيخ الكبير) . ولم ينص القرآن على اسم الشيخ .. ولكن يستدل من سياق الآيات أنه من قوم مدين ، فإن بَنَاتِه كُنَّ يستقين من بئر مدين ذاتها التي يستقي منها أهل مدين .. وَجَلَّ المفسرين يذهب إلى أن " الشيخ الكبير " هو (شعيب) عليه السلام ، وبعضهم يذهب إلى غير ذلك .. ويقول إنه : (يثرون) أو (يثري) أحد أحفاد إبراهيم عليه السلام ، وهذه هي رواية التوراة ، فيكون المفسرون إذن قد أخذوها من التوراة .

والتوراة الموجودة محرفة بنص الذكر الحكيم وباعتراف أهلها .. ويقول عبد الوهاب النجار في كتابه : « قصص الأنبياء » : إن الأدباء وأصحاب السير أولعوا بجعل صهر موسى ، أي (الشيخ الكبير) 'شعيباً' . قال أبو العلاء المعري في مدحه لرجلٍ عظيم زفت إليه عروسه :

كنت موسى وافته بنت شعيب

غير أن ليس فيكما من فقير

وقد توقف الشيخ عبد الوهاب النجار عن الأخذ بأحد الرأيين .. برغم ورود بعض الاحاديث النبوية التي تسميه شعيباً، إلا أنه طعن في بعض رواياتها بأن الراوي (في حفظه سوء) وهو « عبد الله بن لهيعة المصري » .. ومما أورده النجار أن بعض المفسرين قال : إن شعيباً كان قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة (وهذا يتفق مع رأي الزركلي في كتابه : الأعلام) . وقد سبق لنسا أن قلنا اننا نرى عكس ذلك استناداً إلى فحوى الآية التي استند أولئك المفسرون إليها ، وهي قوله تعالى : « وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ

أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ .
فالآباء الثلاثة الذين كانوا بين شعيب وإبراهيم - على رأي من قال
بذلك - تجعل المسافة الزمنية قريبة جداً بينه وبين لوط الذي أهلك قومه ،
والذين ذكّرهم شعيب لقومه في معرض الاعتبار بعذاب الله لمخالفي
الأنبياء الذين كان زمنهم قريباً من زمن أولئك القوم وخاصة قوم لوط .

خلاصة ما سبق :

ويمكننا أن نستخلص مما سبق بيانه ما يأتي :

أولاً : إن شعباً عربيّ الأصل ، والاسم ، والقبيلة ، والموطن ،
في رأي أغلب المفسرين والمؤرخين والأثرين .

ثانياً : إن قومه مدين هم عرب نزحوا من الجنوب مباشرة .

ثالثاً : إن شعباً أخاهم ، هو رسول من الله عز وجل اليهم . ولقد
حذرهم وأنذرهم فأمن به بعضهم فنجا من عذاب الله ،
وكفر به بعضهم فهلك بعذاب الله تعالى .

رابعاً : إن اسم (مَدْيَنَ) كما يطلق على القبيلة يطلق على مدينتهم .

خامساً : إن مَدْيَنِيَّتَهُمْ قد بادت وكذلك مَدْيَنِيَّتُهُمْ قد خربت
واضمحلت .

سادساً : إنه كان يقطن بمواطنهم (لَحْيَانُ) وربما انقرضوا أو تشتتوا
وذاخوا في قبائل العرب قبل استفحال أمر (مدين) . وتوجد
قبيلة معروفة في الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام تسمى
(لحيان) تسكن قرب مكة ولا تزال .

سابعاً : إن مواضع قبيلة مَدْيَن وموقع مدينة مدين ، هي على ساحل البحر الأحمر .. (بحر القلزم) بداخل المملكة العربية السعودية في الشمال منها ، بالقرب من ميناء العقبة . وهي - أي مدين - إلى جنوب العقبة على الساحل حسب ما حدده المؤرخون القدامى والمحدثون .

الْكُوَيْتِ
مَلَامِيحُ وَأَشَارِ

الكويت بين التاريخ والسياسة

اذكر اني كنت قرأت في بعض الكتب الحديثة أن أصل صيغة «كُؤَيْت» - بضم الكاف - برتغاليّ ، فهي دخيلة على اللغة العربية ومعناها (القلعة) .. وقد وَفَدَت مع هؤلاء المستعمرين العتاة ، الذين ذهب استعمارهم للشرق الأوسط ذهاب أمس الدابر ... وقد جرت بعدئذ على ألسنة العرب ، كدأهم في الاقتباس ودأب سائر الأمم ، فسموا بها بعض مدنهم الحديثة إذ ذاك . وبمصغر الكُؤُوتِ : (الكُؤَيْت) سميت الكويت موضوع هذا البحث .

ومما يدل على أصلها البرتغالي أن سائحاً أوروبياً زار الكويت سنة ١٨٣١ م ، فذكر أن ميناء الكويت ربما كانت استعملت أو اتخذت قاعدة للبرتغاليين ، كما ذكر أن المدينة كانت تُحْكَمُ بوساطة شيخ^١ .

وجاء في كتاب : « الكويت المدينة الفاضلة - سويسرا الشرق » أن الكويت تصغير الكُؤُوتِ (بضم الكاف) . والكويت كلمة يطلقها أهل تلك النواحي على البيت أو عِدَّة بيوت متجاورة لخزن الزاد والوقود وغيرهما . (وهذه الكلمة لم تنقلها القواميس العربية) . فيجمعونها على

١ جزيرة العرب : لحافظ وهبه ، ص ٨٧ ، الطبعة الأولى .

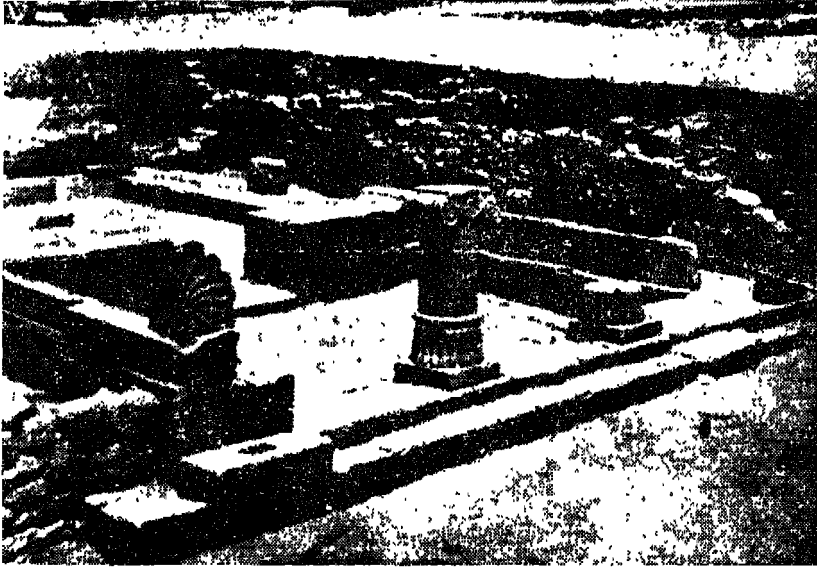
(أَكْوَات) ويصغرونها على كَوَيْتٍ .. ويرى أحد العلماء أنها إما أن تكون محرفة عن «القوت» ، بالقاف ، لأنها مخزن للأقوات . وقد يُبدلُ العرب القافَ كافاً .. فالنقطة تسمى «نكته» ، والغسق يسمى «غسكاً» .. وفي «المزهر» للسيوطي شواهد كثيرة من هذا القبيل^١ .

وأنا أميل إلى هذا .. حتى ولو كانت كلمة «الكوت» في اللغة البرتغالية بمعنى القلعة والبيت أو المخزن ، وأخذها العرب في تلك الجهة عنهم ، فلا غرابة في أن يكون البرتغاليون أخذوا هذه الصيغة من اللغة العربية أيام ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ، ثم حرفوها إلى لهجتهم هكذا .. وقد رأينا لذلك نظائر ، فقد أخذت الفرنجة من العرب صيغتي «مخزن» و «دار صناعة» ، فحرفوهما إلى «مغارة» و «ترسانة» .. وعُدُنَا نحن العربَ فآخذنا هاتين الصيغتين كما حرفتها الفرنجة ... واستعملناهما وهجرنا الصيغتين العربيتين الفصيحتين حتى كأنَّ لا وجود لهما في لغتنا .

والكويتُ - البلدُ والإمارةُ - أُخِذَ اسمها من اسم ذلك الحصن الصغير الذي بناه محمد بن عريعر زعيم بني خالد ، أو صباح الأول جد الأسرة الحاكمة في الكويت .. في المكان الذي وهبه له زعيم بني خالد حينما حل هو بالكويت . وقد ارتبضته (أي صَبَّاحاً) القبائلُ ، حاكِماً لها فبايعوه ، ومن تَمَّ تسلسل الحكم في أبنائه^٢ كابراً عن كابر ، حتى وصل لسمو الحاكم الأمير المرحوم الشيخ عبد الله السالم الصباح الذي ازدهرت الكويت في عهده ازدهاراً عظيماً ، نقلها من طور إلى طور .. بسبب استكشاف الزيت في تربتها بكميات غزيرة جداً .. فأتسعت العمارة ، وازدهرت التجارة والمعارف ، وعمت

١ الكويت المدينة الفاضلة ص ٩ .

٢ جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص ٤٧٨ .



معبد سوتيرا الخرافي بفيلكا

الرفاهية البلاد ، حتى أصبحت الكويت معروفة بأنها من أغنى بلاد العالم اليوم .. وفي عهده نالت الكويت استقلالها ، وأصبحت دولة ذات سيادة .

وفي كتاب : «خمسون عاماً في جزيرة العرب» المطبوع سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م بالقاهرة ، أن «الكويت اليوم بعد كشف منابع الزيت ، تختلف عن الكويت القديمة في كل شيء .. ففيها اليوم المدارس الكثيرة التي غصت بالطلبة العرب ، كويتيين وغير كويتيين ، وفيها المستشفيات ونُطُسُ الأطباء .. والواقع أن التطور عام في جميع البلاد العربية ، ولكن هذا التطور نجده ظاهراً أكثر في البلاد الصغيرة في حجمها مثل الكويت والبحرين وغيرها^١ .

١ خمسون عاماً في جزيرة العرب ص ١٣ .

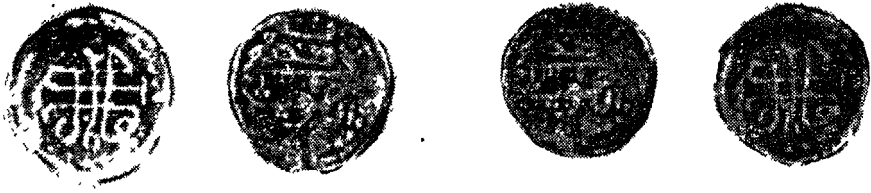
ويقول صاحب المنجد : « الكويت : مشيخة في الجزيرة العربية الشمالية الشرقية ، مساحتها (٥١٨٠٠) كم^٢ ، وسكانها (٢٥٠٠٠٠) يحدها العراق شمالاً ، وغرباً ، والمملكة العربية السعودية جنوباً ، والخليج العربي شرقاً ، وتتأخمها منطقتان محابتان جنوباً وغرباً ، أرضها في الإجمال جدباء إلا بعض الواحات والمزارع قرب الشواطئ .. أما جوف أرضها فغني بالنفط ، تربط الكويت بحكومة بريطانيا معاهدة صداقة . عاصمة المشيخة مدينة الكويت ، وسكانها (١٢٠٠٠٠) ، ولمرفئها شأن خطير في تجارة الخليج منذ أجيال^١ .

ومنطقة الكويت كانت معروفة في العالم القديم . فان الأحافير التي أجريت في جزيرة فيلكا - البعيدة بنحو ٣٠ كيلومتراً عن ساحل مدينة الكويت - ان الأحافير المشار إليها تدل على أن هذه المنطقة التي أجريت بها كانت معروفة في الزمن القديم .. وقد وجدت البعثة الدنمركية للآثار بجزيرة فيلكا ، أختاماً يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ ق.م. مما يدلنا على أن السفن التجارية كانت تمر بسواحلها ، كما وجدت بها تماثيل صغيرة منها رأس الاسكندر وتمثال افروديت .. وتؤيد ذلك أيضاً الروايات التاريخية القائلة بمرور الاسكندر على طريق الخليج العربي للسيطرة على الشرق .

وقد عثر في « تل سعد » بالجزيرة على أن حضارة هذه المنطقة ذات طابع خاص ، كما يفهم من الاختام المستديرة التي عثر عليها وهي مختلفة عن أختام العراق الاسطوانية ، وعن أختام الهند المربعة ، ويرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ ق.م.

والكويت مدينة حديثة في التاريخ العربي ، تقع بالقرب من موقع كازمة ، وعندها وقعت معركة بين العرب بقيادة خالد بن الوليد

١ المنجد ص ٤٥١ .



الاختام المستديرة التي عثر عليها في احافير الكويت

رضي الله عنه ، والفرس بقيادة هرمز سنة ١٢ هـ (واسمها في المراجع :
القرين) ، ولا يزال هذا الاسم يطلق على بعض المواقع في أطرافها وفي
جزيرة فيلكا . واسم الكويت الحالي هو تصغير لصيغة (كوت بمعنى
القلعة) . وتصنع الكويت المراكب الشراعية المتينة من خشب الساج ^١ .

وتقع مدينة الكويت العاصمة ، على الساحل الجنوبي من خليج
الكويت ، وفي الجنوب الشرقي من البصرة ، وتبعد نحو (٨٠) ميلاً .
وفي الشمال الغربي من البحرين ، وتبعد عنها نحو (٣٨٠) ميلاً ^٢ .
وكانت مبانيها قبل النهضة الحديثة من اللبن - بكسر الباء -
أو من الصخور البحرية . ولها مقاطعات تتبعها ، من أشهرها : الباطن ،
وهي ملتقى الحدود العراقية والنجدية ^٣ .

وتتبع العاصمة مدُنٌ من أهمها الجهرة .. وكانت مسكونة قبل الإسلام .
وهي أعظم قرية زراعية في الكويت ^٤ .. وقد لا نعرف من أين أخذ صاحب
كتاب « جغرافية البلاد العربية » الذي قررت وزارة معارفنا تدريسه
بالسنة الرابعة الثانوية .. ومؤلفه الاستاذ صلاح عبد القادر البكري ، تسميتها

١ الكويت حقائق ومعلومات : لوزارة الارشاد والآثار الكويتية ، من الصفحة ١١ إلى ص ١٤ .

٢ ملوك العرب : للريحاني ، ص ١٥٩ .

٣ جغرافية شبه جزيرة العرب : لعمر رضا كحالة ، ص ٤٩١ .

٤ المصدر نفسه ، ص ٣٩٣ .

في كتابه المذكور باسم « الحمصرا » ان لم يكن هذا من الأغلاط المطبعية الشائعة فلعل صحة الاسم : (الجهرة)^١ .. ولم يذكر ياقوت في « معجم البلدان » اسم مدينة (الجهرة) هذه ، مما يدل على انها لم تكن مدينة في عهده ، أو لانه لم يسمع بها ولم يقرأ عنها .

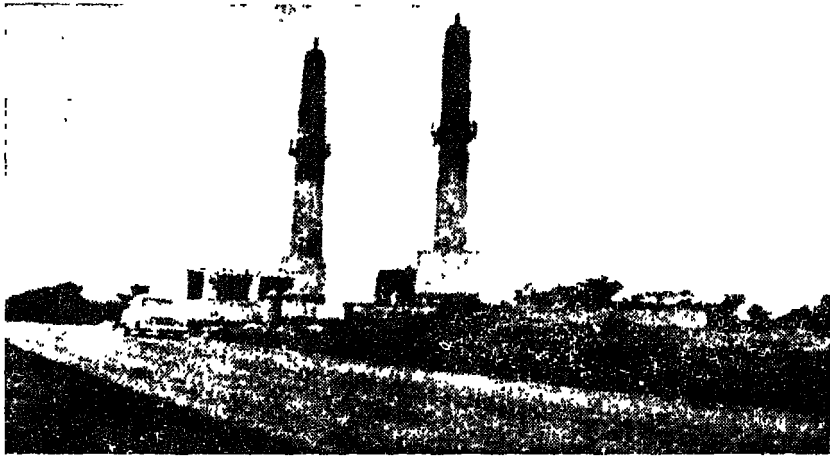
ويقول كتاب « الكويت المدينة الفاضلة » : لم تكن الكويت معروفة قبل ٥٠٠ سنة .. على أن هناك قولاً راجحاً ، وهو أنها كانت موجودة قبيل سنة ١١٣٥ هـ ، حيث إن آل الصباح الذين نزحوا إلى تلك البلاد من الحجاز هم الذين أنشأوا الكويت .. وقد كان أول حاكم لها صباح الأول ، وقد توفي سنة ١١٩٠ هـ .. ويمت آل الصباح بصلة إلى آل خليفة حكام البحرين وإلى آل سعود حكام نجد والحجاز ، فهم ينتسبون إلى قبيلة عنزة التي تنقسم إلى بيوت وعشائر من بينها شمالان التي منها آل الصباح .. وقد مر آل الصباح خلال هجرتهم إلى هذا المكان الذي سُمي بالكويت — بقطر وقيس والصبية ، وهي أرض قريبة من الكويت ، ثم نزلوا الكويت وتوطنوا بها^٢ .

ومن هذا يبدو لنا أن المؤسسين الفعليين لمدينة الكويت هم آل صباح .

وفي ظل حكم آل صباح حافظت إمارة الكويت على كيانها العربي الذاتي فلم تندمج فيما تحكمه في الدولة العثمانية برغم المكاييد والضغط اللذين أحاطتهما بها هذه الدولة ، فقد تمكن مبارك الصباح حاكم الكويت من أن يحبط مؤامرات الأتراك ضد إمارته ، وهكذا انفلت بها من الكاشة الكبيرة بدهائه ولباقته .

١ جغرافة البلاد العربية ص ١٩ .

٢ ص ٩ .



جامع سوق الخميس بالبحرين

وفي هذا يقول حافظ وهبة : « لقد حاول الأتراك في سنة ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ) أن يستولوا على الكويت وينفوا الشيخ مباركاً إلى الآستانة ، ولكنه أحبط هذا المشروع ، بما بذله من المال في البصرة وبغداد ، غير أنه في سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ) أرسل اليه الأتراك وفداً من كبار الموظفين وبعض أعيان البصرة على إحدى السفن الحربية القديمة ، لنقله إلى الآستانة ، حيث عين عضواً في مجلس شورى الدولة ، فالتجأ إلى الانكليز ، فأنقذوه من الأتراك »^١ .

وفي سنة ١٣٧٣ هـ زار الأمير عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف الكويتية القاهرة .. وفي إحدى الحفلات التكريمية التي أقيمت له قال : « نحن والحمد لله عرب بكل ما في كلمة العروبة من معان سامية ، ومسلمون بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معان وآمال ، وإن أحكامنا كلها تسير وفق الشريعة السمحة .. كما أننا مستقلون ولا يد

١ ص ٩٩ من كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الأولى .

للأجنبي علينا»^١ .

وهذا الذي يقوله الأمير عبد الله الجابر الصباح ، في سنة ١٣٧٣ هـ على مشهد من الناس ونُشِرَ ، هو ما أجمع عليه المؤرخون الحديثون من أن الكويت العربية المسلمة لم ينل من عروبتها وإسلامها الاستعمار ... فقد ظلت ثابتة على دينها وعروبتها برغم الصلة المباشرة للمستعمرين بها ، من طريق المعاهدة المبرمة .. كما أن الأتراك المسلمين لم يؤثروا على عروبتها .

أما الآن ، وقد أعلنت الكويت الاستقلال ، بعد عهد الحماية الذي ولّى إلى غير رجعة إن شاء الله ، فأحسّر بالكويت المستقلة أن تندفع صعداً إلى الأمام في نهضة عربية إسلامية عميقة الجذور .

والكويتُ العربيةُ المستقلةُ رِبْحٌ للعرب والعروبة ، وكسبٌ للإسلام والمسلمين .. فقد أصبح لنا صوت عربيٌّ جديد ، في أروقة هيئة الأمم المتحدة ، وفي المحافل الدولية الأخرى ، وازداد أعضاء الجامعة العربية عضواً عربياً غنياً في مبادئه ومادته .

والكويت — في تاريخها البعيد والقريب — ذات علاقة وشيجة بالمملكة العربية السعودية .. ذلك أن البيت الحاكم في الكويت هو من «عنزة» التي تنحدر من بكر بن وائل .. والبيت الحاكم في المملكة السعودية كذلك ينحدر من «عنزة» نفسها التي هي من بكر بن وائل . ومن الكويت كانت انطلاقة مؤسس هذه الدولة المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود لإنشائها وتوحيدها تحت راية التوحيد الخفاقة .

١ كتاب الكويت المدينة الفاضلة ، ص ١٨١ .

الأردن مَلاحُ وآثار

كهف اهل الكهف

منذ وعينا قصة أهل الكهف الواردة في الذكر الحكيم ، ونفوسنا تتطلع إلى رؤية هذا الكهف الذي أوى إليه الفتية الاطهار الذين آمنوا بربههم وهربوا من جحيم الوثنية والطغيان في أيام دقيانوس .

وتمضي السنون ، وتُهيَّءُ الأقدار لنا رحلة إلى الأردنّ . وإذا بنا في أصيل يوم من أيام جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ يطلب منا مندوب الحكومة الأردنية الهاشمية المرافقان لنا أن نستعد لزيارة الكهف الواقع قريباً من عَمَّانَ بجنوبها .. وهكذا امتطينا السيارتين اللتين جعلتهما وزارة الاعلام الأردنية تحت تصرفنا ، واتجهنا صوب الكهف .. وفي نحو ربع ساعة كنا قد بلغناه .

وصف الكهف وما حوله :

وهذا الكهف هو غير مرتفع ويقع في داخل سفح جبل ، ويدخل اليه الإنسان من فتحة مرتفعة بعض الشيء ، وسقفه ليس بالواطئ ولا بالعالي . هو بَيْسَنَ بَيْسَنَ .. وبه نقوش رومانية منقورة في داخله على بعض الصخور العظيمة المكونة لجدرانته . وتوجد « كُؤَة » مفتوحة إلى

السماء في داخل الكهف القصي^١ ، تهبط منها أشعة الشمس محصورة ، فتدخل شيئاً من النور إلى الكهف إذا توسطت الشمس كبد السماء ، فهو متنفس علوي^٢ للكهف . أما المتنفس الثاني والأهم فهو بابه المتجه صوب الشمال .

وفي مدخل الكهف «بَهْوٌ» أشبه شيء بالدھليز كما يُدعى لدينا سابقاً ، وبالصّالة كما يُعرف الآن . والدھليز أقرب مكان إلى الباب دائماً . وهناك في داخل الكهف تواييت ضخمة قيل لنا إنها كانت أضرحة أصحاب الكهف السبعة . وفي خارجه مسجد ذو منبر مكشوف قيل لنا إن صلاح الدين بن أيوب^١ بناه أو جددّه ، ومثدنة تعلو الكهف من جانبه ، ومجرى ماء صناعي قديم . وإلى الغرب من الكهف بمسافة ليست بعيدة جداً يقوم جبل تعلو قممته وسفحه بيوت وأكواخ مسكونة من قبل أهل بادية متحضرين ترعى أغنامهم فيما حولهم . وقيل لنا إن اسمه (الرقيم) وأرانا المرشد^٢ ، عز الدين التل ، كيف أن الشمس إذا طلعت صباحاً تميل عن داخل الكهف جهة اليمين ، وإذا غربت تعدل ذات الشمال .. وأهل الكهف اللاجئون إليه والراقدون في وسطه بمنجاة عن أشعة الشمس المحرقة حالما يهب عليهم النسيم البارد كل وقت من مدخل الكهف الشمالي^٣ . و «الدھليز» الذي مر بك وصفه يبدو — كما رواه لنا عز الدين — أنه هو « الوصيد » المقصود في القرآن .. لأن من معاني الوصيد ، الباب الذي يوصد ، قال تعالى : « وَكَلَبُهُمْ بِأَسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ » .

والمسجد المبني^٤ حالاً بجوار الكهف لم يكن — فيما أرى — المسجد

١ يقع كثير من الكتاب والمؤرخين في خطأ تاريخي، إذ يكتبون « صلاح الدين الأيوبي » ، نسبة لصلاح الدين إلى أيوب .. مع انه ابن أيوب ، مباشرة ، أي ان اسم أبيه أيوب ، فلا يصح على هذا أن يقال له الأيوبي .

المذكور في القرآن المجيد : « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا » . ذلك لأن طراز بنائه إسلامي ، وربما كان يقوم على أساس المسجد الأول أو بالقرب منه .

من كل ما سبق بيانه يتراءى لكاتب هذه السطور — علمياً — أن « كهف أهل الكهف » هو هذا المكان بالذات . ذلك لأن الله تعالى أكد لنا في محكم كتابه أن ما يقصه علينا من نبئهم هو الحق الذي لا مرية فيه : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » . ونضيف إلى ذلك ما توصلنا إليه من دراسة التاريخ واستقراء قصص القرآن الحكيم من أنه إنما كان يتحدث في قصصه لعرب الجاهلية المعاصرين للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، عن الأمم الخالية ومواقعها التي يعرفها الْمُخَاطَبُونَ ، وتنحصر دائرتها الكبيرة في المنطقة التي تقع في شمال شبه جزيرة العرب ، ابتداء من مشارف الشام على حدود الحجاز ، وبشماله حتى أقصى حدود الشام العربية . ويدخل في محيط هذه الدائرة كل من الحجاز والأردن وفلسطين وسورية ، ويندرج في محيط الدائرة بالتبعية بلاد مصر .. بالنسبة لأن ما رُوِيَ من قصص موسى ويوسف عليهما السلام وفرعون موسى ، في أرض مصر هو في الأساس منبثق من أرض الشام ، لأن هذين النبيين : موسى ويوسف هما في الأصل من سكان فلسطين . وفرعون موسى أصله عربي من الهكسوس الذين هاجروا إلى ديار مصر واستوطنوها ثم حكموها فترة من الزمن القديم .

دوائر أثرية أخرى :

وهناك دائرة صغيرة أخرى أيضاً تحدثت عنها قصص القرآن وهي جَنُوبُ الجزيرة العربية .. بما بُعِثَ فيها هودٌ إلى قومه عاد ، وبما ذُكر عن أصحاب الأخدود في نجران ، وبما ذُكر عن تُبَّع وسبأ في

اليمن . ودائرة* أخرى وردت في القرآن وهي (بَابِلُ) بالعراق . وكل هذه الجهات هي من بلاد العرب ومما يعرفه العرب المُخَاطَبُونَ في القرآن . ولا يدخل في معلوماتي أن القرآن تحدث عن غيرها ، اللهم إلا أن يكون عن فارس «إشارة» لا صراحة ، و «الروم» ، وهما يمثلان الامبراطوريتين اللتين كانتا تجاوران بلاد العرب من شرق وشمال ، وتحتلان بعض مدنها وأريافهم إذ ذاك . ومن هذه الجهة عرفوهم ، ومن هذه الجهة تحدثت قریش وجادلت الصحابة فيمن يفوز منهما بالظفر في المعارك الطاحنة الدائرة بينهما أيام ظهور الإسلام . فيشر الله المؤمنين في مكة بأنه سينصر حتماً الرومَ أهلَ الكتاب على فارس الوثنية ، وفي ذلك بشارة معنوية بنصرة الإسلام على الشرك . وقد عبر القرآن خير تعبير وأبلغه عن تحقيق النصر آخر الأمر كذلك للمؤمنين على المشركين في مكة المكرمة ، وتحقق وعدُ الله الصادقُ بفتح مكة و«يَأْنُ نَصْرَ الرُّومِ» على فارس) . كما تحدث القرآن عن ذي القرنين ووصوله إلى بلاد يأجوج ومأجوج لأن ذا القرنين من العرب على راجح الأقوال ومن جنوب بلادهم بالذات^١ .

أما الأقطار النائية عن بلاد العرب كالقسطنطينية وما حولها التي لا صلة كبيرة لهم بها فلأنها لم تكن مواطن رسالات أنبياء الله إلى خلقه فيما أعلم لم يتحدث عنها القرآن المجيد — فيما أعلم أيضاً — ولا أنبأنا بما سبق أن جرى عليها من أحداث خطيرة وحروب مبيدة مثيرة .

١ في «صفة جزيرة العرب» للهمداني : « فأوطان عسير إلى رأس تبة وهي عقبة من أشراف تهامة وهي أبها وبها قبر ذي القرنين فيما يقال عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة » ، ص ١١٨ . وفي « الآثار الباقية عن القرون الخالية » لأبسي الريحان البيروني : « أن ذا القرنين من حمير ، والدليل على أنه حميري أن «الأذواء» إنما يعرفون في بلاد حمير دون بلاد اليونان وهو من الدولة الحميرية التي حكمت من سنة ١١٥ ق. م. إلى ٥٥٢ م. من الطبقة الثانية منها وملوكها يسمون التباينة وأحدهم تبع » .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءِ :

والصفة التي شاهدناها في الكهف هي مطابقة لما جاء عنه في القرآن الحكيم . فباب الكهف شماليٌّ ، وإذا طلعت الشمس على مَنْ هَمَّ بداخله ، لا تصل اليهم . إنها تميل ذات اليمين . وإذا غربت تميل ذات الشمال (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ) وهذه هي الفجوة نراها رأي العين . وكلبهم حارسهم كان مربضه بهذا الدهليز الذي هو مدخل الكهف . وكأني أراه باسطاً ذراعيه بالوصيد . والوصيد هو « الباب » في اللغة العربية ، لأنه يوصد أي يغلق . وهذا هو جبل الرقيم بجانبنا نراه رأي العين . واسمه لا يزال كما كان يعرفه العرب قديماً هو (الرقيم) . وها هو ذا المسجد إلى جانب الكهف ، ولعله بني على أسسه بناءً إسلامياً .

وعلى ضوء هذه الدراسة المزدوجة نستطيع أن نقول مرة أخرى بدون تحفظ : إن هذا هو « الكهف » وهذا هو « الرقيم » . والرقيم كما ذكره ياقوت في معجمه جبل يعرفه العرب القدامى بهذا الاسم^١ وقال فيه كثير يمدح يزيد بن عبد الملك :

يَزُرُّنَ عَلَى تَنَائِيهِ يَزِيدًا بِأَكْنَافِ الْمَوْقِرِ وَالرَّقِيمِ

مناقشة لياقوت الحموي :

ومع أن ياقوتاً — في مادة الرقيم — بالمجلد الثاني من « معجمه » رَكَّنَ إلى أن الكهف ليس هو القريب من عَمَّانَ ، وإنما هو في بلاد الروم بين عمورية ونيقية ، وبينه وبين طرطوس عشرة أيام أو أحد عشر يوماً ، ودليله على ذلك ما رواه محمد بن موسى المنجم في

١ معجم البلدان ، ص ٨٠٤ ، المجلد ٢ طبعة طهران .

بعثة الواثق ، له ، إلى بلاد الروم ، عن أهل تلك المنطقة ، وما رواه عبادة بن الصامت في بعثة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، له ، إلى بلاد الروم ، لدعوة ملكهم إلى الإسلام - فإن تلك الروايات هي مأخوذة من روايات مجردة عن الدلائل ، فقد رُوِيَتْ عن سكان المكان من الروم . وقد لا تعدو روايتهم هذه أن تكون قابلة للتحريف والتضليل ، لا سيما ونحن نشاهد اليوم كثيراً من المآثر المزعومة أنها إسلامية مقدسة ولا أثر من الصحة لذلك ، وما هي سوى (مصايد وأشراك) ينصبها التفعيون لقلب المادة ليس غير .

وياقوت نفسه روى لنا أن من الرواة من يرى أن الكهف والرقيم هما بالأندلس ، وأن طليطلة هي مدينة دقيانوس الذي كَفَرَّ في زمنه أصحاب الكهف من بلدهم إلى الكهف . وهذا تخالُفٌ في الرواية والرأي . ونلاحظ أنه قد رجع آخر الأمر إلى الرأي الذي يقول : إن الكهف والرقيم هما بقرب عَمَّانَ ، بدليل أنه في المجلد الثالث وفي مادة (عَمَّانَ) قال ما نصه : « وقيل إن عمان هي مدينة دقيانوس ، وبالقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البلاد ، والله أعلم »^١ .

وكان هذا هو ختام مباحثه عن الكهف والرقيم ، وبعد أن كتب ما كتب في هذا المجلد وفي سابقه الذي هو المجلد الثاني من كتابه ، ولم يعقب عليه بشيء . فالذي يفهم من سياق كلامه وفحواه اقتناعه آخر الأمر بأن هذا الرأي هو أقرب للصواب من سابقه أو سوابقه .

الكهف في كتب الآثار الاردنية الحديثة :

ولم يتعرض كتاب (آثار الأردن) تأليف لانكستر « هاردنج » ، وترجمة

١ معجم البلدان ، ص ٧١٩ ، المجلد ٣ ، طهران .

الأستاذ سليمان موسى لذكر شيء عن الكهف والرقيم ، مع إسهابه في ذكر آثار الأردن قاطبة ، ومنها عَمَّان العاصمة ، وَعَقْدِهِ فصلًا خاصًا بآثارها الأخرى كالمدرج الروماني الكبير وآثار جبل القلعة وما إلى ذلك . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن لانكستر « هاردنج » لا يميل أو لا يرى أن الكهف والرقيم يقعان قرب عمان . وقد قال بهذا القول من قَبْلِهِ ، غيرُه من علماء الإسلام ومؤرخيهم . ولكن لانكستر هاردنج لم يفصح لنا عن رأيه الخاص . ولعل ذلك أو لعل دراسات خاصة هي التي أوحى إلى عالم آثار الأردن الأستاذ محمود العابديّ بالقول بأن هذا المكان القريب من عمان ليس هو الكهف المراد في القرآن المجيد ، وإنما الكهف في آسية الصغرى . لقد صرح لنا بذلك ونفى نفياً باتاً أن يكون هذا المكان هو الكهف . وذَكَرْتُهُ وسُئِلْتُ له بعض أدلتي ، ولكنه لم يقتنع .. وقال : إن هذا المكان مكان روماني قديم أو معبد لهم .

أما أنا فما زلت أرى أن هذا هو الكهف ، وأن هذا هو الرقيم . وأهل مكة أدرى بشعابها . وأهل البلاد القدامى الذين روى عنهم ياقوت أن هذا هو الكهف . وهذا هو الرقيم بجانبه قرب عمان هم أعرف بآثارها . وتتسلسل معرفتهم لها ، من جيل إلى جيل ، خاصة وقد أثبت العلم والبحوث الأثرية أن كثيراً مما رواه مؤرخو العرب وعلمائهم عن ماضي بلادهم وآثارها العريقة هو حقيقة واقعة ، وأن مجرد نفي ذلك لمجرد أنه روايات عربية أو إسلامية لا تستند إلى بحوث أثرية أو كتب مدونة موغلة في القدم ، لم يستطع أن يزحزح حقيقة وقوعها قيد شبر .

هذا وقد علمتُ أنه يوجد في عمان أستاذ يرى رأينا ، وقد أَلَفَ كتاباً وطبعه في هذا الموضوع . ولكننا لم نتمكن من الاجتماع به ولا

الوصول إلى تأليفه ، لا حينما كنا بالأردن ، ولا بعد أن غادرناها إلى هنا^١ .

* * *

هذا وقد نشرتُ جريدة (الحياة) البيروتية في عددها الصادر في ٢٦ شهر رمضان ١٣٨٧ هـ - ٢٧ كانون الأول ١٩٦٧ م تحت عنوان : (كهف أهل الكهف) رسماً يَدَوِيّاً للكهف ، وكُتِبَ تحته ما نصه : (واجهة الكهف بعد كشف الأتربة عنها وتنظيفها) ، ثم نشرت تحت عنوان : (إقامة مسجد بالقرب من عَمَّان في موقع كهف أهل الكهف) ما نصه :

عمان - ٢٦ - مكتب الحياة : تقرر إنشاء مسجد في موقع « كهف أهل الكهف » في منطقة عمان ، وذكر أن الملك حسين سَيَرُسي حجر أساس المسجد الحديد الذي سيقام على الموقع الأثريّ التاريخيّ الذي يقع على بُعد ثمانية كيلومترات جنوبيّ مدينة عمان ، وذلك يوم الاحتفال بعيد الشجرة في الخامس عشر من شهر كانون الثاني القادم .

ومعروف أن قصة أهل الكهف وردت في القرآن الكريم ، وفي عدد من الكتب الدينية المسيحية ككتاب « أوقات الصلاة » و « فوز الشهداء » . وأهل الكهف هم تلك الفئة من الناس الذين ورد أنهم ناموا قرابة ثلاثة قرون ، ثم أفاقوا على دنيا غير الدنيا التي كانوا يعرفونها . وقد اكتُشِفَ « الكهف » أثناء الحفريات التي قام بها رفيق وفا

١ في رحلتي إلى الرياض لسنة ١٣٨٦ هـ ، عثرت على الكتاب المشار اليه في إحدى مكتبات الرياض التجارية فاشتريته . واسمه : « اكتشاف كهف أهل الكهف » ، وهو تأليف الاستاذ رفيق وفا الدجاني وهو يؤيد وجهة نظرنا تماماً .

الدجاني ، المساعد الفني لدائرة الآثار العامة في الأردن ، حيث عثَرَ على بقايا مسجد كان قد أقيم زمن عبد الملك بن مروان ، كما عثَرَ على بقايا كنيسة ترجع إلى القرن الخامس للميلاد . وقد وَضَعَ بعد ذلك كتاباً أورد فيه جميع النصوص والمراجع المتعلقة بقصة « أهل الكهف » والمثبتة لصحة المكان الحالي لموقعه .

البّراء

المدينة الوردية الرائعة

بالإمكان أن نعتبر « مدينة البّراء » الرابضة بجانب الطريق الصحراوي الممتد من عَمَّان إلى مَعَّان ، فالعقبة — من أعظم مدن العالم التاريخية جمالاً ، سواء في أيام إنشائها وازدهارها ، أم فيما بعد ذلك في آثارها وأطلالها . وتتمثل عظمة البّراء في دقة فنِّ النحت وفن التصوير ، وروعة الهندسة المعمارية فيها ، مما قام به أولئك الأنباط العرب الذين قدّوا أبنيتهما الفارعة الرائعة من الصخر الأصم الأشم .

أسماء البّراء :

وأرى أن الاسم الأصليّ للبّراء ليس هو « البّراء » الذي اشتهرت به مؤخرأ ، نقلاً عن المستشرقين ، وإنما هو « سَلْع » . وقد سماها بذلك ناحتو بيوتها ومنشؤوها من النبط ، اقتباساً لهذا الاسم من موقعها الذي هو هذه الجبال أو هذه الشقوق في الجبال .. فكلا المعنيين لسلع وارد في اللغة العربية .. وفي بلاد العرب جبلان آخران سُمّيا باسم « سلع » . أحدهما يقع بقرب المدينة المنورة عن شمالها ، والثاني في بلاد هُذيل .

ومما يؤكد لي أن اسم المدينة الأصلي العربي هو (سلع) قولُ
ياقوت الحمويّ في «معجم البلدان» : «وسلع أيضاً حصن بوادي
موسى عليه السلام بقرب بيت المقدس» . فلا مرية في أن ياقوتاً إنما
يعني بهذا ، مدينة البتراء ، وقد سماها حصناً ، لأنه لم يهيا له التجوالُ
في ربوعها ومشاهدة قصورها ومعابدها وأسواقها وملاعبها ومقابرها
وشارعها العظيم . ولعله أراد بالحصن ، الحصن الذي أقامه الصليبيون فيها ،
فذكره دون غيره مما هو أهم وأعم وأطم . وباسم « سلع » سماها
شاعر العرب المرحوم فؤاد الخطيب في قصيدته العشاء فيها ، إذ قال :

هِيَ سَلْعُ وَالنَّبْتَاءُ تَرْجَمَةُ اسْمِهَا
نُسِجَتْ عَلَيْهِ عَنَّا كَبُ الْإِهْمَالِ

وفيدنا فؤاد الخطيب في ديوانه ، وهو شاعر لا يجارى وعالمٌ غزير
العلم ، بأن للبتراء اسماً ثالثاً هو (وادي موسى) . وقد مر بنا قول
(معجم البلدان) إن (سلعاً) التي هي البتراء نفسها حصن بوادي موسى
ولإذن فيكون هذا من المجاز المرسل ، من باب تسمية الحال - بتشديد
اللام - باسم محله .

هذا ومما ينبغي التنبيه إليه أن اسم «البتراء» بالصيغة نفسها قد ورد
في كتب السيرة ومعجم البلدان والتاريخ ، العربية ، وهو ليس مطلقاً
«بَتْرَاء» وادي موسى . وقد لَخِصْتُ من مراجعاتي لما ورد عن
البتراء هذه التي لا تَمُتْ إلى «مدينة الأنباط» موضوعَ هذا المقال
— بأية صلة — أنهما بترآوان ، إحداهما : البتراء الواقعة على نحو مرحلة
من المدينة المنورة ، وقد سلكها النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة
بني الحيان ، مورياً بأنه يريد الشام . والثانية : تقع قرب تبوك ، في
بلاد بني الحارث بن كعب ، وقدمر بها النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً
في طريقه إلى تبوك ، وبني فيها مسجداً ، والمسجد يقع في طرف

البُتراء من ذنب كواكب أو كوكب : جبل هنالك .

الشعر يصف البُتراء :

وفي وصف مدينة البُتراء ، موضع البحث يقول فؤاد الخطيب :
وشهدتُ فيه مدينةً منحوتةً
في الصخرِ نَحَتَ مُشَيِّدِ التمثالِ
موصولةٌ حُجُرَاتُهَا بِفِنَائِهَا
نَقَرًا عَلَى عَمَدٍ لَهْنٍ ، طِوَالِ
وكانَ ساطِعَ نقشها وطلائِها
لَهَبٌ تَوَهَّجَ ، لا بريقُ صِقَالِ
والقصرُ نحو القصرِ ينظرُ شامخاً
نظرَ المدلَّةِ ، مؤذناً بزيالِ
بلدٌ كأن يداً دَحَّتْهُ ، فَعَرَّ مِنْهُ
قُلُلُ الجبالِ مُمَزَّقِ الأوصالِ
فَهَسًا الصخورُ على الصخورِ تحطمتِ
وهناك منه حقيقةٌ كخيالِ

ومن قول « فؤاد الخطيب » عن نفسه : (شهدتُ فيه مدينةً منحوتة الخ)
نَقَّهَمَ أَنَّهُ زَارَ البُتراءَ وَتَجَوَّلَ فِيهَا ، وَتَأَمَّلَهَا بَعَيْنَ الشَّاعِرِ الْعَالِمِ الْفَاضِلِ ،
وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ نَظَّمَ دِرَّتَهُ الْفَرِيدَةَ فِيهَا نَظْمَ شَاعِرٍ مُشَاهِدٍ مُتَأَثِّرٍ بِمَا
شَاهَدَ .

ملاحظة لغوية :

تبديت لي ملاحظة جانبية حول ما يتعلق بأصل اسم « البُتراء » وهذه

الصيغة بالذات ، فإننا إذا رجعنا إلى مادة «بَتَرَ» في اللغة العربية فإننا نجد من معانيها «القطع» ومنه السيف الباتر أي القاطع .. (إنَّ شَأْنِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) أي هو المنقطع عنه الْعَقَبُ أو الخير .. والبتراء المدينة النبطية هي مقطوعة القصور والدور والخوانيت من جبالها الصم . أفلا يصحُّ إذن أن يكون اسم «البتراء» عربياً ، ومن هذه الصيغة العربية الصميمية ؟

موقع البتراء :

تقع مدينة البتراء على مسافة ٢٧١ كيلومتر ، من العاصمة الأردنية : «عَمَّان» ، وتختبئ في تجويف منحرف واطئة شديدة الانحدار ، بوادي موسى بالجانب الأيمن من الطريق الصحراوي الذي يسير بجانب هذا الوادي صوب مَعَّان والعقبة .. ومدخلها هو «مسيل وادي موسى» الشديد الضيق والانحدار ، والمملوء بالصخور والأتربة والفجوات والحجارة والتعاريج ، والمعروف باسم «السَّيْق» . وفي مدخل وادي موسى الذي تقع مدينة البتراء في أواسطه وأواخره ، رأينا الحداثق الغُلْبَ ، من عِنَبٍ وتين ، يسقيها ماء سلسبيل يهبط عليهما من نبع من جبل هو أقرب إلى الطريق الصحراوي بالنسبة إلى داخلية الوادي ، وإلى مدينة البتراء . وَيُرْوَى أن هذا النبع الفياض ذا الماء النмир هو الذي كان موسى عليه السلام فَجَّرَهُ اثنتي عشرة عيناً ، حينما ضرب بعصاه الحجر هنا . ولا أستبعد ذلك فالواقع يدل عليه . كما أن الضريح المنسوب إلى موسى عليه الصلاة والسلام لا يبعد كثيراً عن هذا المكان ، وهو على ربوة عالية بجانب الطريق الصحراوي الممتد بالإسفلت اليوم إلى مدينتي مَعَّان والعقبة . كما أن ضريح أخيه ووزيره «هارون» يقال بوجوده أيضاً قرب هذا المكان .

النثر يصف جمال البتراء :

ونعود إلى وصف فؤاد الخطيب في شعره للبتراء ، فنخاله من أوائل من قاموا بهذا الوصف الرائع ، شِعْراً ، لمدينة البتراء . وكما أسهم « الشعر العربي الحديث » في وصف محاسن البتراء ، فَمِثْلَ صنيعة صَنَعَ النثرُ العربيّ الحديث ، فجاء في مقال لكاتب معاصر قوله : (تعتبر البتراء تحفة نادرة من الجمال والروعة ، وتشابك فيها الألوان الحمراء والصفراء والسوداء والبيضاء فتختلط وتماوج ، كأنها البحر الذي كان يغطيها من عصر التاريخ الأول) .

وهذا الوصف النثريّ في قطعة نثرية هو أشبه بمقطوعة شعرية رائعة ، وهو مطابق تماماً لما شاهدناه من تماوج الألوان في مدينة الأنباط الوردية وبالأخص في القصر المعروف « بالخزنة » الذي لا يزال بَراقاً كما كان .

وقفة أمام الخزنة :

والواقع أننا كُنّا أمام « الخزنة » هذه ، مشدوهين بعظمة فن النحت العربي القديم ، وبجمال قوام المبنى ، وبرشاقتها ، وتماوج الألوان الطَّبَعِيَّةِ فيه ، بما يفوق الوصف ويفوت على الاستيعاب . ومع أن « الخزنة » في ألوانها المتشابكة هي طَبَعِيَّةٌ فلَكانَها قطعة فنية استعمل فيها الفنان عشرات الألوان الممتزج بعضها ببعض . ويتجسد كل هذا الجمال الفنيّ في « الخزنة » حينما تشرق دُكَاءُ على وجهها الورديّ المشرق . فتستحيل حمرتها الوردية إلى حمرة خد الحسناء الجميل في الصبح المتفتح الجميل .

ومع أن الجبل الذي نحتت فيه « الخزنة » ليس قوياً صلباً ، فقد تمكنت من النجاة والبقاء إلى هذا اليوم ، وربما يعود بعض ذلك إلى

حسن اختيار موقعها الذي تَزَاوَرُ عنه الشمس طرفي النهار ، وتحييد عنه العواصف . وقد بنوا أمام الخزانة دكة عالية وواسعة ، وربما كانت مجلس سَراةِ القوم في الأسفار وطرفي النهار . ولهذا الدكة فوائد جزيلة تتمثل في حماية « الخزانة » نفسها من جوارف السيول في هذا المسيل الهدار . وقيل لنا : إنَّ تحت هذه الدكة خزان ماء كبيراً قد يكون امتلاؤه من مياه المطر المارة « بالسبق » كل عام ، وهكذا تكون الدكة مزدوجة الفوائد . مما يدل على براعة فائقة وعقل راجح في فن العمارة لدى الأنباط .

مرقص البتراء :

وبعد « الخزانة » شاهدنا المبنى المعد للرقص ، وهو دكة واسعة ، وبها بعض الجدران التي بنيت بالجنادل . وقد اخترقت بعضها شجرة « البُطم »^١ . والبطم : شجرة ضخمة الساق ، منحنية إلى الأمام . وأوراقها غير كبيرة ، وتميل إلى الاخضرار : وقيل لنا : إن لها من العمر الآن نحو ١٨٠٠ عام .

لمحات من تاريخ البتراء :

ويقول لنا متتبعو تاريخ البتراء أو سلع : إن أول من سكن البتراء هم « الحوريون » سكنة الكهوف ، وذلك للملاءمة طبيعة المنطقة لهم . ثم

١ ورد تعريف شجرة البطم هذه في الموسوعة في علوم الطبيعة : لادوار غالب ، فقال عنها ان مهد هذا الشجر الهند وبعض مناطق الشرق الأوسط ، شجرته فرعان ، تملو من مترين إلى ستة أمتار ، أوراقها كبيرة دائمة الخ ، ص ١٥٢ ، م ١ ، طبعة بيروت . ولشجرة البطم ذكر في تاج العروس شرح القاموس ، مادة بطم .

حل الأنباط العرب مكانهم ، وشادوا من جبال المنطقة المتدانية المتقابلة . هذه المدينة الضخمة حول هذا الشقّ أو « السيق » كما يطلق عليه الآن . ولا أدري هل هم شقوه أو وجدوه مشقوقاً بطبيعته وقد شادوا مدينتهم هذه في موقع حصين لا يصل اليه النُغْزاةُ إلا بعد جهد جهيد . وقد تمكن الأنباط من مد رواق ملكهم إلى شرق وغرب وإلى جنوب وشمال وضربوا النقود الذهبية والفضية وأقاموا دولة ذات كيان مستقل لها كل مقومات الدولة المنظمة . وكذلك بنوا المراكب البحرية واستقبلوا القوافل البرية التجارية المحملة بمختلف السلع من مختلف أفاصي البلدان وكان لهم خططهم الذي به يتكاتبون . ومن خطهم اشتقّ عرب الجاهلية الأخيرة في مكة المكرمة هذا الخط العربي الذي نكتب به إلى اليوم . ومما دلنا على عروبتهم أسماء ملوكهم ، فمنها الحارث الأول ، ومالك الثالث ، الذي كان يعاصر الإمبراطور الرومانيّ الطاغية « نرون » محرق روما . ومنها أيضاً زئبال ، « والرئبال » في اللغة العربية من أسماء الأسد . وبعد تأخر أوضاعهم دخل مدينتهم غيرهم ممن استهواهم بجبالها ، وحصانة موقعها ، وربما بقيت فيها بقايا من الأنباط اندمجوا فيما بعد بهؤلاء الداخلين ثم ذابوا كما يذوب الملح في الماء ..

وأول من غزا البتراء واستخلصها من الأنباط ، الرومان ، وتلاهم غيرهم من الأمم . وللرومان آثار ضخمة في البتراء مما يدلنا على نجاحهم في إقامة كيان لهم بها وطول مكوثهم فيها . وحينما ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي ، كانت البتراء معمورة ومأهولة . وتقلبت بالبتراء حوادث الزمن ، فنُسِيَتْ ، لأن موقعها المخفي وراء أسوار الجبال النائية عن العمران سهّل لها ذلك الاختفاء في عصور الاضطراب . وحينما قدم غزاة الصليبيين رأوا في البتراء موقعاً حصيناً يُمكنُهم من صد هجمات المسلمين . ورأوا فيها خط دفاع يتحكم في الطريق الصحراوي الممتد بين عمان والعقبة . فاتخذوها مقراً لهم ، وأقاموا بها حصناً لم

نشاهد لاشتغالنا بتتبع آثار الانباط والرومان طيلة النهار . فالبتراء مدينة واسعة ولا بد لآثارها من جولات فيها تستغرق معظم وقته ، ولا يمكنه مع ذلك ، الوقوف على كل آثار الأنباط والرومان بها ، لتقاصيها عن بعض ، ولعدم تمكن استعمال السيارات فيما بينها لوعورة السبيل في داخلها ، ولأن أغلبها واقع على قِمَمِ الجبال أو في سفوحها الدانية من هذه القمم . وفي الصعود إليها مشقة شاقّةٌ ، خاصة إذا لاحظنا العناء والجهد اللذين يلاقيهما زائر البتراء من طول « السّيقِ » الموصل إليها ، وصعوبة اجتيازها . وقد سَمَّى الصليبيون قلعتهم باسم « سِيلُ » وهذا الاسم — على ما نرى — مأخوذ من اسم « سلع » العربي للبلد . وقد شوهته اللكنة الإفريقية فكسرت السين وأتبعتها بياء ، وربما كانت مجرد علامة حركة الكسرة فقط ، وحذفوا العين في آخر الاسم لعدم وجودها في لغاتهم ، فصار اسم القلعة « سيل » . وهذه القلعة ، كما نرى ، هي التي وصف من أجلها ياقوت الحموي في معجمه ، البتراء كلها بأنها حصن . ولم يعلم أن الحصن المقام في عهد الصليبيين إنما أقيم على مدينة عربية موغلة في القدم ، وموغلة في الروعة والفخامة ، وهي « سَلْعُ » وهي « البتراء » . ولم يعن ياقوت نفسه بالوصول إلى هذه المدينة أو لم يتمكن ، فاكتفى بمعلومات سطحية عنها . وبحسبه فخراً أنه ذكرها باسمها العربي ، وذكر الحصن الصليبيّ باسمه العربيّ الفصيح : « سلع » مما يدلنا على أن عرب ذلك الزمان كانوا يعرفون هذا الحصن الصليبي بهذا الاسم ، كما يدلنا على غياب المدينة النبطية عن أذهانهم لإيغالها في الإهمال والنسيان ، ولإغراقها في النأي عن مواقع السكان .

عودة الحياة إلى البتراء :

ومدينة البتراء يراد لها اليوم عودةُ الحياة كتحفة عربية وأثرية عالمية باهرة ، وهي تستحق ذلك . وقد رُمّت بعض قصورها ، وحُولَ

بعضها إلى استراحات جميلة جمعت بين روعة القديم وجمال الحديث ،
كالمقصف الحديث الذي تناولنا فيه الشاي والمرطبات ، وشاهدنا في جنباته
وعلى كراسيه ، مختلف السائحين ، يستمتعون بطيب هواء البتراء ويرتاحون
فيه من عناء التجوال ، سيراً على الأقدام أو ركوباً على الخيل ، بين
قصورها ونحائتها المثيرة للاستطلاع والوقوف والتأمل .

في مقصف البتراء :

وهناك في المقصف الأردني الحديث المشار إليه ، استمتعنا بأحاديثٍ
فَتَى بدويّ تسلق أمامنا واجهة الخزنة الخطيرة العالية بخفة متزايدة وبدون
مبالاة كما يتسلق « الليمور » المدغشقرى عالياً الأشجار بخفة وطيّان .
وقد أمتّعنا هذا الفتى بأحاديثه العذبة ، عن آثار البتراء فهو بها خبير ،
وربما أخطأ في تاريخ بعضها فراجعه عالم الآثار الأردنية محمود العابديّ
الذي سَعِدْنَا بمرافقته في رحلتنا ، ويشرح لنا الحقيقة كما هي ، أو كما
يراها هو ، مستمدة من علمه الغزير .

متحف البتراء :

وخلال مكثنا بالمقصف البديع لفت نظري منظر بناء منحوت ،
فقصدته منفرداً ، وقد صعدتُ إلى المبنى العالي من سُلَّم حَجَرِيّ
متآكل رُمَمَ بعضه حديثاً ، وبقي بعضه على حاله . وهذا السلم مع
تداعيه وتآكله ، هو من النوع العالي . وهو متعرج كذلك . وحينما
بلغتُ المنزل ، وجدته ذا غرف واسعة منظمة ، وضع في بعضها
الآثار المكتشفة بالبتراء من تماثيل ونقوش وأوانٍ فخّارية وغيرها .

وبعضُ هذه التماثيل رومانيُّ الأصل . وقد لحق بي في المكان ثاني رواد رحلتنا عز الدين التل ، ثم تركته يتجول وحده هنالك .

ما هو السِّيق ؟

« السِّيقُ » كما مر بنا هو الطريق الوحيد إلى مدينة البتراء ، ليس لها منفذ أو مدخل فيما عكستُ سواه . وربما كان من أسباب اختيار الأنباط ومن قبلهم ومن بعدهم للإقامة في البتراء تحكُّمُ هذا « السيق » أو هذا الشق ، أو هذا المدخل الوحيد ، في المدينة فلا يستطيع غازٍ أن يقتحمها بحال من الأحوال ما دام « السيق » في يد أهلها ، وما داموا يتحكمون في مدخلها الوحيد . إنها إذن مدينة محصنة تحصيناً طَبْعِيّاً محكماً بمعنى الكلمة . « والسيق » شق ضيق شديد التعرج والانحدار كثير الحجارة والجروف . وهو يخترق الجبال المحيطة به حتى يكاد المرء يتصور أو يتخيل أنه شق اصطناعي بسبب تقارب الجبال من حواليه تقارباً شديداً جداً مع علوها عنه علواً شديداً ، ومسائرتها له في تعاريجها الوفيرة المثيرة . ويبلغ ارتفاع هذه الجبال عن هذا الشق من ٢٠٠ متر إلى ٣٠٠ متر . والجبال كلها يغلب عليها لون الورد الأحمر الداكن ، ولكنها لا تصل في الألوان إلى مستوى ألوان (الخزنة) الآنف ذكرها . وقد تذكرتُ — وأنا أجتاز هذا السيق وأشهد ألوان جباله الداكنة — تذكرتُ سَمِيَّ هذه الجبال — سَلْعاً — في المدينة المنورة ، لمشابهتهما لبعض في اللون تقريباً .

وقد أدركتُ من آثار تأمل أطراف السيق أن السيق هذا كان مبلطاً بالحجارة ، ولكن مرور القرون أثلف البلاط . وطول مسافة السيق كيلانين . ويرى « لانكستر هاردنج » خبير آثار الأردن في كتابه : « آثار الأردن » الذي ترجمه الأستاذ سليمان موسى وزميله ،

أن السيق محرف عن صيغة الشق .
وأنا أرى رأيه ، نظراً لتقارب مخارج حروف الصيغتين ، وسهولة
التحريف في مثلهما طيلة الأجيال .

من آثار البتراء :

وقد شاهدنا على جانبي سفوح جبال السيق محاريب صغيرة ربما
كانت نماذج لمعابد الأنباط . كما شاهدنا قنّوات مائية محفورة في سفوح
الجبال ، لتروي سكان المدينة التاريخية ، وشاهدنا كذلك معبد (جوبيتر)
ومحكمة رومانية عالية .

والبتراء مقسمة إلى مدينتين : مدينة الأنباط وهي التي تلي الطريق
الصحراوي ، ومدينة الرومان ، وهي التي تقع بعدها إلى الداخل ، من
ناحية المصرف المائي . لقد أراد الرومان أن تكون مدينتهم البتراوية
ذات كيان مستقل متميز ، نوعاً ما .

وفي البتراء فندق مكيف بالهواء يربض فوق متن التل المشرف على
مدخل « السيق » ، وهو استراحة أثرية قديمة حديثة معاً ، من النحائت
النبطية التي كَشَفَتْ عنها الحكومة الأردنية وأعادتْها كما كانت . وكنا
نرى في البهو نحائت ربما كانت مقابر لأصحاب هذا المنزل أو هذا
القصر ، ولكنها نظمت على نسق في بديع جعلها من مفاخر البتراء العمرانية .

لبنانُ وسُوريّة
مَلاحُ وآثار

جولة *

« في ربوع لبنان وسورية »

طالما سمعت عن السرعة والراحة اللتين يلاقيهما راكب الطائرة النفثة الحديثة المعروفة بالبوينغ ، ولذلك أزمعت امتطاءها في رحلتي إلى الخارج في هذه المرة .

وفي الصباح المبكر أذن لنا بأن ندخل « مُدَرَّج » الطائرات في جدة . فقد أقبلت « حافلة » ووقفت أمام باب الدخول ، وأقلننا إلى حيث تجم « البوينغ » بعيدةً عن الطائرات العادية ، ودخلناها فَوْجاً إثر فوج ، وجلسنا على مقاعدها الوثيرة الفخمة . وأزيح السلم ، ثم أغلق الباب علينا ، ومن ثم بدأت آلاتها تزأر زئيراً خفيفاً أول الأمر ، فشديداً ، ثم دَلَقَتْ على أرض المطار ، كما تدلف القطاة .. وبعد هنيهة توقفت فجأة واشتد هدير آلاتها ثم أرقلت قليلاً ، وشاهدنا حَيَزُومها وهو يرتفع في قوة وتصميم إلى فوق ، فعلمنا أننا زایلنا أمناً الأرض ، ودخلنا طبقات الجو الأجنبية عنا . وتمامسكتُ فإذا بي بعد لحظة قصيرة أراني ومن معي ، وقد علَّوْنَا على مدينة جُدة علواً شاهقاً ، واتجهت

(*) هذه الجولة كانت في سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

الطائرة بنا صوب الشمال ودخلنا بين زرقتين : زرقه البحر الهادئ تحتنا ، وزرقه السماء فوقنا ، واشتد ارتفاع الطائرة إلى علٍ ، دلنا على ذلك علوٌ مقدمتها عن مؤخرتها حتى لكأنها تريد أن تقف على ذيلها .. وقد تحسستُ مشاعري عندها .. فوجدتها كما هي على سطح الأرض قبيل بضع دقائق تماماً .. تقديرًا وتفكيرًا .

وحين نهضتُ الطائرة إلى الجو سمعنا « مذيعةها » الجهير الصوت ، وكان ألتغ - سمعناه وهو يُحيينا ويقول لنا : « إننا الآن على متن الطائرة السعودية النفائة « البوينغ » ولأنها سترتفع بنا عن الأرض ٣٣ ألف قدم ، وستصل إلى بيروت في ظرف ساعة وخمسة وخمسين دقيقة » .

وكان حديثه هذا بالنسبة لي يحمل وجهين مزدوجين : وجهاً من بشاره ، ووجهاً من قلقٍ .. فأما وجهُ البشارة فيتمثل في أننا سنصل بيروت في هذه المدة الوجيزة من الزمن ، وإن كانت الدقيقة الواحدة في نظر راكب الطائرة ، الذي هو أنا بالذات ، تزن ساعات طويلة مملة .. يُلْزَمُ المرءُ فيها أن يظل حبيس مقعده الوثير ، مغلقاً عليه باب هذه الغرفة الكبيرة الجبارة التي تسبح في جو لا يمت إليه الإنسان بصلة بالنسبة لحياته المألوفة على سطح الأرض طيلة حياته ..

وأما وجه القلق فكان مبعثه قوله : إننا سترتفع عن الأرض (٣٣) ألف قدم .. لقد حسبتُ المسافة بيننا وبين الأرض التي ألفنا الحياة على ظهرها فإذا هو بون شاسع وهوة عميقة .. ولُطْفُ الله أعظمُ من كل شيء ، ولا بد من الاستسلام للقدر .. على كل حال .. في مثل هذه المواقف .

ولقد لطف الله . فظلت « البوينغ » سابحة في « القضاء الداخلي » هادئة هادئة متزنة .. ولم يحدث فيها اضطراب ، ولا شَعَرْنَا بمطبات ولا بارتجاج ولا هزات .. ولقد صعدت فوق منطقة السحب ، فسلمت من

شر احتكاكها بها وشر اهتزازاتها وشر تقلبات جوها .. وحينما استوت
على جُوديّ الجو الشاهق لاحظنا تساوي مقدمتها وذيلها .. وحينئذ
اعتدلتُ وأصبحت شبه ساكنة .. ولولا ضجيج أدواتها الجبارة ، ومرورنا
السريع بمختلف المناظر النائية عنا جدّاً ، وتغيّر موقعها أو موقعنا
بالنسبة لهذه المناظر لقلنا تَجَوَّزاً : إن طائرنا منطاد ساكن في الهواء
غير متحرك وغير سائر .. فاذا قدر لأحدنا أن يطل على ما تحتنا فهو
حينئذ يلمسُ السرعة الفائقة والبون الشاسع والهوة العميقة التي تفصل
بيننا وبين أمتنا الحبيبة : « الأرض » .

وأعتقد أننا تجاوزنا منطقة تحليق الشواهين والصقور والنسور وسائر
الطيور .. فنحن الآن ، كما يترأى لي وقتئذ .. قريبون أو غير بعيدين
جدّاً من منطقة الفضاء الخارجي .

وبعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة على سيرنا من جُدة رأينا طائرنا تنكس
برأسها إلى أسفل .. ماذا حدث ؟ وبأدّنا مديعُ أنبائها بصوته المجلجل
الألغ بقوله : (إننا الآن على مشارف عمان — عاصمة المملكة الأردنية
الهاشمية — وإن علينا أن نشد الأزيمة) .. وحينئذ كنت لا تسمع إلا
طققة هذه الأزيمة ، تُشدّ من حولِ خصور الراكبين في حماسة
بالغة وفرحة غامرة .. وبدأنا نشاهد مناظر الأشياء على سطح الأرض
مصغرة وضيئة .. المزارع الخضراء كرقع الشطرنج ، والبيوتُ تشبه
عُلبَ الكبريت ، والطرق المسفلّنة يمثّل منظرها منظرَ الجبال
المفتولة الملقاة على سطح الأرض في غير احتفال والناس كالنمّال الكبيرة .
ثم أمنت الطائرة في عملية الهبوط واشتد هبوط مقدمها ، وداخلها
شيء خفيفٌ من الارتجاج ، وأمسك بعضنا بأطراف المقاعد ، وما هي
إلا هنيهة حتى اتصلت عجلاتها بأرض المطار .. مطار عمان ، وزاقت عندئذ
على مدّرجه كما يزوف الطائر الضخم الهابط من مستوى عال بذيله الكبير ،
ثم هدأت آلاتها عن العجيج ، ووقفت عجلاتها عن الدوران .. وقيل

لنا : « اهبطوا بسلام إلى عمان » ، فهبطنا ، وحمدنا الله على عودتنا إلى الأمّ الحنون بسلامة ، وشكرناه على سلامة المرحلة الأولى من رحلتنا الجوية إلى لبنان .

في مطار عمان

ومطار عمان مطار رائع .. مبني بالحجر الأبيض الرخو .. الذي يوجد بكثرة في منطقته الشمال . وقد تجولنا ما أمكنتنا الفرصة المهيأة لنا .. ثم قيل لنا أن نعود إلى جوف سمكتنا الفضية الكبيرة الطائرة ، لنستأنف الحُصّة الثانية والأخيرة من الرحلة نحو الهدف المنشود الذي هو بيروت .. فدخلنا الطائرة جميعاً في شبه سباق إلى المقاعد ، فقد أنزلت بعض محمولها من الناس في عَمّان .. وأغلق بابها علينا بعد ما أزيح السُّلّم الأرضيُّ من جانبها .. وعجّتْ محركاتها من جديد صاحبة رزينة .. وما هي إلا هنيهة وإذا بها تعلو مرة أخرى في الجو بسرعة وبنظام واطمئنان . وعلونا فوق شواهدق جبال الأردنّ ، الدّكْنِ النّجْرْدِ .. ونحن متجهون صوب الشمال .. إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد بدا لنا مُقدّم الطائرة في ارتفاع شديد .. ثم اعتدل وقتاً ليس بالمديد ، ثم بدأ ينخفض مرة أخرى على قدر ارتفاعه .. وبعد نصف ساعة من إقلاعها من مطار عَمّان ارتفع للمرة الثالثة والأخيرة صوت المذيع الجهر الأثلغ يقول لنا : (إننا الآن على مشارف بيروت ، وإن علينا أن نَشُدَّ الأحزمة) .. وما استكمل حديثه أو بيانه العذب المحبب إلى النفوس حتى رأينا مناظر لبنان الجميلة تمر من تحتنا مر السحاب .. ورأينا غاباتها الصنوبرية الزاهية بجانبنا ، وداراتها المنسقة ، وطُرُقها المعبدة اللتوية ، ثم أظّت الطائرة أظّةً شديدة .. فننألتنا من ذلك بعضُ القلق ، وكان ذلك منها في

حقيقة أمره إيداناً بإمعانها في عملية الهبوط السريعة ، وإشعاراً غير مباشر بقربها من أرض المطار ، ثم شاهدناها تعلو مطار بيروت الدولي ، فإذا بيروت حاضرة البحر قريبة منا جداً ، وإذا هي تبدو لنا في ثيابها الزاهية وعماراتها الرائعة .. ثم هبطت الطائرة بالمطار .. مطار بيروت الدولي في رفق وسلام ونظام وأمان ..

ولقد حمدنا الله مرة أخرى على سلامة رحلة الذهاب وسألناه التوفيق والأمان في رحلة الإياب .

في بيروت

ومن مطار بيروت دخلت في جوف سيارة أجرة .. إلى فندق « عمر الخيام » .. وسيارات اجرة بيروت ذوات ألواح حمراء مستطيلة .. أما السيارات المملوكة للأفراد والمستعملة لركوبهم الخاص .. فهي ذات ألواح سود من نفس النوع .. والرقم المتسلسل يشمل جميع سيارات لبنان .. ولذلك لا غرو أن تركب سيارة أجرة رقمها مثلاً (٩٩٠٠٠) .. وترى سيارة خصوصية بجانبها ورقمها مثلاً (٩٨٩٩٩) .

وحيثما زرت البحرين منذ ثماني سنوات رأيت ألواح سيارات أجرتها ذات لون أصفر .. ولها رقم خاص ، وكذلك الشأن في ألواح سيارات أجرة المملكة السعودية ، وليكُلِّ ، أرقام خاصة ..

وذهبت بي سيارة الأجرة اللبنانية إلى الفندق مسرعة خفيفة . وقدّم لي السائق تعريفه الركوب الرسمية ، وهي التعريف التي يجب أن يتقيد بها كل سائقي سيارات الأجرة في لبنان ، ولا يستطيع أحدهم أن يخالفها مطلقاً . ولعل الحكومة اللبنانية فرضت عليهم تقديمها في هذا الموقف للركاب ، لئلا يحدث منهم أي تلاعب في استيفاء اجرة تزيد عن الاجرة المقررة رسمياً .

ومكثت بالفندق بضعة أيام ، واتصلت في الهاتف بالصدیق الشیخ
هاشم دفردار المدني . وبعد اجتماع سدید به استعدنا ذکریات الرحلة
الماضیة ، الی سافرنأ فیها معاً إلی الشام .. ونزلنا بفندق أمیة الخالی من
الضیوف ، ونظمنا به أبیاتاً خفیفة الروح والوزن أذكر منها قولنا :

فندقنا خال من الضیفان ولم یکن به سوی الشیخان
وقد تجولنا فی بیروت .. فی دواخلها وضواحیها ، تارة بالأقدام
وتارات بالسیارات ..

وبیروت مدینة قدیمة متجددة .. ترى فی شوارعها الداخلیة العمارات
الاثریة القائمة منذ مئات السنین .. وإلی جانبها المنشآت الضخمة الحدیثة .
وترى فی داخلها الشوارع المرصّفة بالحجارة الملّس السوّد المریّعة علی
غرار رصیف شارع سُوَیْقَة العتیق فی المدینة المنورة ، وفی ضواحیها
عمارات كبیرة جداً من أحدث طُرُزِ العمارات .. حتّی لکأنّها نواطح
السحاب ، خاصة فی ضاحیة « الروشة » . وأهل بیروت خاصة ، وأهل
لبنان عامة ، نَشِطُون فی الأعمال المالیة والاقتصادیة ، ویعرفون کیف
یحصلون علی النقد ، وکیف یفیدون من السیاحة والسائحین ، ومن غیر
السیاحة والسائحین ، لمصلحة بلادهم المتجددة النشطة المتعطشة إلی کل درهم
ودینار . وهم قد حازوا قصب السبق ، فی هذا المیدان . ، علی العرب ،
وَوَفَّقُوا بین المتعارضات ، والمتناقضات ، بلباقتهم وحسن کیاستهم
الاقتصادیة .. فصارت لبنان مُنتَجَعاً ، ومُتَفَسِّحاً ومُتَنَفِّساً للعرب
علی اختلاف نزعاتهم ومیولهم ومذاهبهم السیاسیة .. واللبنانیون أهل رحلات
واغتراب فی سبیل ابتناء المجد وامتلاك الثراء .. تماماً کما کان أسلافهم
الفینیقیون العرب .

وقد رأینا أن لا نضیع الوقت فی بیروت وحدها .. فبیروت علاوة
علی أنّها فی الصیف حارة الطقس ، ومكظة بالسکّان والمصانع ، فهي

ليست أجمل ما في لبنان .. لقد رأيتها بعين المتأمل فإذا هي « مُجَرَّد سفح جبل » متجهٍ وممتد إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، من سفوح جبال لبنان المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط ، أو من سفوح مجموعة من جبال لبنان رأي الفينيقيون أن يفيدوا منه فاتخذوا منه هذه المدينة الخالدة التي لها مزية الجمع بين مواطن الانسان الثلاثة : « الجبل والسهل والبحر » .. في آن واحد ..

وقد استأجرنا سيارة وذهبت بنا إلى الجبال .. إلى عاليه ، وإلى محمودون ، وإلى كيفون ، وإلى سوق الغرب ، وإلى بكفيا وإلى صوفر وغيرها . واجتمعت في كيفون بالصديق اللواء علي جميل . وفي عاليه بالشيوخ محمد نصيف .

وأمتعنا أبصارنا بمنظر الجبال الطَّبَعِيّ الأخاذ المتمثل في غابات أشجار الصنوبر ، وألوان أشجار الفواكه من تفاح وغيره .

الماء والكهرباء والأشجار .. هذه اللوازم الثلاث الحيوية المهمة في المخبر والمنظر تجدها في كل مكان ، من لبنان ، وأكاد أضيف إليها رابعاً : الطعامَ الشهِيّ اللذيذ الرفيع الثمن ، وخاصة لونين منه : السمك الطري .. واللحم المشوي . إن مطاعم لبنان تجيد جداً طهي هذين الطعامين اللذيذين . وفي بكفيا .. وهي القرية الجبلية التي كان أحمد شوقي الشاعر المعروف يأوي إليها للاصطياف فيها ، شَعَرْتُ بشيء من البَرْد ذات أصيل .. وكان معي الصديق هاشم دفتردار .. أما هو فقد تَقَلَّمَ فلم يشعر بهذا الشيء الذي يسري في أوصال جسمي متسللاً اليه من الجو الناعم ، اللطيف ، وإنما كان يتصبب عرقاً خفيفاً .

في متحف بيروت :

وعرضت لي فكرة زيارة متحف بيروت .. فذهبت اليه في ذات

١ أي صار متكيفاً بطابع الإقليم .

ضحوة ، وأخذتُ ورقة الدخول بدرهمات معدودة ، ودخلت المتحف ، وهو في دورين اثنين فقط ، وقد بُنيَ بالحجر الجيري الأبيض الذي يكثر وجوده في هذه النواحي الشامية ابتداء من مدائن صالح ومنطقة تيماء ، وإلى الأردن ، وإلى بيروت .

وقد تأملت محتويات المتحف .. من ألفها إلى يائها . فوجدتُ فيه آثاراً للفينيقيين وآثاراً للرومان ، وآثاراً لفرعون مصر ، وآثاراً لمدينة آثينة ، وغير ذلك . والشيء الوحيد الذي أعياني العثور عليه في المتحف هو آثار العرب والمسلمين .. لقد خلا المتحفُ في جميع أرجائه وزواياه من أي أثر من آثار الحضارة الإسلامية العربية الخالدة .. فهل هذا شيء متعمد؟ أو هو وليد المصادفة ؟ ولكأن هذه البلاد لم تَمُرَّ عليها أية فترة كان للعرب فيها ظل ظليل من مَدَنِيَّة زاهرة وارفقة ، لا يمثلها الآن سوى بقايا مساجدها الأثرية ومبانيها العتيقة .

فكرة للتنفيذ :

وقد استعرضتُ مع أحد أهل بيروت فِكْرَةَ غرس أشجار الصنوبر المنتشرة في كل مكان هنا ، في السهل والجبل ، وعلى الصخور والرمال والسبخ وتحدائنا في كيفية نموها وإثمارها .. فحدثني بأن غابة أشجار الصنوبر التي هي في طريق مطار بيروت ، فيما بينه وبين البلد ، هي من غراس محمد علي باشا والي مصر وجدّد ولايتها الخديويين . وقال لي : إنها كانت غابة كثيفة . ولما قررت الحكومة اللبنانية إيصال طريق الإسفلت ، بشقيه إلى المطار اضطرت عندها إلى قلع كثير من أشجار هذه الغابة الملتفة ، وسفلتة محلها . وهكذا مر بينها الطريق مستقيماً .. ولهذا ترى جانباً كبيراً منها في الجانب الأيمن ، وجانباً آخر ممائلاً في الجانب الأيسر من الطريق . وأضاف إلى ذلك أن أشجار الصنوبر تقبل

بطبيعتها الغرس في كل مكان .. في سهل وفي جبل وفي سبخة وفي رمل . وقال : إنها تعيش مئات السنين ، وتُشْمِرُ « الصنوبر » المعروف ولا تحتاج إذا كبرت إلى سقي ، لأنها تشرب من جذورها .. أما إذا كانت صغراً فلا بد من سقيها حتى تتأصل للكبر .. وهي تصلح في الجو الحار الرطب ، كجوى بيروت مثلاً ، وفي الجو البارد الخاف كجوى جبال لبنان .. وأراني غرسات غضة منه ، زُرِعَتْ على حافتي طريق المطار حديثاً ..

وعندها تذكرتُ جُدة ، وحاجتها إلى غابات تحف بها من بعيد تلتف من جوها الحار ، وتمتص بعض رطوبتها . وتزين منظرها الأجرد وتفيد المواطنين من ثمارها .. ولأن هذه الحصال كلها مجتمعة في شجر الصنوبر فما علي إذا كتبت هنا مقترحاً غرس الصنوبر بمدينة جدة وما يماثلها من مدن المملكة خاصة وأنه لا يحتاج إلى ماء كثير ولا عناية بالغة ، وأوراقه لا تتساقط مطلقاً .. إنها متماسكة ومتلاصقة ببعض دوماً ، وتشكل منظر « المظلات » الخضر المرتفعة في الآفاق ، من على قامات جذوعها المديدة حتى لا تكاد أشعة الشمس تنفذ من تحتها أو من خلالها إلى الأرض التي تظللها بظلالها الوارفة الناعمة .

وقلت في نفسي أيضاً : لعل استجابةً تحدث من الجهات المختصة للاقتراح .. وأملني وطيد في أن تعمل على جلب أغراس شجر الصنوبر المثمر الظليل ، بدلاً من هذه الأشجار العقيمة ، « اشجار النيم » لتظلل بها ، ولتفيد منها في ثمارها ، والاقتباس المفيد السليم للصالح العام هو أساس الحضارة ونبراس التقدم في كل بلاد العالم قديماً وحديثاً ...

النشاط الأدبي :

وعَجِبْتُ للبنان ، وعجبتُ منه .. فهو على شدة انهك أهله في

الماديات وغرقهم فيها إلى آذانهم ، لم يُطَلِّقُوا الأدب ولم يعافوا ورود مناهله العذبة . إنَّ نشاطهم في هذا الجانب مشبوب وحماسيٌّ بالغ . إن إذاعة لبنان فيها أركان أدبية مصفاة عامرة ولَذَّةٌ ورتيبة كُلُّ يوم .. وصحافة لبنان لا بدَّ أن تحمل أعدادها فكرة أو أفكاراً أدبية للقارئ العربي ، وتصدر في لبنان الآن المجلاتُ الأدبية الخالصة ، وفي طليعتها مجلة الأديب لصاحبها أليز أديب .. وكثير من الكتب الأدبية واللغوية والعربية تُطَبَّعُ اليوم في بيروت .. وذلك كله يدل على ذوق أدبي عميق ورفيع .

بل إن بيروت تسعى جاهدة لتصبح « مطبعة الشرق العربي الحديث » وإن لدى لبنان الإمكانيات التي تهيئها لهذه الفرصة السانحة .

وفي بيروت رغب إليّ ابراهيم خوري ، كاتب « ركن الأدب » في مجلة الجمهور الجديد الأسبوعية في أن أدليَ إليه بحديث عن أدب المملكة وأدبائها .. ففعلتُ ذلك بمحضر من اليز أديب .. وواعد هذا بأن ينقل الحديث برمته إلى مجلته بعد نشره بالجمهور الجديد ..

إذاعتنا :

ومُنْأَسِب أن أذكر هنا أن إذاعتنا السعودية لم أتمكن من الاستماع إلى صوتها الحبيب في بيروت برغم التحريات الدقيقة التي قمتُ بها عدة أيام^١ .. وهذا بخلاف الإذاعات العربية الأخرى فهي مسموعة في بيروت ، ما قرب منها وما كان أبعد كإذاعة الكويت مثلاً .

١ كان ذلك سنة ١٣٨٣ هـ - ١٨٦٣ م أما الآن فان صوتها مسموع في بيروت بوضوح .

وعجبت من لبنان في ناحية أخرى غير ناحية الأدب . وهذه الناحية هي الناحية السياسية الخاصة والعامة .. فإن وزارة خارجيته قد أُطلقَ عليها اسمُ : « وزارة الخارجية والمغتربين » .. ومعنى هذا أن اللبنانيين الذين اضطرتهم المقادير وظروفُ المعيشة إلى الاغتراب في الأمريكتين ، وفي إفريقية وغيرها من بلدان العالم لاتزول عنهم صفة اللبنانية ولاجنسيتها مهما يَطلُّ أمد غيابهم ، ومهما يكتسبوا من جنسيات أخرى .. إن لهم حق العودة والمواطنة وحقوقها كاملةً بمجرد عودتهم إلى لبنان ، واستقرارهم في ربوعها . لأنهم محسوبون على كل حال جزءاً لا يتجزأ من لبنان ..

ويُخَيَّلُ إليّ ، أن هذه الظاهرة تكشف عن سعة الأفق السياسي والوطني والاجتماعي اللبناني . فحبذا لو أرسيت هذه النظرية القانونية لدينا وعمل على ضوءها لحفظ كيان وحقوق المواطنين المماثلين لأولئك المغتربين عندنا ، وللإفادة من إمكانياتهم بصفة مستديمة . ومن هذا القبيل ما نلمسه - مُقَدَّرِينَ - من أن الحكومة العربية السعودية قد قررت إعادة السعوديين « المنقطعين » في بلاد الغرب إلى بلادهم على نفقتها ، هم وذرائعهم وأسَرهم مهما يتناسلوا ويتكاثروا ما داموا محافظين على جنسيتهم السعودية .

ماء بيروت :

ولقد لاحظتُ أن ماء بيروت ليس خفيفاً كل الخفة ، ولا عذباً تام العذوبة .. إنه لا يخلو من بعض ملوحة ، ولم أطلع على مصدر ذلك وأسبابه ، ولكنه أمر ملموس ، وهذا بعكس الماء في جبال لبنان ، فهو مثله في سورية وفي المدينة ومكة وجدة . إنه عذب خفيف .

ولقد أقر نظرية ثِقَلِ ماء بيروت ونقصِ عدوبته ، بعضُ البيروتين والمتسبِّرين .

إلى سورية

لا بد في هذه الرحلة أيضاً من زوَّرةٍ لسورية ، ومن شربةٍ ماء من نهر بردى .. وصلاةٍ في الجامع الأمويّ ، وجولةٍ في أسواق دمشق ، وروئيةٍ «المعرض الدولي» - هكذا صرخ بي الضمير .. فقررت فوراً تلبيةً ندائه المصمم .

وبرغم التحذيرات التي وُجِّهَتْ إلينا في لبنان حيال زورتنا لسورية فإن العزم المصمم لم يُصْنَحْ مطلقاً إلى صوت هذه التحذيرات .. المرسل من أصدقاء وغير أصدقاء ..

وهكذا امتطينا سيارتنا الصغيرة : هاشم دفتردار وأنا ، بعد ظهر يوم الاثنين واتجهنا صوب دمشق . واستقبلتنا عمليات التفتيش الجمركي المعقدة في حدود لبنان وسورية معاً برغم شعار الوحدة العربية المرفرف فوقنا عند حدود سورية ، ودخلنا دمشق قبيل العشاء فاذا بها متألّثة الأضواء كاملة الزينة والبهجة .. وزاد أضواءها اشراقاً ما نصب على المعرض بجوانبه من المصابيح الضخمة المتوهجة .

ونزلنا في فندق «سمير» ، وهو فندق حديث البناء يطل على ساحة المَرْجَةِ وعلى المعرض من بعيد وعلى شارع جمال باشا المعروف . وبعد أن وضعنا حقائبنا في غرفتنا بالطبقة الخامسة من الفندق هبطنا بالمصعد إلى المعرض ، وتجوّلنا في شوارع دمشق ، تارة على أقدامنا ، وتارة

على سيارة ، ثم تناولنا عشاء عريباً لذيذاً ، في مطعم فخم قريب من الفندق الذي نزلنا به ، وقد عُلِّقَتْ على جدرانها آيات قرآنية ، وكلمات حِكْمِيَّةٌ ، باللغة العربية الفصحى ، وبالخط العربي الجميل ، وهذا بعكس ما كنا نشاهده في مطاعم بيروت المماثلة من نقوش الصّور والتماثيل الغريبة في المطاعم الفخمة ، وفي غيرها .

ثم ذهبنا إلى المعرض .

واشترينا ما أردنا شراءه من حاجيات ، ولم نُقَابِلْ بسؤال من أيِّ كان .. مع أن جوازاتنا كانت في جيوب معاطفنا ، من باب الاحتياط للسين والحجم المرتقِبَيْنِ بين كل لحظة وأخرى ...

ثم قَفَلْنَا راجعين إلى بيروت ، آمنين مطمئنين ، من نفس الطريق الذي سلكناه إلى دمشق ، حامدين الله جل وعلا على نجح الرحلة الشامية وسلامتها من الأكدار .

وحينما تمت العودة إلى لبنان كانت لنا فرصة طيبة لمزيد من التنقلات والتزهات ، استجماً . ففي كل أمسية كنا نوّمْ أية جهة نريد إما بالسيارة أو على الأقدام ..

الفَهَّارِسُ

فهرست الاعلام

١٠٣	ابراهيم رفعت		
٩٤	ابن أبي البداح	١٦٨	آل باناجه
٧١	ابن الأثير	١٦٨	آل الجمجوم
٢٨٠	ابن أبي حجلة	٢٩٨	آل خليفة
١٦٢، ١١	ابن بشر	٢٣٤	آل الرشيد
١٠	ابن بطوطة	٢٣٦	آل رمان
٧٨	ابن بكير	١٦٩	آل الزاهد
١٠	ابن بليهد	٤٩	آل الزبير
١٦٩، ١٠	ابن جبير	٢٣٦	آل سلامة
٢٨٣، ٢٧٣	ابن الجوزي	٢٦	آل العاص
٢٧٧	ابن حبيب	٤٩	آل مروان
٢٧٧، ٢٧٥، ٥٠	ابن خلدون	٢٦٦، ٢١، ١٩	ابراهيم (النبي)
١٥٤	ابن رشيد	٢٧٢، ٢٦٩، ٢٦٨	
٥١	ابن زبالة	٢٧٧، ٢٧٥، ٢٧٣	
٧٨	ابن الزبير	٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٣	
١١٢	ابن السكيت	١٧٥، ١٧٤	ابراهيم بن معمر
١٠	ابن سيده	٣٣٢	ابراهيم خوري

٥٩	أحمد بن عبد العزيز	١٠٤	ابن شيخه
٦١	أحمد بن محمد الوضاح	٢٨٣، ٢٧٣	ابن كثير
١٥٩	أحمد سليمان داود	٦٧، ٢٠	ابن عباس
١٠	أحمد رضا	٦٧	ابن عبيد
٢٦	أحمد شطا	١١	ابن غنام
٣٣٠	أحمد شوقي	١٧١، ١٧٠	ابن المجاور
٩٩	أحمد الطيار	٩٨	ابن مسلم
١٧٣	أحمد فخري	٩٩، ٩٨	ابن مضيان
١٠٧، ٦٨	أحيحة بن الجلاح	٥٠	ابن النديم
٢٧١	أدريس (النبي)	٢٧٦، ١١٨، ٧٤، ٧١	ابن هشام
٣١٧	أدوار غالب	٤٩	أبو الأعور السلمي
٢٢٥، ٢٢٤، ١٩٩	أديب صقر	٧١	أبو نائلة
٢٠٥	إرم	٢٧٨	أبو زيد
٣٨٣	أسحق (النبي)	١٣٩	أبو سليمان علي بن طالوت
٢٥٥	أسعد	٢٨٧	أبو العلاء المعري
١٩٩	أسعد خليل	٣٨، ٢٠	أبو الوليد الأزرق
٢٠٠، ١٩٩	أسعد شيره	٢٧٢	الأجرد
٢٩٦، ١٩١	الاسكندر	٦٩	إحسان النص
٤١	الاسكندري	٤٣	أحمد (الرسول)
٥٧	الاسكافي	٢٥٥	أحمد (التمودي)
٢٠، ١٩	إساعيل (النبي)	١٣٣،	أحمد بن أيوب الأهوازي
٢٤٧، ٢٤٣، ١٠	الاصطخري	١٤٠، ١٣٨، ١٣٦	
٢٩٦	أفروdit	١٣٥	أحمد بن طيفور
٣٣٢	أليبر أديب	١٣٧،	أحمد بن عباس بن أحمد
٢٤٠، ٤١	الألوسي	١٤٢، ١٣٨	

٥٠	بغا	٢٧١	الياس (النبي)
٢٨٣، ٢٧٣، ٢٦٨	البغوي	٢٣٣، ٢٢٦، ١٤٣	امروء القيس
٣٠٠	بكر بن وائل	٤٢	أمامة
٨٣	بلال المزني	٢٥٥	أمية
١٧٧	بنو إسرائيل	١١	امين مدني
٥٠	بنو الأصفر	١٠٦، ٦٨، ٤١	الأنصار
٩٧، ٨٤، ٣٦	بنو أمية	٣١١، ٣٠٠	أهل الكهف
٥٠	بنو باهلة	٢٥٥، ٢٥٤، ١٠٧	الأوس
٣١٣	بنو الحارث	٣٩، ٣٨	إياد
٢٩٤	بنو خالد	٢٥٥	لياس
٩٦	بنو سعيد	٢٦٩	أيوب (النبي)
٦٢، ٥٨، ٥٦—٤٩، ٤٧—٤٥	بنو سليم	٣٠٤	أيوب
٤٩	بنو عامر	١٨٠	أيوب صبري
٥٤—٥٢، ٥٠، ٣٠	بنو العباس		ب
٥٧، ٥٦		٩٩	بادي
٥٧	بنو عثمان	٢٥٥	بارح
٢٨٠	بنو عطية	٩٧	البتنوني
٢٠٥	بنو غرة	٢٧٧	بئر
٤١	بنو قيلة	٢٧٢	بختنصر
٧٥، ٧٢—٧٠	بنو النضير	٩٩	بداي
٤٩، ٤٨، ٣٦	بنو هاشم	٣٥	بركهارد
٢٧٨	بول	٢٤٧، ١٦٩	البشاري
		٢٣٠، ٢٠٥، ١٦٩	بطرس البستاني
		٢٣١	
٣٠٥، ٧٧	تبع	٢٩، ٢٠، ١٨	بطلميوس

ت

٢٤٥، ٢٣، ١٠	جورجي زيدان	٤٩	تماضر
٢٨٣، ٢٦٢		٢٨٧، ٢٧٣	التوراة
١٥٤	جويسر	٥١	تويتشل
٢٧٩	جهينة	ث	
١٧٣	جيبس	١٧٦، ١٧٥	ثمود (الشموديون)
١٤٧، ١٤٦	جيمس ويللارد	٢٢٦، ٢٣١، ٢٤٠—	
		٢٤٢، ٢٤٥—٢٤٨	
		٢٥٢، ٢٥٤—٢٥٧	
		٢٦١—٢٦٣، ٢٦٦	
	ح		ج
٣١٨	الحارث الأول		جابر بن عبد الله
٢٣٢	الحارث بن حلزة		الححاش
٤٦	الحاف		جذام
٢٩٣، ١٦٣، ١١	حافظ وهبة	٢٧٨، ٣٩، ٣٨	جذع الغساني
٢٩٩		٤٩	جدهدد (صنم)
٢٠١، ١٩٩	حبيب محمود أحمد	٢٧٦	جديس
٢٣٦، ٢٠٧		٢٣٤	جرهم
١٩٠، ٩٩، ٤٦	حرب (قبيلة)	٢٥٥	جعفر البرزنجي
٢٥٥	حزم	٢٥٤	جلال
١٨٧	حزيمة	٢٨٤	جمعة (جمأت)
٢٧١، ٢٣٨، ٦٩	حسان بن ثابت	١٠٤	جواد علي
٩٩	حسن قلعي	٢٥٥	
٢٣٥، ٥٧	حسين بن علي (الملك)	١٨٣	
١٩٩	حسين كاتب	١٠، ٢٤٦—٢٤٨	
٢١٥، ١٩٩	حمد الدوسري	٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٧—	
١٧٨	حمد العييدي	٢٦٨، ٢٧٦، ٢٧٧—	
٩٩، ٩٨	حمزة خليل	٢٨٣—٢٨٥	

ذ	٣٠٦،٦٤	حمير
١٧	٢٣١	حنا
٣٠٦،٢٧١،١٩١،١٨٧	١٧٠	حنظة
٢٧١	١٧١،١٧٠،١٦٩	حواء
٢٧٢	٣١٧	الحوريون
٢٥٧،٢٥٦	٢٥٧،٢٥٦	حيقل
ذو الكفل (النبي)		
ذو مهلم		
ذير		
ر	خ	
٣١٨	٢٩٦	خالد بن الوليد
١٩٠	١٠٢	خالد باشا
٢٥٤	٤٩	خزاعة
١٦٢	٢٥٤	الخزرج
١٤٩،١١٢	١٢٥	الخضر
١٩٣،٢٨،١٠	٤٩،٤١،٣٩	الخنساء
٢٥٥،١٨٢	٤٤	الخوارج
٣١٠،٢٣١	٢٧٢	خولان
١٠	١٣٥،٥٦	خير الدين الزركلي
٢٣٥	٢٧٤،٢٧٣،٢٧٠	
٢٥٨		
رفيق وفا اللدجاني		
رمان بن حطيم		
رمضان		
ز	د	
٢٥	٢٥٦	دابر
٤٩،٢٩،٢٨	٢٥٤	داحس
٢٧٦	٣٠٨	دقيانوس
٩٢	٢٤٥	دوتي
زبيدة		
الزبير		
زيد بن حارثة		
زيد بن عاصم		

١٤١	زيد بن عبد الله المعتصم	٢٥٠، ٢٧٠، ٢٨٠، ٢٧٧	السمهودي
١٨٢	ساكت بن يشعن	٩٠، ٩٤، ١٠٥، ٢٤٧، ٢٧٦	السموأل
٢٣١، ٢٠٥	سالم	٢٣٣	سنوك هرجرونه
١٧٤	سبأ	١٨١	السهيلي
٢٧٤، ٢٤٨	سرجون الثاني	٢٧٧	سيبويه
٢٣٤	السعادات	٢٧١	السيوطي
٢٥٥	سعد	٢٩٤	ش
٤٤، ٤٢، ٤١	سعيد الأفغاني	٥١	شكيب الأموي
٢٨٣	سعيد بن جبير	ص	صالح (النبي)
١٢١	سعيد بن حمد العجماني	١٧٠، ٢٤١، ٢٤٤	صالح (النبي)
٩٥، ٤٣، ٣٦، ٢٦	سعيد بن العاص	٢٤٨، ٢٦٥، ٢٧١	صالح (النبي)
٩٧	سعيد بن عمر	٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٨	صالح الخامد
١١٣	سعيد بن عمرو	١٧٠	صالح شبكشي
١٢٥	سعيد العجمي	٦٣	صالح قزاز
٢٣٤	سلم	٢٩	صباح الأول
١٥٥	سلمان بن عبد العزيز (الأمير)	٢٩٨، ٢٩٤	صخر
٤٨	سلمان الفارسي	٣٩	الصلبة
٢٣٤	سليح	٢٣٤	الصفويون
٥٨، ٤٩، ٤٧، ١٨	سليم بن منصور	١٠	صالح الدين بن أيوب
١٣٢	سليم حسن	٣٠٣	صالح عبد القادر البكري
٧٦	سليمان السعدي	٢٩٧	صلم
٣٠٩، ٢٦١، ١٠	سليمان موسى	٢٥٥	صموئيل
٣٢١		٢٣١	صهيب
		٢٥٥	

عبد الرحمن الطيب الأنصاري ١٢٩،	٢٧٧	الصيعمري
٢٨٤، ١٥٧، ١٣١		
عبد الرحمن اليوسف ١٦١، ١٥٩		ض
٤٢ عبد شمس	٢٣٤	الضجاجة
عبد العزيز آل سعود (الملك) ٢٣،	٢٣٤	ضجعم بن سعد
٣٣، ١٥٤-١٥٦،	٢٧٩	الضفير
٢٣٥، ٢٣٨، ٣٠٠		
عبد العزيز ٧٨		ط
عبد العزيز الإمام ٩٩	٢٣١	طايح
عبد العزيز بن ابراهيم ٢٤	٢٨٣، ٢٧٣، ٢٧٠، ٢٦٩	الطبري
عبد العزيز خليل ١٩٩	٢٣١	طريف
عبد العزيز خان ١٠٢	٢٥٤	طسم
عبيد القليان ٢٠٨	٢٣٠	طي
عبد الكريم بن رمان ٢٣٥، ٢٢٧،	١٣٦، ١٣٤	طيفور بن باز الخراساني
٢٣٦		
عبد اللطيف الطلق ٢٣٩، ٢٣٦		ع
عبد الله بن سعد المرتضى ١١٤	٢٤٢-٢٤٠، ٢٠٥	عاد (عاديون)
عبد الله بن سعود (الإمام) ١٥٩-	٢٥٩، ٢٥٣، ٢٤٧	
١٦١	٣٠٥، ٢٦٦، ٢٦١	
عبد الله بن عمر ١٠٢	١٦٨	عارف بك
عبد الله بن طبيعة المصري ٢٨٧	٣٠٨	عبادة بن الصامت
عبد الله الخابر الصباح ٣٠٠، ٢٩٩	١٠٤	العباسي
عبد الله الجعفري ٩١، ٩٠	٤٩	العباس بن مرداس
عبد الله السليان ٣٣	١٧	عبس
عبد الله الشنيفي ٣٣٦، ٢٢٨	٢١١	عبد الرحمن الحمدان

٣٢١، ٣٠٤	عز الدين التل	١٦٨	عبد الله نصيف
٢٥٥	عزيز	٦٢	عبد المجيد شبكشي
١٨٦،	عسير (القبيلة والأرض)	١١٩	عبد المحسن الكاظمي
٣٠٢، ٢٤٧، ١٩٥—١٨٨		٣١١	عبد الملك بن مروان
٢٥٥	عفير	٢٧٨، ٢٧٥،	عبد الوهاب النجار
٢٧٩، ٢٠٣	العقدة (العقيدات)	٢٨٧، ٢٨٣، ٢٨٢	
٢٥٥، ٧٥—٧٣	علي	٢٧٩	العبيد
١٤٩	علي باكثر	٢٤٢	عبيد بن شرية الجرهمي
٤٦	علي بن الحاف	١٣٥	عبيد الله بن أحمد بن طيفور
٥٦، ٥٤، ٥٢، ٥١	علي بن عيسى	٢٨١	عبيد مدني
٥٩		٢٠٥	عبيد
٢٠٣	علي بن مهود	٤٩	عتبة بن فرقد
٣٣٠	علي جميل	٢٥٥	عثرسم
١٤٢	علي منصور	٦٩، ٣٥، ٣٠، ٢٩	عثمان
١٠٢	عمر إزميري	٩٩	عثمان أبا حسين
٨٤، ٨٣، ٤٩، ٢٧	عمر بن الخطاب	٩٨	عثمان بن بشر
٢٠٦، ١٦٩، ١٣٨، ١٠٣		٢٦	عثمان رقيقي رستم
٣٩	عمرو بن الشريد	٢٨٠، ٢٧٩	العجمان
٩١، ٩٠	عمر بن عبد الله بن عروة	٢٤٩	العجلاني
٧٨	عمر بن عبد الله	٢٣٧، ٢٠١، ١٩٩	عدنان حبيب
٤٢	عمر بن كلثوم	٩٣	عدي
٣٢٨	عمر الخياط	٢٧٩	عرام
٢٣٠، ١٧٢، ١٦٣	عمر الديراوي	٩٧، ٩٤، ٩٣، ٩١	عروة بن الزبير
٢٣٣		٢٠٢	
٢٩٧، ٢٥٠، ٢٤٧	عمر رضا كحالة	٢٧٦، ١١٤—١١٢	عزة

٣٢٦، ٣١٤، ٣١٣	فؤاد الخطيب	١٩٣-١٩١، ١١	عمر رفيع
٣٠٦، ٢٩٧	فارس (الفرس)	١٨٠	عمر السقاف
٢٩، ٢٨	فاطمة	١٨١، ١٦٨	عمر نصيف
١٨٨	الفتيحا	٩٣	عمر بن تميم
٤٦	فران بن علي	٤١	العناني
٢٢٨، ١٦٨	فرج يسر	٢٩٨، ٢٧٩، ٢٠٦، ١٨٧	عنزة
١٤٧	الفرجاني	٣٠٠	
١٧١	الفرس	٢٠٥	عوص
٤١	فريد وجدي	٢٧٧	عيسى (النبي)
٤٣	الفرقان	٢٧٥	عيصو
١٣٣	الفضيل بن ابراهيم	٢٧٥	عيفاء
١٧٤، ١٧٣، ٢٧٢، ١٦٣	فلبي	٢٧٥	عيفين
٢٣٠، ٢٢٧، ٢١١، ١٧٧			غ
٢٣٩، ٢٣٥، ٢٣٣		٩٨	غالب
٢٦٠	فلنربيري	٢٥٤	الغبراء
٢٣٧، ٢٣٦، ٢٢٩	فهد الطلق	٣١٣	غزوة بني لحيان
	ق	٤٨	غزوة الخندق
١٤٠-١٣٨	القاسم بن محمد بن عيسى	٢٣٤	غسان
٥٤	القاهر العباسي	٤٨، ٤٧، ١٧	غطفان
٢٠٥	قانية	٢٣٥	غورماني
٢٨٦، ٢٧٧	القبط		ف
٢٧١	قحطان	١٩١، ١٨٩، ١٨٧، ١٠	فؤاد حمزة
٢٤٨، ٢٤٤، ٢٤٠، ١٠	القرآن	٢٤٥، ٢٣٤، ٢٠٥، ١٩٣	
٢٧٢، ٢٦٩، ٢٦٤		٢٤٧	

٢٣١	كميل	٥٠	القرامطة
		٩٩	قرناس بن عبد الرحمن
ل		٣٠٦، ٧٨، ٤٨، ٤٠، ٣٩	قريش
٢٥٥	اللات	٤٠—٣٨، ٣٧	قس بن ساعدة
٢٦١، ٢٦٠، ١٠	لأنكستر هاردنج	٢٣٤ ٤٦	قضاة
٣٠٨، ٢٦٤، ٢٦٢		٢٧٥	قنطورا
٣٢١، ٣٠٩		٢٩٨	قيس
٢٧٩، ٢٤٨	لحيان (الحيانيون)	٢٥٥	قيس بن وائل
٢٨٨، ٢٨٤			
٢٧٥، ٢٧٤، ٢٦٥	لوط (النبي)	ك	
٢٨٨، ٢٧٧			
٣٢٠	الليمور	٢٣٧	كارل برنت
		٢٣٠	كارل بروكلمان
م		٢٣١	كاملة
		٢٥٥	كاهل
٣٠٦	مأجوج	٢٧٢	الكبار
٥٦	المأمون العباسي	١١٤، ١١٣، ١١٢	كثير بن العباس
٩٣	مازن	٣٠٧، ٢٧٦	
٢٥٥	مالك	٢٥٥	كعب
٣١٨	مالك (الثالث)	٧١، ٣٦، ٢٦	كعب بن الأشرف
٦٣، ٦٢، ٥٢	مبارك السلمي	٧٥، ٧٣	
٢٩٩، ٢٩٨	مبارك الصباح	١٧	كعب بن كلاب
٤٩	مجاشع السلمي	٢٧٤، ١٧٦	كلاسر
١٠	المجمع اللغوي	٢٣٤	كلب
٢٧٧	المحضر بن جندل	٢٤٦	كمكم بنت وائلة

١٧٩	محمد صالح باعشن	محمد (صلى الله عليه وسلم) ٢١ ،
١٠٢	محمد صالح حماد	١١٣، ٨٣، ٦١، ٤٩
١٧٩	محمد العروسي	٢٤٢، ١٣٣، ١١٤
٢٧٥	محمد عزت دروزة	٣٠٥، ٢٦٥
٣٣١، ١٦٣	محمد علي	محمد ابو عيد الحيدري ٢٠١، ١٩٩ ،
١٨٠، ١٧١، ١٦٩	محمد نصيف	٢١٧
٣٣٠، ١٨١		محمد اسماعيل ١٨٠
٢٤٧	محمد النمكاني	محمد باسرا حيل ١٧٩
٣٢٠، ٣٠٩	محمود العابدي	محمد بن سعود (الأمير) ١٦٠
١٨٠	محمود عارف	محمد بن عبد الله البكري ٧٨
٤٤	المختار بن عوف	محمد بن عبد الله الحسيني المسدني
٢٨٤-٢٧٢، ٢٦٩-٢٦٥	مدين	(كبريت) ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٠
٢٨٩-٢٨٦		محمد بن عبد الوهاب ١٦٣، ١٦٠ ،
٢٦٨، ٢٤٠، ١٠٥	المراغي	١٨٤
٢٠٦	مرحب	محمد بن عريعر ٢٩٤
١٢٦	مرزوق السحيمي	محمد بن مرتضى ٥٩
٤٩	مروان	محمد بن موسى حفيد المأمون ٥٦
٢٧٩، ١١٢	مزينة (قبيلة)	محمد بن موسى المنجم ٣٠٧
١٢٧	مسعود قاضي	محمد الحافظ ٢٧
٢٧٧، ٦٩	المسعودي	محمد حسين هيكل ٤١
٢٥٧، ٢٥٦	مسيل	محمد الخلف ٢٣٩
٢٥٧، ٢٥٦	مصدر	محمد زهير الشاويش ٤٣
٢٠٣، ٩٣، ٩٠	المصطفى (ص)	محمد سرور الصبان ٣٣
٢٤٣	مصطفى البابي الحلبي	محمد السنوسي ١٧٦
٢٤٨	مصطفى مراد الدباغ	محمد صادق ٢٨٢، ٢٨١

١١٣	موسى	٥٩	مصعب بن جعفر
٢٨٣	موسى	٣٩	مضر
٢٥٧، ٢٥٦	موها	٤٧	مضر بن نزار
٢٠٥	مهلايل	١٠٥	المطري
٢٧٠	ميكائيل	٤٥	مطير
		٢٤٢، ٢٣٤، ٩٧، ٨٣، ٣٩	معاوية
ن		١٧٣	معتوق باحجري
		٤٩	معن السلمي
٤٧	نابغة بني ذبيان	٢٧٦، ٢٧٤، ١٨	المعينيون
٤٣، ٤٢	النابغة الجعدي	٥٩، ٥٦، ٥٤، ٥١	المقتدر العباسي
٢٣١	ناتان	٢٧٢	المقدم بن حضور
٢١٨، ١٩٩	ناجي حامد	٢٥٧، ٢٥٦	ملزم
٢٣١، ١٤٢	ناصر	٢٥٥	ملك
، ٢٤٥	النبط (الأنباط ، النبطيون)	١٦٢	مانع بن ربيعة
، ٣١٢، ٢٦٣—٢٦٦، ٢٦١		٢٥٥	مناة
، ٣٢١، ٣١٩، ٣١٨، ٣١٧		٤٣	المنذر بن محرق
٣٢٢		٢٥٨، ١١٢، ٣٥، ٢٦	المنهل « مجلة »
٢٣٧، ٢٣٠	نبونايدس	١٦٠	منير العجلاني
٢٢	نزيه العظم	٢٥٧، ٢٥٦	موجب
٢٧٢	النسيئ	٢٥٧، ٢٥٦	موجر
، ١٨٣، ١٨٢	نسيب وهيبة الخازن	٢٥٧، ٢٥٦	مورد
٢٣١		٢٤٥	موزيل
٢٤٠، ٦٨	نشوان الحميري	، ٢٧٣، ٢٦٨، ٢٦٧	موسى (النبي)
٢٥٥	نعرجد	، ٢٨٣—٢٧٨، ٢٧٦	
٣٨، ٤٣	النعمان	، ٣٠٥، ٢٨٧—٢٨٥	
		٣١٥	

٣٨	هوازن	١٩٩	نعمة الله
٢٥٦	هوبر	٢٣١	نمر
٢٦٥، ٢٤١، ١٧٠	هود (النبي)	٢٥٥	نهي
٢٧٣، ٢٧١، ٢٦٦		٢٦٦، ٢٦٥، ٢٠٥	نوح (النبي)
٢٨٨		٢٨٧	
٢٥٦	هويل	٣١٨	نيرون
١٤٦، ١٨، ١٠	هيرودوتس		
٥٠	هيم السلمي	ه	
		٢٠، ١٩	هاجر
و		٣٣٠، ٣٢٩	هاشم دفتر دار
		١٩٠	هاشم النعمي
٣٠٨، ٥٠	الواثق	٥٤	هارولد بوين
٢٥٥	ود	١٦٩، ١٣٥، ١٣٤	هارون الرشيد
٢٤٧	ولد علي	٣١٥	هارون (النبي)
٢٦٠	ولكم	٦٣	هشام شبكشي
٢٥٢	وهب بن وفد	٢٤٧	هتيم
		٣١٢، ٢٨٤، ١٩٠	هذيل (قبيلة)
ي		٢٩٧	هرمز
٣٠٦	يأجوج	٣٠٥، ٢٧٦، ٢٧٤	هكسوس
١١٥، ٧٦، ١٠	ياقوت الحموي	٢٥٥	هلال
٢٥٢، ٢٥١، ٢٣٠، ١١٦		—١٨٧، ١١٦، ٤٧، ١٠	الهمداني
٣١٣، ٣٠٨، ٣٠٧، ٢٧٨		٢٥٤، ١٩٣، ١٩١، ١٨٩	
٣١٩		٢٧٦، ٢٧٤—٢٧٠، ٢٦٨	
٢٠٥	يثر	٣٠٦، ٢٨٥، ٢٨٤، ٢٧٨	
٢٨٧، ٢٧٠	يثرن	٤١، ٣٩	هند بنت عتبة

٢٧٨-٢٧٦، ٢٧٥	يوسفوس	٩٣	يحيى بن عروة بن الزبير
٣٠٦	يونان	٣٠٧	يزيد بن عبد الملك
٢٠٨، ٢٠٦، ٧٢، ٧٠	يهود	٥٠	يزيد السلمي
٢٣٠، ٢٠٩		٢٥٥	يعلى
٢٧١	يونس (النبي)	٣٠٥، ١١٤	يوسف

فهرست الاماكن

٦٩	أطم بني ساعدة		
١٠٧	أطم الضحيان	٣٣١	آثينة
٢٨٠	أعين القصب	٢٩٩	الآستانه
٥٠	أفريقية	٣٠٩	آسية
٢١	اكليسيا	١٩١، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧	أبها
٢٨٤	أمج	٣٠٦، ١٩٥	
١٧٥	أم الدبة	١٨٨	أتانة
٢٣٧	أمريكا	٢٤٣	الأثالث
٤٨، ٤٧	أم صبار	٢٤٨	أجا
٣٠٨، ٢٩٤	الأندلس	٢٠٩، ١٢٧، ٢٤	أحد (جبل)
١٧٩	اندونيسيا	٣٠٥	الأخلود
٢٤٢	الأهرام	٣٠١، ٢٦١، ٢٦٠، ٩	الأردن
١٨٨	الايداع	٣٠٩، ٣٠٨، ٣٠٥، ٣٠٣	
١٧٩	إيران	٣٣١، ٣٢٧، ٣٢١، ٣١١	
٢٨١، ٢٦٨	الأيكة	١٨	أريتريا
		٦٩	الأشعر (أطم)

٤٥	البرزة	ب	
٢٨	بركة الزبير		
٢٩٠٢٨	بركة ماجل	٢٩٧	الباطن
٤٦	البريرته	٢٨	بشر أريس
٢٩٦	بريطانيا	٢٤٤	بشر ثمود
١٧٨٠٢٩	البريكة	٣٣	بشر جبير بن مطعم
٢٩٩٠٤٩	البصرة	٢٥	بشر رومة
٢٨٤	بطن غران	٦٨	بشر شميلة
٢٥٤	بعث	٩٧٠٨٢٠٢٧	بشر عروة
١٣٥٠٥٤٠٥١٠٥٠٠١٢	بغداد	٧٨	بشر علي
٢٩٩٠٢٧٩		٢٣٠٠٢٢٩٠٢٢٧	بشر هدايج
١٧١	البغدادية	١٨٨	بالأحمر
٢٦٤—٢٦٢٠٢٤٥	بطرا (البتراء)	١٨٨	بالأسمر
٣١٩٠٣١٦—٣١٢		١٠٤	الباب الشامي
٣٢٢٠٣٢١		١٦٩	باب شريف
٢١٠٢٠	بكة	٧٧	باب العنبرية
٣٣٠	بكفيا	٣٠٦	بابل
١٨٩	بلاد بالأحمر	٣٣٠٠٣٢٧	البحر الأبيض المتوسط
١٨٨	بلاد بني ربيعة	٢٦١	البحر الميت
١٨٨	بلاد بني شعبة	٢٩٧٠٢٩٥٠٥٦٠٥٠	البحرين
١٨٩	بلاد بني شهران	٣٢٨٠٢٩٩	
١٨٨	بلاد قحطان	٣٣٠	بمحمدون
٢٦	البياضية	١١٥٠٥٠٠٤١٠٣٩	بدر
٢٤٥	بيت الشيخ	٢٤٦٠٢٤٥	البرج
٥٩٠٥٢٠٥١٠٥٠٠٢٠	البيت العتيق		

١٠٤	ثنية عثعث	٣١٣	بيت المقدس
		٢٤٧، ٢٤٢، ٢٧٢، ١٦٩	بيروت
		٢٨٤، ٢٧٧، ٢٧٥، ٢٥٠	
		٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٥، ٣١٧	
		٣٣٦-٣٣٤، ٣٣٢	
ج		ت	
١٧٩، ٥٠، ٢٩	الجار	٢٣٠، ٢١٦، ١٧٥، ٢٨	تبوك
١٩٣، ١٧٦، ٢٥	جازان	٢٧٨، ٢٧٦، ٢٤٥، ٢٣٤	
٣٣٥	الجامع الأموي	٣١٣، ٢٨٤	
٢٩٩	جامع الخميس	١٢٧، ٢٦	الترعة
٦٢	جبلة	١٧٥، ١٧٤	تعز
٢٧٢	جبل حدة	٢٦٠	تل الدوير
١٠٤	جبل سليع	٢٩٦	تل سعد
١٠٤، ١٠٣	جبل سلع	١٩١، ١٨٩، ١٨٨	تمنية (جبل)
٢٣٧	جبل السموأل	١٩١، ١٨٨، ١٨٧، ١٩	تهامة
١٠٢	جبل عار	٣٠٦، ٢٧٩	
٨٠	جبل غير	١٧٨، ١٧٢، ٢٧، ٢٥	تياء
٣٠٩	جبل القلعة	٢١٥، ٢١١، ٢٠٠، ١٩٩	
١١١، ١٠٥، ٢٥	الجبل المتوهج	٢٢٢، ٢٢١، ٢١٩، ٢١٧	
١٢٣، ٤٦، ٢٨-٢٦، ٢٥	جدة	٣٣٨، ٣٣٦، ٢٢٦-٢٢٥	
١٧٠، ١٦٩، ١٦٧، ١٦٥		٣٣٩	
١٧٩، ١٧٧، ١٧٥، ١٧٢			
٢٥٧، ٢٤٨، ٢٤٤، ١٨١			
٣٣٢، ٣٢٦، ٣٢٤، ٢٥٨			
٣٣٥			
١٨٨	جرشة	ث	
٨٢، ٦٧	الحرف		
٢٨٣	جزيرة سيناء	٢٣٠	الثعلبية

٢٧	الحجر الأسود	جزيرة العرب ١٧-١٩، ٢٢، ٢٣،
٢٥	الحجرة النبوية	٤٠، ٤٢، ٤٧، ٥٢، ١١٥،
١٦٢	حجر اليمامة	١٧٣، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٦،
١٨٨	الخدبة	٢٢٦، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨،
٢٠٩	حرثا المدينة	٢٥٠، ٢٥٤، ٢٩٣-٢٩٥،
٤٨، ٤٧	حرة بني سليم	٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٦،
١٧٦	حرة خريدة	١٠٧
٧٢	حرة زهرة	٢٦
٩٨	حرة قباء	٨٠، ٨٢
٥٠، ٤٨، ٤٧	حرة النار	٨٠، ٨٥، ٨٧، ٩٠،
٧٩، ٧٨	حرة الوبرة	٩٧
١٧١	الحرمان	
٢٧٦	حسمى	ح
٢٠٦	حصن أبي الحقيق	٢٠٥، ٢٣٤، ٢٤٥،
٢١٠، ٢٠٦	حصن السلام	٢٦، ٥٩، ١٦٨،
٢٣١، ٢١١	حصن السمؤال	١٦٨، ١٧٢،
٢٠٦	حصن الشق	١٧، ١٨، ١٩، ٢٣، ٣٤،
٢٠٦	حصن القموص	٥٠، ٥٢، ١١٥، ١٩٥،
٢٠٦	حصن الكتبية	١٩٥، ٢٣٥، ٢٢٨، ٢٤٧،
٣٦، ٢٦	حصن كعب بن الأشرف	٢٥٢، ٢٥٤، ٢٧٧، ٢٨٣،
٧٥، ٧٤، ٧٠		٢٩٨
٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨	حصن مرحب	٣٠٥
٢٠٦	حصن ناعم	٤٦، ٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣،
٢٠٦	حصن النظاة	٢٤٥-٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٨،
٢٠٦	حصن الوطيع	٢٦٢

د	٢٥٣، ٢٤٧، ١٧٠	حضر موت
٢٥	دار آثار جدة	٢٧٨، ٢٧٥
٦٠، ٥٩، ٥٧، ٥٦	ديار بني سليم	٧٧
١٥٦	دار الأشعة	٢٧٨
١٩١، ١٨٨	الدارة	٢٠٠
١٦٣—١٦٠، ١٥٨	الدرعية	١٨٨
١٠٣	دكة جلال	١٨٨
٢٥٠، ٢٤٨، ٢٣٠، ٩٧	دمشق	٢٥٠
٣٣٦، ٣٣٥، ٢٨٠		١٨٨
٢٣٤	دومة الجندل	٢٤٢
ذ	خ	
٣١٤	ذنب كوكب	١٣٥
٨٢، ٨١، ٧٨	ذو الحليفة	٢٦٢، ٢٦١
ر	خرقة شعيب (خربة مدين) ٢٧٢،	٢٨٤، ٢٧٨
٣٠٦، ١٨٧	رأس تية	٣٢١، ٣١٧، ٣١٦
١٩٠	رابغ	٢٩٦
٣٠	رباط سيدنا عثمان	٥٧، ٤٦، ٢٨
٨٢	الربحية	٧٨
٢٠٥	الربذة	١٩٥
١٩٠، ١٨٨	رجال ألمع	٢٧٨، ٢٧٢
٢٥٠، ٩٩	الرس	٢١٥—٢٠٥، ٢٠٠، ٢٨
٢٧٩	رضوى	٢٣٤، ٢٣١، ٢٢١، ٢١٧
١٩٣	رفيدة	٢٣٥

١٨٨	سراة الازد	١٠٧	الرفيعة (بستان بالمدينة)
٨٢	سلطانة	٣٠٧، ٣٠٤، ٢٦٧	الرقيم (جبل)
٦٧، ٢٧	سلع (جبل ، ومدينة)	٣٠٨	
٣١٢، ٢٦٤—٢٦٢، ٢١١		٢١٩	روسيا
٣٢١، ٣١٩، ٣١٧، ٣١٣		٣٢٩	الروشة
٢٤٨	سلمى	١٦١، ١٥٩—١٥٣، ١٥١	الرياض
١٥٩	سلوى	١٧٧، ١٧٣، ١٧٢، ١٦٢	
٧٧	السليل	٣١٠، ٣٠٩	
٣٣٥	سمير (فندق)		
١٧٩	السودان	ز	
١٩٣	السودة « قرية »	٦٧	زباله الزج
٣٢٤، ٣٠٥، ٩	سورية	٢٨	زرب الكتمة
١٩٣	سوق الاثنين	٢٨٧، ٢٧٦، ٢٠٥	زرود
٣٣٠	سوق العرب	٧٨	زغابة
٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧	سوق عكاظ	١٥٩، ١٦٨	زقاق الحمزاوي
٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١		٢٠	زمزم
٣٢٩، ١١١	سويقة		
٦٩	السيمح	س	
٣٢١، ٣١٩—٣١٧، ٣١٥	السيق	٣٠٥	سبأ
٣٢٢		٢٨	سد الحمام
٢٦	السيل الكبير	٢٨	سد الخنق
٢٧٥	سيوون	٢٨	سد رانوناء
		٢٨٠، ٢٢	سد السملقيي
	ش	٨٨، ٨٥	سد عاصم
٣٣٥	شارع جمال	٢٢	سد مأرب

٢٠٣	الصلاصل	٢٣٠، ٢٠٦، ٥٤، ٤٩، ٢٠	الشام
٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢	الصلصلة	٢٧٧، ٢٧٤، ٢٤٧، ٢٣٤	
٢٠٧، ٢٠٥		٣١٣، ٣٠٥	
١٩٣	الصلليف	٢٧٥	شباب
١٧٤، ٥٤	صنعاء	١٩١	الشرحة (جبل)
١٤٨، ١٤٥، ٢٨	صهاريج جدة	١٧١	الشرفية (محلة بجدة)
١٤٩		٢٦٠	الشرق الأدنى
١٧٢	صهاريج مسجد الشافعي	٢٦٠	شرق الأردن
١٧٢	صهاريج الشيخ محمد نصيف	١٨٩	شعار
٣٣٠	صوفر	٢٦٥	الشعب
٩٨	الصوبيري « بستان »	٤٦	شعري
١١٢، ٢٧، ٢٦، ١١	الصويدرة	٤٦	شروي
١٢٨، ١٢٦-١٢١، ١١٩		٤٦	شمنصير
٢٨٠، ٢٤٨، ١٤٤، ١٣٢			
١٧٩	الصين	ص	
	ض	٢٨٤	صادر
		١٧٦	صبيا
٢٦١	الضفة الغربية (للأردن)	٢٩٨	الصبية
١٩٣	ضنكان	١٤٣	الصحرَاء الكبرى
	ط	١٠٢	الصخور
		١١٥	صخيرات التمام
٢٩، ٢٨، ٢٦، ٢٥	الطائف	٢٥٤	صعدة
١٩٢، ١٧٥		٥٠	صعيد مصر
٢٧٨	طبرية	١٠٢	الصفاصف
١٩٨	طب	٩٤، ٩٣	صلاصل

٧٧	عرصة السليل	٢٩	الطراوية (بستان)
٢٨٤	عسفان	١٤٧	طرابلس
١٠٢، ٦٩، ٦٨	العُصْبَة	٣٠٧	طرطوس
٢٣١	عفيف	١٦٣	الطريف
٢٦٨، ٤١	العقبة (ساحل وواد)	٢٤٨، ١٢٩	طريق القصيم
٢٨٩، ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٨١		١٢٩	طريق المدينة
٣١٨، ٣١٥، ٣١٢		٥٧	طريق مكة
١٨٨	عقبة شعار	٣٠٨	طليطلة
١٩٢، ١٨٩	عقبة عتود	٣٠٨، ٣٠٧، ٢٧٨	طهران
١٨٨	عقبة القرون	١٨٨	طود
٢٧٨	عكا	٢٨٦	الطور
٢٤٨، ٢٤٧	العلا		
٣١٥، ٣١٢، ٣٠٩—٣٠٧	عَمَّان	ظ	
٣٢٧، ٣٢٦، ٣١٨		١٧٥، ١٧٤	ظلم
٣٠٧	عمورية	٣٣٧	الظهران
١٨٨	عنز		
٢٨	عين تبوك	ع	
٢٨	عين خليص	١١٣، ١١٢	العاصد
٢٨	عين خيبر	٣٣٠	عاليه
٢٨٥	عين زبيدة	٧٢	العالية
٢٨	العين الزرقاء	١٨٨	عبل
٢٨	العين العزيزية بجدة	١٠٤	عثعث
٢٠٩، ١٠٨	عير (جبل)	٣٠٦، ٢٩٦، ٥٠	العراق
٢٥	العيص	١٠٢، ٩٥	العرصة
٢٨	عيون وادي فاطمة	٨٢، ٧٩، ٧٨، ٧٧	العرصتان

٢٨	عيون ينبع	ق
	غ	القاهرة ٢٧٩، ٢٥٤، ٢٤٩، ٥٠
٢٨١		
٤٥	غراب	قبا ١٠٧، ١٠٢، ١٠٠، ٩٨
٢٦٠	غزة	قبر الباشا ٢٤٦
١٦٣، ١٦٢	غصيبة	القحمة ١٩٣
١١٥	غميس الحمائم	القدس (جبل) ٢٧٩
٢٣٥، ٢٣٣	غنيم (جبل)	القرائن ٩٦، ٧٩
٢٤٥	الغوافة	قروح (مدينة الحجر) ٢٤٠
	ف	القرين ٢٩٧
		قرين صريحة ١٠٢
٦٩	فارع	قسطنطينية ٣٠٦
٤٦	فران	قصر آل طلحة ٨٠
١٩٣	فرسان	قصر ابراهيم بن هشام ٨٠
١١٣، ١١٢	فرش ملل (أملال)	قصر اسحق بن ايوب ٨٠
١١٥		قصر إزلام أو إسلام ١٧٥
٢٧٩	الفرع	قصر ابنة المازقي الزهرية ٧٩
٢٦٠	القسطاط	قصر إمارة المدينة ٩٨
٢٨٣، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٣٠	فلسطين	قصر البنت ٢٤٦، ٢٤٥
٣٠٥		قصر الرضم ٢٣٣
٣٢٩	فندق أمية	قصر سعيد بن العاص ٧٩، ٤٣، ٣٦
١٧٧، ١٧٥	الفوّ	٩٦، ٩٥
٢٣٠	فيد	قصر سُكينة ٧٩
٢٩٧، ٢٩٦، ٢٩	فيلكا	قصر السموأل ٢٣٧، ٢٣٢، ١٧٨

٢١	القليس	٢٦	قصر الضيافة بالعقيق
٢٦١	قمران	٨٠	قصر طاهر بن يحيى
١٧٦	قوز الجعافرة	٨٠	قصر عاصم بن عمرو بن عثمان
		٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٥، ٨١	
		١٠٢، ٩٢، ٩١، ٩٠	
٢٩٦	كاظمة	٧٩	قصر عبد الله بن عامر
٥٨	الكامل (قرية)	٨٠	قصر عبد الله حفيد عثمان
٣٥	الكعبة	٩٢، ٩٠، ٧٩	قصر عروة بن الزبير
١٥٧	كلية الآداب	٨٠، ٧٩	قصر عنيسة
١٨٠	الكنندرة (محلة)	٨٠	قصر محمد بن عيسى الجعفري
٣٠٤، ٣٠٠، ٢٦٧	الكهف	٧٩	قصر مراجل
٣٠٥، ٢٨٠	كهف شعيب	٧٩	قصر مروان بن الحكم
٢١٩	كوبا	٨٠	قصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة
١٨	كورس	٧٩	قصور اسحق بن أيوب
١٧٨، ٤٩	الكوفة	٧٩	قصور جعفر بن سليمان
٢٩٤، ٢٩٣، ٢٩١، ٩	الكويت	٧٩	قصور جعفر الجعفري
٢٩٨، ٢٩٧، ٢٩٦، ٢٩٥		٨٠	قصور عبد العزيز حفيد عثمان
٣٣٣، ٣٠٠، ٢٩٩		١٧٤	القصير
٣٣٠	كيفون	١٢٦، ١٢١، ٩٩، ١٢	القصيم
		٢٨٢، ٢٤٨	
		٢٩٨	قطر
٣١	لار	١٦٢	القطيف
٣٢٨، ٣٢٤، ٢٦١، ٩	لبنان	١٨٨، ١٦٧	القلزم (البحر الأحمر)
٣٣٥، ٣٣٤، ٣٣٠، ٣٢٩		٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٤٨	
٣٣٦		٢٨٩، ٢٨٤، ٢٨٣	
١٨٨	اللبنة		

١٤٩، ٢٥	المسجد النبوي	١٤٧	ليبيا
٢٠٧، ١٦٨			
١٦٩	المشورة	٣	
١٣٤	مدينة بني سليم	٢٣٤	مأرب
١٩٢، ١٧٢، ٢٧، ٢٥	مدائن صالح	٢١، ٢٠	ماكوربا
٢٤٦، ٢٤٥، ٢٤٤، ٢٣٩		٦٧	المال
٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٧		١٧٩	متحف آل باعشن
٢٦١، ٢٥٨، ٢٥٤، ٢٥٣		٣٣٠	متحف بيروت
٣٣١، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٦٢		٢٣١، ٦٠	متحف جدة
٣٠٩، ٧٧	المدرج الروماني	١٣٦	متحف الصويدة
٢٩	مدرسة العلوم الشرعية	١١٢	منغر (واد)
٣١٣	مدينة الأنباط	١٠٤	المجزرة
٣٦، ٣٣، ١٢، ١١	المدينة المنورة	٣٨	مجنة
٥٠، ٤٨—٤٥، ٤٣		٢٣٥	المحجة
٦٧، ٦٠، ٥٦، ٥٢		٢٠١	محطة رشوان
٧٥، ٧١، ٧٠، ٦٩		١٧٩	محلة الشام
٨٤، ٨٢، ٧٨، ٧٧		١٦٧	محلة المظلوم
٩٩—٩٥، ٨٩، ٨٨		١٦٩	مسجد الآبنوس
١٠٦، ١٠٤، ١٠٢		٣٤، ٣٠، ٢٥	المسجد الحرام
١١٢—١١٠، ١٠٨		٣٣	مسجد الراية
١٢٣، ١٢١، ١٢٠		١٦٧	مسجد الشافعي
١٤٩، ١٤٨، ١٢٦		١٦٨	مسجد عثمان بن عفان
١٩٠، ١٧٨، ١٦٨		٦٩	مسجد الفتح
٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٩		٩٨، ٦٩، ٢٥	مسجد قباء
٢٠٩، ٢٠٦، ٢٠٤		١٦٨	مسجد المعارج

٤٥	مغينية	٢٤٧، ٢٢٦، ٢١٦
٣٢٠	مقصف البتراء	٢٨١، ٢٦٥، ٢٥٩
١٠٢	مقمة أو (مقمن)	٣١٣، ٣١٢، ٢٨٢
٢٦، ٢١، ١٠، ١٩	مكة المكرمة	٣٤٩، ٣٢٩، ٣٢١
٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨		٢٤٥
٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٣		١٥٦، ١٥٥
٥١، ٤٥، ٤٤، ٣٨		٣٣٥
٧٧، ٧٢، ٦٠، ٥٦، ٥٢		٣١٧
١٢٣، ١١٢، ١٠٧، ٩٨		٢٥٠
٢٠٩، ١٩٢، ١٩٠، ١٦٢		١٣٥
٢٢٨، ٢٨١، ٢٤٨، ٢٢٧		١٦٣
٣١٨، ٣٠٦، ٢٨٨، ٢٨٤		٥٧، ٥٦، ٥٤، ٤٩، ٣٥
٣٣٥		١٣٢، ١١٨، ٩٤، ٩٣
١٧٢	مكتب المعادن	٢٤٢، ٢٤٠، ١٨١، ١٧٩
١٨٨	الملحة	٢٥٠، ٢٤٦، ٢٤٤، ٢٤٣
١٦٢	المليبيد	٢٧٧، ٢٧٥، ٢٧٠، ٢٦٢
١٨٢	المليبيح	٣٣١، ٣٠٥، ٢٨٤، ٢٨٣
٣٢٦، ٢٦٠	المملكة الاردنية الهاشمية	١٥٤، ١٥٣
٤٥، ٩	المملكة العربية السعودية	٤٦
١٩٧، ١٧٤، ١٧٣، ١٥٣		٢٩٥
٢٨٩، ٢٨٤، ٢٧٦، ٢٦١		٣١٥، ٣١٢، ٢٦٨
٣٢٨، ٣٠٠، ٢٩٦		٢٨٢، ٢٨١، ٢٧٢
٣٠	المناحة	٥٠
٢٦٥، ٤١، ٣٨	منى	٥٠
٥٢	منطقة بني سليم	١٨٨
	مربط الحصان	
	المربع (قصر)	
	المرجة	
	مرقص البتراء	
	المروة البيضاء	
	مرو الروذ	
	مريخ	
	مصر	
	المصمك	
	معدن الدهننج	
	معبد سوتيرا (الخرافي)	
	معان	
	مغاير شعيب	
	المغرب	
	المغوث	
	المغوث	

٢٧٥	وادي ابن علي	٣٣١	منطقة تيماء
٢٠١٠٩٣	وادي بطحان	٦٢،٤٥	منطقة الكامل
٢٤٨٠١٨٢،١٢٩	وادي بويب	١٧٥،١٧٤	المهد
٢٠٧	وادي الترة	٣٠٧	الموقر
١٨٨	وادي تبة	٨١	المقات
١٨٩	وادي جوجان		
٢٣٥	وادي حسينية		ن
٢٣٥	وادي حنيفة	٢٤٤	نادي البحر الأحمر
١٧٤	وادي الحمض	٤٥،٢٣،١٩،١٨،١٧	نجد
١٨٨	وادي حلي	١٨٨،١٦٣،٥٠،٤٦	
٢٣٥	وادي الحمل	٢٩٨،٢٥٤،٢٥٣	
١٨٩	وادي خبيسي	٣٠٥،١٩٤،١٧٧،١٨	نجران
٢٣٥	وادي نحويلد	٢٣٤،٢٢١	النفود الكبير
١٨٨	وادي دكان	٢٧٩	نهان (جبل)
١٧٧،١٧٤،١٩،١٨	وادي الدواسر	٧٢	النواغم
٢٠٧	وادي الدوم	٣٠٧	نية
١٠٠،٦٩،٢٧،١١	وادي رانواناء	٢٨١،٢٨٠	النيل
١٩	وادي الرمة		
٤٦،٤٥	وادي ساية		ه
٦٢،٤٦	وادي ستارة	٢٤٨	هجرا
١٩	وادي السرحان	٣١٧،٢٩٦،١٧٩	الهند
٢٠٧	وادي الصويدة		
٢٣٥	وادي صيفية		و
١٨٩	وادي ضلع	١٨٩	وادي أمانة
١٨٩	وادي طب	٤٦	وادي أمج

١٧٤	الوجه	١٨٩	وادي عتود
٢٠٢	وعبرة	١٨٩	وادي عربة
٢٧٩	ورقان (جبل)	٤٣، ٣٦، ٢٧، ٢٦	وادي الحقيق
٢٦	الوهط	٨١، ٧٨، ٧٧، ٧٦	
		٩٢، ٩٠، ٨٩، ٨٢	
		٩٧، ٩٦، ٩٥	
ي		١١٢	وادي الفريش
٢٦٥، ٦٧، ٤١، ٣٩	يثرب	٢٤٧، ٢٤١، ٢٣٠	وادي القرى
١٦٢، ٥٦	اليامة	٢٥٠، ٢٤٨	
٣٩، ٢١، ٢٠	يمن (قطر ومحلة)	٦٧	وادي قناة
١٨٨، ١٨٠، ١٧٤، ١٦٨		٥٧	وادي كُليّة
٢٥٤، ٢٥٣، ٢٤٧، ٢٣٤		١٨٩	وادي الملاحة
٢٧٣، ٢٧١، ٢٦٥، ٢٥٦		٧٢	وادي مذيئيب
٣٠٦، ٢٧٨، ٢٧٥		٣١٥، ٣١٣	وادي موسى
٢٧٩، ٢٩، ٢٨	ينبع	٥٠	واسط

فهرس الصور والنقوش

صفحة	
٤٠	نقش أثري بمنطقة عكاظ
٤٣	طلل قديم بمنطقة عكاظ
٥١	أمر من المقتدر العباسي بعمارة طريق مكة ، (وجد بأرض بني سُليم)
٥٥	شاهد قبر قديم ببلاد بني سُليم
٦٩	طلل أطم الضحيان بالمدينة المنورة
٨٨	مخطط أثري تقريبي لقصر عاصم وسده بالعقيق (المدينة المنورة)
٩٦	طلل قصر سعيد بن العاص بالعقيق (في المدينة المنورة)
١٢٩	نقش ثمودي بجبل الصويدة
١٣٠	صورة كتابية ثمودية منقورة في جبل الصويدة
١٣١ » » » » » »
١٣٣	صورة نقش عربي في جبل الصويدة مؤرخ في سنة ٢٠٥ هـ ...
١٣٤	صورة نقش عربي آخر ، في جبل الصويدة من أيام هارون الرشيد
١٣٧	صورة نقش عربي آخر ، بجبل الصويدة
١٣٨	نقش القاسم بن محمد بن أبي عيسى ، بجبل الصويدة
١٣٩	نقش أبي سليمان علي بن طالوت ، بجبل الصويدة

١٤٠	نقش النجمة الخماسية ، بجبل الصويدرة
١٤٢	نقش « ناصربات على لحم لند » ، بجبل الصويدرة
١٤٣	رسم الخليل تجر عربات ، من آثار الصحراء الكبرى الماثلة لآثار الصويدرة
١٤٤	حيوانات بلاد العرب في الجاهلية ، منقورة في جبل الصويدرة
١٤٥	من صور جبل الصويدرة
١٤٦	صورة صيد الفيل
١٤٧	صورة صياد عربي بالصويدرة
١٤٨	صورة الاسد والرجل
١٥٤	بوابة بيت جويسر بالرياض
١٥٦	عمران الرياض القديم
١٦٣	جامع الشيخ محمد بن عبد الوهاب
١٧٧	من رسوم متحف جدة
٢١٠	حصن مرحب
٢١٢	أحد بيوت خير القديمة
٢٢٩	المؤلف على بئر هداج بتياء
٢٣٢	قصر السموأل بتياء
٢٥١	بعض البيوت الأثرية في مدائن صالح
٢٩٥	معبد سوتير (الخرافي) بفيلكا
٢٩٧	الاختام الأثرية في الكويت
٢٩٩	جامع سوق الحميس بالبحرين

فهرست المراجع

التيجان في ملوك حمير : لعبيد بن	القرآن المجيد
شربة الخرهمي	تفسير البغوي
المسالك والممالك : للاصطخري	تفسير المراغي
المسالك والممالك : للبشاري	سيرة ابن هشام
معجم البلدان : لياقوت الحموي	الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام
أسماء جبال تهامة وسكانها : لعرام بن	للسهيلي
الأصنع السلمي	قصص الأنبياء : لعبد الوهاب النجار
تهذيب اللغة : للأزهري	صفة جزيرة العرب : للهمداني
لسان العرب : لابن منظور الأنصاري	الاكليل : للهمداني
المخصص : لابن سيده	تاريخ الطبري
القاموس المحيط : للفيروزآبادي	تاريخ ابن خلدون
تاج العروس : لمرتضى الزبيدي	ديوان النابغة الجعدي
المعجم الوسيط : لمجمع اللغة العربية	ديوان حسان بن ثابت
بمصر	ديوان كثير عزة
معجم متن اللغة : لأحمد رضا	الفهرست : لابن النديم
المنجد : للويس معلوف	الكامل : لابن الأثير
آثار البلاد والعباد : للقزويني	

تاريخ هيرودوتس : هيرودوتس
رحلة ابن جبير
رحلة ابن بطوطة
رحلة الشتاء والصيف : لكبريت
رحلة في بلاد العربية السعيدة : لتزيه
العظم
مرآة الحرمين : لأيوب صبري
مرآة الحرمين : لإبراهيم رفعت
العرب قبل الإسلام : لجورجي زيدان
تاريخ العرب قبل الإسلام : لجواد
علي
العرب في أحقاب التاريخ : لأمين
مدني
تاريخ العرب (مطول) : لفيليب
حتي
من الساميين إلى العرب : لنسيب
وهيبة الخازن
الأعلام : لخير الدين الزركلي
جغرافية شبه جزيرة العرب : لعمر
رضا كحالة
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام :
لسعيد الأفغاني
وفاء الوفا : للسمهودي
الجزيرة العربية : لمصطفى مراد الدباغ
مشعل المحمل : لمحمد صادق

دائرة المعارف : لبطرس البستاني
ملوك العرب : لأمين الريحاني
جزيرة العرب : لحافظ وهبة
خمسون عاماً في جزيرة العرب :
لحافظ وهبة
قلب جزيرة العرب : لفؤاد حمزة
بحث المعادن : لرشدي الصالح ملحس
صحيح الأخبار : لابن بليهد
آثار الأردن : لهاردنج ، ترجمة
سليمان موسى
كهف أهل الكهف : لرفيق وفا
الدجاني
التقوش والآثار بصخور الحجاز :
لعثمان رفاقي رستم - ترجمة -
أحمد شطا
فصول من تاريخ المدينة المنورة :
لعلي حافظ
الزراعة الوطنية : لصالح كمال المدني
في بلاد عسير : لفؤاد حمزة
في ربوع عسير : لعمر رفيع
تاريخ عسير : لهاشم بن سعيد النعمي
عنوان المجد في تاريخ نجد : لابن بشر
تاريخ نجد : لفيلبي
أرض الأنبياء : لفيلبي
تاريخ ابن غنام

التحقيق المدعم في مسجد الراية وبئر
جبير بن مطعم (مخطوط) للمؤلف
كتاب الصحراء الكبرى : لجيمس
ويلارد
مذكرات محمد صالح باعشن (مخطوطة)
معلومات خاصة ومكتوبة من الشيخ
محمد نصيف
معلومات أثرية من الدكتور عبد الرحمن
الانصاري .

تاريخ مدينة جدة : للمؤلف
تقرير البعثة الزراعية الامريكية
علوم الطبيعة : لادوار غالب
الكويت . حقائق ومعلومات : لوزارة
الارشاد والآثار الكويتية
مجلة « المنهل »
الآثار الباقية عن القرون الخالصة :
للبيروني
آثار المدينة المنورة : للمؤلف

فهرس الموضوعات

صفحة

٧	المقدمة
١٥	أضواء على تاريخ جزيرة العرب

(آثار مكة المكرمة وما حولها)

٣٣	آثار مكة المكرمة
٣٧	سوق عكاظ
٤٥	قبيلة بني سلّيم في التاريخ : أخبارها وآثارها

(آثار المدينة المنورة وما حولها)

٦٧	يثرب : القرية والمدينة
٧٠	حصن كعب بن الاشرف النبهاني
٧٦	وادي العقيق

٨٥	بين سد عاصم وقصره بالعقيق
٩٥	قصر سعيد بن العاص
٩٨	قصر امارة المدينة المنورة
١٠٠	وادي رانونا
١٠٣	جبل سلع والآثار به
١٠٤	جبل سليع
١٠٥	الجبل المتوهج
١١٢	جبل عار
١١٩	الصويدرة وادي الآثار الحميل ، أو الخلاء الذي أصبح مدينة عامرة

(آثار الرياض وما حولها)

١٥٣	من آثار الرياض
١٥٨	وقفة بين أطلال الدرعية

(آثار جدة وما حولها)

١٦٧	الآثار في مدينة جدة
١٧٩	متحف آل باعشن بجدة
١٨٢	آثار وادي بويب

(عسير : ملامح وآثار)

١٨٧	عسير
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	------

(الآثار شمال البلاد العربية السعودية)

١٩٩	رحلة الشمال
٢٤٠	الحجر او مدائن صالح
٢٥٧	بيوت مدائن صالح
٢٦٥	موطن شعيب عليه السلام

(الكويت : ملامح وآثار)

٢٩٣	الكويت بين التاريخ والآثار
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	----------------------------

(الاردن : ملامح وآثار)

٣٠٣	كهف أهل الكهف
٣١٢	البتراء : المدينة الوردية الساحرة

(لبنان وسورية : ملامح وآثار)

٣٣٤	جولة في ربوع لبنان وسورية
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	---------------------------

(الفهارس)

٣٣٩	فهرس الاعلام
٣٥٣	فهرس الأماكن
٣٦٧	فهرس الصور
٣٦٩	فهرس المراجع
٣٧٢	فهرس الموضوعات
٣٧٥	تطبيقات

للمؤلف

- * آثار المدينة المنورة
- * إصلاحات في لغة الكتابة والأدب
- * بُناة العلم في الحجاز الحديث
- * الكتاب الفضي للمنهل
- * تاريخ مدينة جدة
- * تحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة
- * رحلة الرياض
- * التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم جدة
- * أربعة أيام مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي
- * بين التاريخ والآثار
- * تاريخ العين العزيزية بجدة
- * تاريخ مكة المكرمة (يشغل فيه المؤلف منذ أربع سنوات بناء على إشارة معالي الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي . ويقدر المؤلف أنه سيكون في أربعة مجلدات إن شاء الله تعالى) .
- * التوأمان : أول رواية نشرت في المملكة العربية السعودية
- * الانصاريات : (شعر)
- * بنو سليم : عرض لشريط تاريخي عن امتداد الاسلام والعروبة من مهدهما إلى العالم

بين التاريخ والآثار

هذا الكتاب «محمّول» دراسات متوالية ، للتاريخ والآثار ، استمرت أمداً ينيف على ثلاثين عاماً .. بدأها المؤلف في المدينة المنورة ، في شوارعها ومنازلها . ومساجدها وقصورها الأثرية وجبالها ووهادها وحيرارها . وأوديتها .. وبلغ بها السير إلى مكة المكرمة وجده والطائف والرياض والخرج والدرعية وتباء في المملكة العربية السعودية ، والبحرين والكويت والأردن وسورية ولبنان في خارج المملكة .. وقد عني المؤلف بصهر دراساته هذه المنشعبة في بوتقة دراسات مركبة هادفة وشاملة .